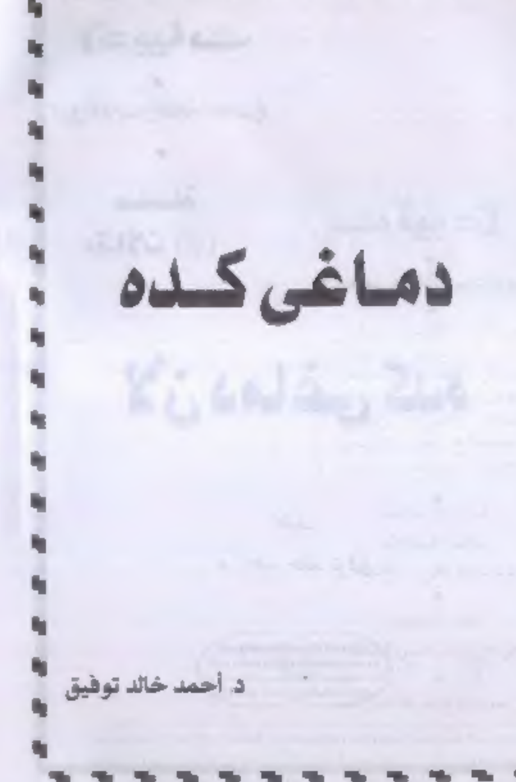




دماغي كده!

د. أحمد خالد توفيق



لأن دماغى كده

راق لى جدًا رأى سيد الرواية (نجيب محفوظ) عندما سأله حشد من الأدباء فى مجلة الهلال عن سبب عدم كتابته المقال ، فقال : « شاء الله أن يجعلنى من أصحاب الانفعالات لا أصحاب الآراء » . وفى موضع آخر قال إن فن الرواية مراوغ يسمح لك بقول ما تريد دون أن يُمسك عليك رأى معين ، فهو كالكرة التى رآها فلاسفة الإغريق أكمل الأشكال الهندسية لأنه ليس لها طرف يمكن الإمساك به .

ظللت أتبنى هذا الرأى كثيرًا ، وكانت الصحفية اللامعة والصديقة العزيزة (أمنية فهمى) تتألق وقتها فى جريدة الدستور الإصدار الأول ، فاقترحتْ علىّ أن أكتب المقال معهم ، لكننى اعتذرت لأننى وجدت أن كُتّاب الدستور يقولون بالضبط ما أريد قوله وبشكل أفضل .. لماذا يجب أن يصير الجميع طهاة ؟.. لماذا لا يكتفى البعض بتذوق الطعام الجيد ؟..

عندما انتقلت (أمنية) إلى جريدة التجمع كررت طلبها ، وهنا خطر لى أن عندى أشياء لم يقولوها أو على الأقل لم أقرأها لهم ، وأنه من الممكن ألا تكون (هيكل) أو (هويدى) أو (محمود عوض) أو د . (جلال أمين) ، وبرغم هذا يمكنك التعبير عن رأيك . من ثم كتبت على استحياء المقال الأول .. ثم الثانى فالثالث .. وكنت على استعداد تام للتوقف فى أية لحظة ، لكنى ذهبت لزيارة مقر جريدة التجمع لأجد مجموعة ظريفة ودودة من المفكرين ، واتضح أن مقر هذه الجريدة غرفة عتيقة متداعية بالطابق العلوى من حزب التجمع تطل على سطح جميل تغمره الشمس ، ووجدت أن أكثرهم يعمل متطوعًا وبحماس غريب تحت قيادة الأستاذ

(مدحت الزاهد) . أعتقد أنهم جميعًا كانوا يحبون ما يعملون ، ولربما ستبقى هذه الأيام في ذاكرتهم باعتبارها من أجمل أيامهم . الأجمل أنهم رحبوا بي فلا أعرف بالضبط ما قالته (أمنية) لهم .. لكنهم كانوا سيتصرفون بالطريقة نفسها لو جاء (بوب ودوارد) للكتابة معهم !!

كتبت لجريدة التجمع فترة طويلة بلا انتظام ، ثم توقفت الجريدة للأسف لأسباب يطول شرحها ، وولد الدستور الجديد لأكتب له بلا انتظام كذلك . ثم ولد الدستور اليومي ليطلب مني الصديق العزيز (إبراهيم عيسى) مقالاً يوميًا ، لكني صحت في ذعر : « كله إلا هذا !.. أريد بعض الحرية وإلا اضطررت لاختلاق الأفكار اختلاقًا ! » هكذا وافق على أن أكتب مقالاً أسبوعيًا في حدود ألف كلمة ... وهو ما حرصت على الالتزام به ، ما عدا بعض أسابيع الانشغال أو النضوب أو الإرهاق.

ثم جاء موقع (بص وطل) على الإنترنت .. انضممت له متأخرًا لارتباطي الحصري بموقع آخر ، لكني بدأت أكتب له بشبه انتظام . النتيجة هي أن عددًا هائلاً من المقالات قد تراكم عندي مع الوقت ، وهنا شعرت بالهباء .. كتبت كثيرًا لكنه تبدد على الأرجح في وسائل سريعة البخر .. الإنترنت وسيلة طيارة لا يبقى فيها شيء في موضعه أكثر من عامين .. الصحف تظل وسيلة ثابتة حتى يُلف فيها أول رغيف أو تستعمل لتلميع أول نافذة ..

هكذا خطر لي أن أجمع ما كتبت بين دفتي كتاب ، ليكون شيئًا ثابتًا يمكن الرجوع إليه . مارست انتقائية عالية في اختيار المقالات لأن عددها كبير فعلاً (لم أعرف أنني ثرثار كالآخرين إلا في تلك اللحظة) ونشر كل

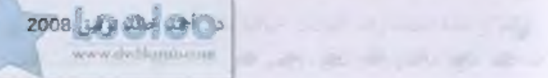
شيء يجعل هذا الكتاب في حجم الموسوعة البريطانية ، ولأن أحداثًا كثيرة لم تعد تهم أحدًا ، وبعض الآراء وجدتها فيما بعد سخيفة أو ساذجة . حاولت كذلك تصنيف المقالات إلى أقسام :

هناك مقالات لها طابع الذكريات .. هناك مقالات تزعم أنها تفهم في السياسة .. هناك مقالات تلعب بالضبط في دائرة (ماذا حدث للمصريين) التي كتب فيها د. (جلال أمين) كتابًا بالغ الأهمية ، وكتب فيها (أسامة غريب) كتابًا فائق الإمتاع قرأه الجميع تقريبًا هو (مصر ليست أمي دي مرات أبويا) .. هناك مقالات ذات طابع نقدي فني .. وهكذا ..

لعلك قرأت بعض هذه المقالات ، ولعلك قرأتها كلها . لكن اجتماعها في كتاب واحد يعطيك نظرة أشمل وأعمق . قد يبرهن هذا الكتاب على أن العزيزة (أمنية فهمي) بعيدة النظر ، أو يبرهن على أنها حسنة النية أكثر من اللازم ، لكني في جميع الأحوال أعدك بشيء واحد : هذه مقالات صادقة تمامًا لم أكتبها طلبًا للمادة أو نفاقًا لمسئول أو دفاعًا عن جهة ما ..

عندما حاول بعض المحيطين بعبد الناصر أن يوغروا صدره على العظيم (أحمد بهاء الدين) ، قال لهم : اتركوه .. نحن راقبناه وندرك أنه لا علاقة له بأحد .. هذا رجل (دماغه كده) ..

(دماغه كده) .. هذا هو شعار هذه المقالات .. فقط هناك شخص واحد كتبت وهو في ذهني ، ويهمني بالطبع رضاه والفوز باحترامه إن لم يكن بحبه ، وهو القادر على جعلي أتردد أو أراجع دماغي هذه .. وهو الوحيد الذي أدين له بكل شيء : القارئ .....



د. أحمد خالد توفيق 2008

دماغى كده

فى السياسة

جمهور واغش

يجلس الناقد السينمائى الجميل رءوف توفيق فى قاعة السينما يحاول أن يفهم شيئًا من الفيلم ، لكنه يفاجأ بأن الصوت عالٍ جدًا لدرجة أن الجمهور لا يسمع حرفًا من الحوار .. هناك حيوان ما قد فتح السماعات إلى أقصى طاقة لها ، وبالتالى تحولت قاعة السينما إلى معتقل نازى أو جحيم دانتى أو حظيرة مواش حسب التشبيه الذى يروق لك ، وبما أنه رجل مهذب فقد طلب من هذا العامل أو ذاك تخفيض الصوت بلا جدوى ، من ثم اتجه إلى مدير السينما فى مكتبه ليفاجأ بخلوف بدين جالسًا يعد كومة من أوراق المال .. عرفه بشخصه ونقل له شكواه ، لكن المدير رفض فى كبرياء أن يخفض ارتفاع الصوت ، وقال دون أن ينظر له : « يا أستاذ سيبك منهم .. ده جمهور واغش ! »

كان هذا فى أوائل السبعينات ، وكانت تلك أول مرة يسمع فيها الناقد الكبير هذا المصطلح ، فلما سأل عرف أنه مصطلح سوقى معناه (تحت المستوى) ، وهو ما يشبه مصطلح (بيئة) الذى نستعمله اليوم .

لم أستطع قط نسيان هذه القصة ، وإن كنت أراهن على أن رءوف توفيق نفسه لا يذكرها. ما الذى كان يمكن أن يحدث لو خفض المدير ارتفاع الصوت ؟.. هذا الإصرار يعكس بلا شك رغبة لا نهائية فى الإيذاء والإهانة والاستعلاء .. هذا جمهور واغش فليُعامل كما يُعامل الجمهور الواغش إذن ..

أتذكر هذه القصة وقد تحولت حياتنا بالكامل إلى قاعة سينما يصر صاحبها على أننا جمهور واغش ، ويصر على ألا يخفض صوت السماعات

مع أن هذا لن يكلفه شيئًا . رءوف توفيق يمثل الصحافة ويمثل المثقفين الذين يسودون صفحات الجرائد والمجلات كل يوم فلا يصغى لهم أحد ..

تكلم عن الغلاء .. تكلم عن انقطاع المياه .. تكلم عن التعذيب .. تكلم عن الفساد. تكلم عن تدهور التعليم والخدمات .. تكلم عن انهيار الريادة الإعلامية المزعومة .. تكلم كما تريد فأنت جمهور واغش ولن يتعب أحد نفسه بأن يخفض صوت السماعات من أجلك .. من الذى أصر على تغيير عبارة (الشرطة فى خدمة الشعب) إلى (الشعب والشرطة فى خدمة الوطن) ؟.. لماذا لا تترك هذا الشعار يا أخى حتى لو كان مجرد شعار ، وما أكثر الشعارات الجوفاء فى حياتنا ؟ ، لكن لا .. لا يجب أن تنسى لحظة واحدة أنك جمهور واغش .. هل تجرؤ على أن تتصور لحظة أن الشرطة فى خدمتك يا جربوع ؟..

ما الذى جعلنا جمهورًا واغشا ؛ أو لماذا يعتبروننا كذلك ؟.. على قدر علمى نحن أولاد ناس ، ومعظمنا يستحم (فى المحافظات التى ما زال الماء يصلها) ، ومعظمنا حاصل على الإعدادية والله العظيم . هذا التعامل الخشن جعل الناس يتصرفون بالمثل ولا يثقون بالحكومة . ولهذا تتداعى إلى ذهنى لفظة (أومرتا Omertà) . (أومرتا) معناها مؤامرة الصمت ، وهو سلوك شعبى معتاد لدى الصقليين والإيطاليين الذين يتعاملون مع عصابات المافيا .. هنا يصير من الممنوع على المواطنين أن يتعاملوا مع أية جهة حكومية كانت . يُقتل أخوك أو جارك لا سمح الله لكنك لا تبلغ الشرطة حتى لو عرفت القاتل. كل الشهود الذين رأوا الجريمة لم يروا شيئًا .. يقبضون على القاتل فينكر أن المافيا كلفته بأى شىء ولا ينطق بحرف . ينسحب هذا على أى تعامل حكومى ؛ لأن الناس هناك كونوا حكومتهم الخاصة التى تديرها المافيا.

كنت على الطريق السريع مع صديق لى ، عندما رأيت تلك العلامات المعروفة التى تنذر بوجود رادار فى طريقنا . إنها الإشارات المتقطعة للنور من السيارات القادمة فى الاتجاه المقابل. على الفور خفض صاحبى سرعة سيارته إلى ستين ، وتحول الطريق السريع إلى صف من سيارات مهذبة تمشى فى سلام كأننا جوقة من الملائكة فى موكب سماوى ..

ما حدث على الطريق السريع هو مؤامرة شعبية كاملة على طريقة أومرتا لخداع الرادار وخداع الحكومة. مؤامرة اتفق عليها مئات من سائقى السيارات .. من يلتزم بها جدع ومن يخرج عنها نذل ابن نذل وخائن يعمل مع الأعداء. برغم أن الحد من السرعات المجنونة أمر حميد ومن صميم عمل الدولة ، فإن هؤلاء يعتبرون الحكومة شرًا من السماء جاء ليخرب بيتك وييتم عيالك ، وعلينا أن نتكاتف لمنعه ، وأن السائق الذى سوف يظفرون به ليس سوى صاحب عيال غلبان وأرزقى .. عامة يؤمن المواطن المصرى أن الدولة تأخذ منه أضعاف ما تعطيه ، وهو قد يجد غضاضة فى سلب حق بواب العمارة لكنه لا يفوت فرصة لخداع الدولة التى لا يشعر بأنها تقدم له أية خدمات.

عرفت عريسين شابين عاكفين على تشطيب عش الزوجية قبل زواجهما بشهر ، فكانا بعد رحيل الصنايعية وقبل مغادرة الشقة يتأكدان من أن الأنوار كلها مضاءة ، لدرجة أن العريس عاد ذات مرة من الشارع ؛ لأنه نسى أن يضىء الأنوار . سألته عن سبب هذا الحرص وقد حسبته تقليدًا شعبيًا لمنع العفاريت أو الحسد أو شىء كهذا . قال لى فى ذكاء : « لأن هناك شهر إعفاء من دفع رسوم الكهرباء مع العدادات الجديدة ؛ لهذا نحاول أن نكلف الحكومة بعض المال ! »

مبالغة ؟.. أقسم بالله العظيم أن هذا الموقف حدث حرفيًا ، ولا داعى بالطبع لوصف ملامح وجه العريس عندما عرف فيما بعد أن موضوع الإعفاء هذا إشاعة لا أساس لها من الصحة !

على قدر علمى عسير أن يحدث هذا الموقف فى أى بلد من بلدان العالم ، وهو يعكس قرونًا من انعدام الثقة بين الشعب والحكومة. المشكلة أن هذا الوضع يتفاقم أكثر مع ذلك الإصرار الجهنمى على اعتبارك جمهورًا واغشًا . لا يمكنك أن تعرف أى شىء على الإطلاق .. ليس من حقك أن تفهم .. رأيك لا قيمة له .. لا تبيعوا القطاع العام لكنه يُباع .. لا توقعوا الكويز فتُوقع .. لا تذبحوا القضاة فهى جريمة لا تغتفر لكنهم يُذبحون .. استقبلوا وزير الخارجية الفلسطينى المنتخب لكن لا أحد يستقبله .. نصح المفكرون بأهمية وجود خطوط دبلوماسية قوية مع إيران فلم يبال أحد .. حذر الجميع من خطر تعويم الجنيه فعوموه ..

لقد صفق الناس فى قاعة السينما التى كانت تعرض فيلم (عمارة يعقوبيان) عندما سقط ضابط أمن الدولة مضرجًا بدمه . كم منهم صفق لأنه سفاح سادى عذب الفتى واغتصبه ، وكم منهم صفق لأنه يمثل الحكومة التى تزدرينا ؟.. إجابة هذا السؤال تحدد مستقبل مصر !

الدور دائم الاخضرار

كتاب قديم مصفر الأوراق ممزقها وجدته فى مكتبة صديقى هاوى الشطرنج . كنت فى سن المراهقة ولم أسمع قط عن وجود خطط للعبة الشطرنج ، ولا هذه الرموز العجيبة على غرار (ب 4 م – ح 3 فو – بو X بم) .. (هو مش لعب وخلاص ؟) ، لكنى ذهلت عندما وجدت عددًا من الأدوار البارعة جدًا التى خلدها التاريخ ، وكان لكل دور اسم . من بين هذه الأدوار دور عجيب أطلقوا عليه اسم (الدور دائم الاخضرار) ، وقد لعب فى النمسا فى يوم ما من القرن التاسع عشر. فى هذا الدور يلعب الأبيض بسلبية غريبة ، تاركًا قطعه ليتسلى عليها الأسود. الأسود يأكل الطابيتين .. الوزير .. الفيلين .. إلخ .. موقف الأبيض يسوء بلا انقطاع ، بينما ملك الأسود يقف مزهوًا بين قطعه .. هنا ينقل الأبيض فرسًا .. القطعة الوحيدة الباقية له .. كش مات .. ملك الأسود المحاط بحاشيته أدرك فجأة أنه فى حصار لا فكاك منه ، وأن حفاظه على قطعه جعله عاجزًا عن الحركة . لا تدرك مدى خطورة المأزق إلا عندما تبتعد عن الرقعة ، وعندها تسلم بالعبقرية الأستاذية للاعب الأبيض.

فكرت فى هذا الدور عندما كنت أتابع نشرة الأخبار بما تنقله من أنباء (زى الطين) لمسمعى . ما الذى حدث ؟.. للحظات كثيرة حسبنا أننا نربح وأننا نتقدم ، لكن تأتى اللحظة التى تبعد فيها عن الرقعة فتفهم سوء الموقف .

عندما تبعد عن الرقعة تدرك أن هناك حقائق ولدت على الأرض ولم تفطن لها من قبل .. بوش والجيش الأمريكى يلاقون الأمرين على أرض

العراق ، لكن هل بوش يخسر المعركة فعلاً ؟.. هل نكسبها فعلاً ؟.. الغرض من الحرب كان التخلص من صدام ، وتدمير العراق ، والسيطرة على البترول . لقد تم التخلص من صدام ، ولا يوجد أى شك اليوم فى أن العراق عاد إلى العصر الحجرى ، والعراقيون يتساقطون كالدجاج وتغرق دماؤهم الشوارع كل يوم . عبارة (خمسون جثة مقطوعة الرأس مقيدة اليدين عليها آثار تعذيب) صارت جزءًا أساسيًا من كل نشرة أخبار ، ولم تعد تستدعى الانتباه على الإطلاق. والمشكلة أنك لا تعرف أبدًا كيف الخروج من هذه الورطة .. هذا وضع مرشح للأبدية .. وفى اللحظة المناسبة سيتراجع الجيش الأمريكى ليسيطر على منابع النفط وبالتالى ينتهى مسلسل خسائره . لو كانت أرقام خسائر الجيش الأمريكى التى يعلنها حقيقية فهى مصيبة ، ومعناها أن العراق أكثر الأماكن أمنًا فى العالم بالنسبة للغزاة ، ولو كانت زائفة فقد استطاع بوش وجنرالاته إخفاءها على كل حال. لا أحد فى أمريكا يصدق أن يتم تزوير أعداد القتلى ، وقد أرسلت خطابًا للمخرج المشاغب مايكل مور عبر موقعه على الإنترنت أقترح فيه أن يكون بوش كذابًا بصدد أعداد القتلى الأمريكيين ، فرد علىَّ مور فى حزم بخطاب من كلمة واحدة : مستحيل . هو يعشق التشهير ببوش لكنه لا يصدق هذه الدرجة من القذارة. هكذا مهما كان عدد القتلى فقد تولى بوش فترة رئاسة ثانية .. اجتاز دغل الفضائح ، وتخلص من معارضيه ولم يجر معه أى تحقيق عن أى شىء ، ونفذ ما أراده بالضبط .

وماذا عن فلسطين ؟.. كنا فى الانتفاضة الثانية والحماس يعمى العيون ، والانفجارات تدوى فى تل أبيب . شارون الأحمق يريد بناء سور عنصرى واق ويبدأ التنفيذ فعلاً برغم الإدانة الدولية . يومها قال محمد حسنين هيكل :

« أشعر أن القضية الفلسطينية تتلاشى فلم يعد منها سوى بضعة جيوب » .. هيكل من المفكرين القلائل الذين يجيدون فن الابتعاد عن الرقعة ليروها أفضل .. الآن ابتعد أنت أيضًا عن الرقعة لتدرك أن السور الواقى قد نجح فى منع الهجمات فعلاً ، وأن حماس وفتح يقتتلان فى الشوارع ، وهو ألعن كوابيسك .. الكابوس الذى لم تجسر على التفكير فيه على الإطلاق من قبل. محاولات التسوية تمضى قدمًا نحو تدبير أية صحراء يُحشر فيها الفلسطينيون لتنتهى القضية سريعًا .

عندما يتكلم هيكل عن الخطة (جاما) تجد بين أوراقه مذكرة ـ منذ خمسينيات القرن الماضى ـ كتبها إيزنهاور ، يقترح فيها إزاحة ناصر ومصر المشاغبة عن قيادة العالم العربى ، واتخاذ زعيم روحى هو الملك سعود يتولى قيادة الأمة . تكلم عن الريادة كما تريد لكن من يقود العالم العربى اليوم ؟.. ما الدولة التى يذكر اسمها دومًا فى المقدمة قبل مصر ؟.. متى صارت مصر مرهقة مكبلة غارقة فى مشاكلها الاقتصادية والسياسية فلا وقت عندها ولا بال رائقًا للعب دور قيادى ؟. هذه أشياء تمت بالتدريج ولا تفطن لها إلا عندما تبتعد عن الرقعة أكثر. عندها تدرك أن الأسود يخسر فعلاً ، وأن الأبيض ينفذ كل ما أراد .

منذ نحو عشرة أعوام ابتعد هيكل مرة أخرى عن الرقعة ، وكان الموضوع يتعلق بمؤتمر دولى لمناقشة مشكلة الأقليات فى مصر . يومها كتب هيكل فى إحدى الصحف ما معناه : « تكرار الكلام عن الأقليات يشبه قطرات الماء التى تسقط بلا هوادة على الصخر. بعد قليل يتكون خط باهت .. ثم يزداد عمق الخط فترى أخدودًا صغيرًا يزداد عمقًا .. ويستمر

تساقط القطرات فيتكون شرخ لا شك فيه يفصل بين صخرة وأخرى ».

وما زال المقال مقصوصًا عندى . كان الوقت مبكرًا جدًا ولم نكن نسمع عن حوادث فتنة طائفية إلا فيما ندر لعل أهمها كان حادث الكشح . ثم بدأت القصص تتوالى .. قضية الراهب المشلوح .. قضية الزوجة التى أسلمت .. مشكلة شريط الفيديو فى الإسكندرية .. اعتداء على كنائس .. أحداث بنها .. الدخيلة .. أقباط المهجر ومايكل منير .. احتقان يتزايد بين الطرفين ، وشعور لدى كل طرف أنه يأخذ الجزء الأقل من الكعكة أو لا يأخذ أى شىء على الإطلاق . قارئة قبطية قبلت أن تتكلم معى بصراحة تقول فى جزء صغير جدًا من خطابها : « أنا عمومًا مشكلتى مش مع الحكومة أد ما هى فى الشارع ، لما أركب تاكسى والسواق مايردش عليا السلام ويبقى عنده استعداد يتعارك معايا لو اتنفست ويفضل يزغر لى فى المراية . مشكلتى مع التعليقات فى الشارع (يا مسيحية) و (هما دول اللى مبوظين البلد) ... » فى المقابل كلنا يعرف الساكن المسيحى الذى يتشاجر مع صاحب البيت على الإيجار فيشكوه فى أمن الدولة باعتباره متطرفًا. لا تنكر هذا أو ذاك من فضلك ، فالمثالان موجودان ويصرخان فى وجوهنا كل يوم . كيف وصلنا لهذا وكيف لم نر الخط وهو يتزايد عمقًا ؟.. وكيف نمنعه من أن يتحول إلى شرخ حقيقى عميق ؟.. أرى يد لاعب الشطرنج الخفى تنقل هذه النقلة البارعة ، واللاعب يعرف جيدًا أن السبيل إلى إضعاف مصر يبدأ بتفكيك نسيج الوحدة الوطنية الحقيقية وليست الإعلامية .

لا أؤمن بنظرية المؤامرة وكل الكتب السخيفة عن الأحجار على رقعة الشطرنج التى يحركها الكرادلة والحاخامات المتآمرون فى ضوء المشاعل السباعية ، لكنى أؤمن يقينًا أن هناك مؤسسات صنع قرار وخزانات تفكير وخبراء استراتيجيين يخططون ونحن لا نفهم .. أؤمن بأن هناك لاعب شطرنج عبقريًا يتوقع كل هذه النقلات ، وهو ينتظر اللحظة المناسبة كى يحرك فرسه .. كش مات يا عرب .. انتهى الدور دائم الاخضرار !



عن البنيوية العملياتية الفتحوية

« أعرف من يرفض حقًا .. من لون الغربة والجوع بعينيه وأعرف أمراض التخمة .. »

لماذا أتذكر هذا المقطع من شعر (مظفر النواب) الآن وفي هذه الظروف ؟ .

من الجلي أن (مظفر النواب) كان يعتمد كثيرًا على انطباعه الشخصي ، وهذا ما حدث معي بالضبط عندما كنت أشاهد شاشة الجزيرة منذ أعوام بعد ما فكت إسرائيل حصار عرفات أول مرة واجتاحت جنين يوم الجمعة 5 أبريل 2002 . كنا نحن نحترق غمًا وألمًا بعد ما رأينا الجثث مكومة في الأكياس السوداء ، ورأينا المسعفين يلبسون الكمامات وهم يملئون شاحنة كاملة ، ورأينا الرجل الذي قضى ثلاثة أيام حبيسًا مع جثث أمه وولديه وزوجته التي دب فيها العفن ، عاجزًا عن دفنهم أو الخروج من البيت . فيما بعد رأيت موقعًا متخصصًا في الصور المرعبة اسمه (روتن دوت كوم) فيه فصل كامل عن مذبحة جنين ، ترى فيه صورًا لا يصدقها عقل ولا يتحملها جهاز عصبي بشرى ، مع تعليق ساخر من صاحب الموقع الأمريكي يقول : « ومستر أنان يصر على أنه لم تحدث مذبحة في جنين ! »

رأينا كل هذا ثم رأينا عرفات يتصدر المائدة بينما من حوله رجال فتح يحتفلون (بالنصر المؤزر) الذي هو فك الحصار . كأن لهم من أمرهم شيئًا وكأن إسرائيل غير قادرة على إعادة الحصار في أية خطة تريد . كان هناك

جو عام من المرح أكثر مما يتحمله الموقف .. ضحكات .. قهقهة .. قفشات .. وتوقفت الكاميرا عند رجلين مكتنزين غليظي الشاربين والخدين جالسين إلى المنضدة يتبادلان المزاح مع ذلك التعبير الفاحش الذي يوحي بأنهما يقولان نكتًا (أبيحة) ، ثم لاحظ أحدهما الكاميرا فنقلص وجهه وهمس في أذن صاحبه كي يأخذ باله . كان انطباعي عن المشهد أن هذه وجوه تعاني (أمراض التخمة) . هناك كعكة دسمة جدًا في الموضوع ، وهم سعداء بأنها عادت لهم بصرف النظر عن الجثث المكدسة في أكياس . انطباع آخر شعرت به هو أن هذه ذئاب يسيطر عليها مدرب محنك يلعب بالبيضة والحجر هو (عرفات) ، لكنه لو توارى لانقضوا على كل شيء . كان وضع عرفات مع الإضاءة يوحيان نوعًا بالمسيح في صورة العشاء الأخير الشهيرة لدافنشي ، وقلت لنفسي : إن أحد هؤلاء سيكون يهوذا .. لا أعتقد أنني أخطأت كثيرًا ؛ لأن أحدهم هو من دس له السم قطعًا ، غير أن عرفات لم يكن المسيح بالتأكيد .

في هذا الوقت كانت هناك اتهامات عدة للعقيد جبريل الرجوب قائد الأمن الوقائي السابق في الضفة الغربية بتسليم 8 مقاومين فلسطينيين من فصائل مختلفة لقوات الاحتلال ، منهم مقاتل من حركة فتح نفسها . وهي تهمة أنكرها بشدة وزعم أنهم تم اعتقالهم أثناء اجتياح بتونيا . قال الشهيد أحمد يس أنه تلقى مكالمة استغاثة منهم قبل اعتقالهم تؤكد أن الرجوب هو الفاعل .

هناك مقال شهير يتداوله الفلسطينيون كتبه طبيب فلسطيني اسمه إبراهيم حمامي يكشف معلومات عن محمد دحلان الذي ولد في أسرة فقيرة ، وتنقل بين ليبيا وتونس ، ويزعم المقال أنه تم تجنيده مع الرجوب

من قبل المخابرات المركزية أثناء وجوده في تونس . أما خطة روما فهي اتفاق يقضي بأن يحتوي دحلان كمسئول للأمن الوقائي حركة حماس . هذه هي الفترة التي أطلق عليه فيها اسم (الكولونيل الوسيم) في الصحافة الغربية . امتلك فندقًا خمسة نجوم في غزة ، وبدأت خلافاته مع عرفات . والمقال يوجه له عدة أسئلة مهمة : 1« ـ من أين أتى بالملايين ليصرفها على أتباعه في فتح ؟ 2 ـ من أين له الأموال ليمتلك فندق الواحة ، وليشتري مؤخرًا أكبر وأشهر منازل غزة 3 ـ هل يستطيع أن يكشف عن مصدر ثروته المقدرة بـ 53 مليون دولار وهو القادم من عائلة معدمة؟ 4 ـ من دفع فاتورة إقامته بفندق كارلتون تاور بكامبردج ليتعلم اللغة الإنجليزية على أيدي ثلاثة من المختصين في إحدى أكبر وأغلى الجامعات في العالم وتحت الحراسة الأمنية ؟ »

لهذا عندما اقترحت أم العيال أن تتبرع للشعب الفلسطيني في المصرف ، راقت لي الفكرة . ثم راجعتها مرارًا .. من قال لي إن التبرع سيصل فعلاً للفلسطينيين ؟.. يصل لأهل إيمان حجو وأهل محمد الدرة وذلك الذي حُبس ثلاثة أيام مع جثث أسرته ؟.. من يضمن لي ألا آخذ المال من قوت عيالي كي أزيد من ثروة الأخ دحلان وسواه ، وهو قطرة في بحر على كل حال ؟

عندما يظهر جبريل الرجوب على الشاشة بصلعته وصوته الفظ ، ومصطلحاته : « التوبة العملياتية ، وترتيب البيت الفتحوي » ، لابد أن تشعر بالاختناق .. كلهم يتكلمون بهذه الطريقة وأسلوب النسب إلى الجمع ليوحوا بأنهم من كبار المناضلين ، تشعر بذات الجو القديم الذي صاحب اغتيال يوسف السباعي في 18 فبراير من عام 1979 . ربما ترفض كامب ديفيد ومبادرة السادات لكنك كذلك ترفض من اصطلح إعلامنا

على تسميتهم (مجاهدي الميكروفونات) . ما علاقة كاتب رومانسي مثل يوسف السباعي بالقضية ؟ ، وما الإضافة التي تقدمها باغتياله (منشان القضية) ؟ . نفس جو اغتيال عصام السرطاوي في لشبونة يوم 10 إبريل عام 1983 . أنت أدنته واعتبرته عميلاً ، لكن لماذا تقتله وهو خارج من الفندق بينما على بعد متر واحد منه يمشي السفاح بيريز فتتركه .. لماذا لا تقتل الاثنين يا أخي ؟.. لماذا لا تبدأ بعدوك ؟

لقد شاخ رجال فتح ما بعد أوسلو حقًا .. إنه (تعب المعادن) .. لم تعد هناك علاقة بينهم وبين فتح العقائدية الثورية التي عرفناها أيام خطف الطائرات إياها .

قارن هذه العيون المتفحصة التي أغلقتها السلطة والنفوذ بالعينين الحاسمتين الذكيتين لخالد مشعل أو الرنتيسي أو المتحدث الرسمي لحماس . هذه عيون تشي بـ (لون الغربة والجوع) .. عيون (ترفض .. حقًا) .

قد تختلف مع حماس كثيرًا جدًا .. هناك ألف تحفُّظ على فكرة خلط الدين بالسياسة والإسلام السياسي ، لكن لا تنكر لحظة أن هؤلاء قوم صادقون يؤمنون بما يفعلون وقد ضحوا بحياتهم فعلاً ، وكان سلاحهم حتى الأشهر الأخيرة موجهًا نحو هدف واحد فقط هو الهدف الصحيح . أحمد يس القائد العجوز رأينا أجزاء مخه مبعثرة على الرصيف ساعة صلاة الفجر ، والرنتيسي تمزق جسده ، وخالد مشعل مات فعلاً وعاد للحياة لأن الملك حسين لم يستطع قبول اغتياله على أرض الأردن . لا تنكر كذلك أن هناك شرفاء كثيرين في فتح ما بعد أوسلو ، منهم على سبيل المثال الرائد سعيد الكرمي من قادة شهداء الأقصى الذي نسفه الإسرائيليون في 14 يناير عام 2002 ..

حماس قد تم وضعها في مصيدة ، وكان عليها أن تواجه تحدي جيفارا الشهير الثائر الذي يجيد التفجير وذلك الحصون عندما يطلب منه أن يبني ويشيد وأن يفهم تعقيدات السياسة جندي المدفعية الذي يطلب منه أن يتحول إلى عامل بناء ربما كانت حماس على استعداد للتعلم وبالتأكيد كانت قادرة عليه ، لكن أحدا لم يعطها فرصة تحالف العالم كله ضد تجربتها كي تفشل وفي النهاية كانت الفصائل المستعدة في حركة فتح على استعداد للقتال حتى الموت من أجل مكاسبها . واشتعل الوضع في غزة ربما أكون عاطفيا أكثر من اللازم ، لكني بالفعل أرى الصراع صراعا بين من (يرفض حقًّ ومن يعاني (أمراض التخمة)

عن مكدونالد والبطة دونالد

من الخصائص المهمة في الإمبراطورية الأمريكية كونها تقدم كما يقول الأستاذ هيكل نمط معيشة وثقافة بالغ الجاذبية إنها الإمبراطورية الأولى في التاريخ التي تستعمل هذا النوع من السلاح وفي الماضي كان من السهل أن تمقت الإمبراطورية الرومانية بكل رموزها؛ فلم تكن كتابات ماركوس أوريليوس أو خطب شيشرون الأكبر تتسرب إلى دارك ، أما اليوم فأنت تشتم الولايات المتحدة ثم تقضي الليل كله مع فيلم أمريكي شائق يذكر أبناء جيلي أيام الحرب الباردة حيث كان الماركسيون يعدونك بجنة البروليتاريا التي ستتحقق بعد الكثير من الدم والعرق والدموع ، بينما كان الأمريكيون يقدمون تلك بالفعل جنتهم مصنعة ذات اللون والطعم والرائحة ، حيث تسبح حسناوات الشقراوات في بحر ليبسي كولا بينما يرقص ميكي ماوس ويحلق سوبرمان في الجو إنه (العالم الحر) تلك اللفظة الأمريكية الاستعمارية التي سادت لتصف كل ما ينضوي تحت جناح الولايات المتحدة خارج الستار الحديدي ، أما ما وراء الستار الحديدي فحفنة من الجنرالات الساديين المصابين بالشذوذ الجنسي والذين يتكلمون الإنجليزية (مكسرة) ، ومواطنون لا يرغبون في شيء إلا الفرار إلى العالم الحر

منذ أسابيع قدمت قناة الجزيرة فيلمًا وثائقيًا بريطانيًا عن احتلال العراق . وكان المراسل البريطاني يختبئ مع المارينز خلف دبابة بينما طلقات المقاومة تنهمر عليهم هنا قال أحد رجال المارينز دعابة لتزيل التوتر . لكنها تستدعي وقفة عميقة : « تصور أنت لم تضع قط بمدينة فيها (ماكدونالد) ؟! » وقد اندهش المراسل البريطاني لهذه النكتة التي

ثبت أنها حقيقية إن ماكدونالد رمز استعماري قوي يعني أن هذه الدولة غير مارقة ، وأنه ذات ثقل الفصيلة البريطانية في الماضي بل إن ظهوره في بلد ما يعطيها نوعًا من صكوك الأمان ضد الغزو ولهذا لا ندهش كثيرا عندما نعرف أن الصين اعتبرت لحظة دخول عميلة للمخابرات المركزية ومنعت دخولها البلاد لفترة طويلة إبان الثورة الثقافية

إن الثقافة الأمريكية على مستوى القراءة أو المشاهدة أو الطعام هي أمضى سلاح في ترسانة الحرب الأمريكية ، والولايات المتحدة قادرة بالفعل على فرض أولوياتها الثقافية إنها الدولة الوحيدة التي تشتمها وأنت تستمتع بأفلامها وتتلذذ بمشروبها الشهير

أنت تشعر بأن من يرتادون محلات الوجبات الجاهزة الامريكية لا يفعلون ذلك لأنهم يحبونها بل لأنهم يحظون بها من (ممارسة للأمركة) على أرض وطنهم ، وهم يدفعون ثمن هذه الممارسة غاليًا إن هذه المحلات لا تبيع طعامًا لكنها تبيع جوًا وطقوسًا وهي تعرف هذا يلبس الشاب (البلو جينز) ، مع كاسكيت البيسبول المقلوب على رأسه ، ويحمل شطيرة الهمبورجر وفي اليد الأخرى كوب البيبسي يبرز منه الشفاط فيشعر بأنه واحد من هؤلاء السادة في منهاتن ، ويا حبذا لو استعمل لفظة Shit مع كل عبارة باختصار هم يرتادون هذه المحلات لكي يكونوا من القوم الذين يرتادون هذه المحلات لماذا صار الشباب يصافحون بعضهم على طريقة High five أي تلك المصافحات العالية التي يستعملها لاعبو السلة الأمريكيون ؟ لماذا يلبس الشباب البنطلونات الواسعة على غرار الزنوج الأمريكيين مطربي (الراب) ؟

عندما أشاهد أفلام الأمريكيين وحلقاتهم الكوميدية من طراز كوميديا الموقف Sitcom أجد غريب جدًا أن يفهم المواطن العربي هذه الموضوعات أو يتذوقها لكن هذا يحدث مشكلة الفتى المراهق الذي لا يستطيع مواعدة Dating أية فتاة في الصف مشكلة الفتاة في الذهاب إلى حفل الرقص السنوي مشكلة الطفل الذي لا يحقق أهدافًا في لعبة البيزبول ثم الدعابات السمجة - طرف شيء حدث لي في طريقي لهذا الحفل تصوروا أني لم أجد زيتونًا لمارتيني ! ، فينفجر الجمهور ضحكًا ومعه نضحك (عباس) أو (حلمي) من فرط طرافة الموقف لا زيتون لمارتيني ؟ يا للسخرية ! ثم الكلام عن بطل الكلية الذي يرث مائة رطل وطوله ستة أقدام فتحاول أن تجد فهم ما يمثله هذا الرطل والكيلوجرام ثم يظهر مقدم حفل الأوسكار الذي مهمته هي التظرف سخف مرتين على ليقول - لقد شعرت كأني في رود هو رد شو ! هنا ينفجر الجمهور ضحكًا ويوشك على الاختناق أنت مطالب بأن تعرف ما تعنيه هذه الدعابة أو تختنق ضحكًا مع الجمهور

حتى على مستوى محلات الأطفال لماذا لا يتروج دونالد صديقته ديزي ؟ لماذا يحاولون الفوز بحبه ومن جديد ندخل في نطاق [illegible] لكن ولا كلمة عن الزواج أين الآباء والأمهات في هذه القصص ؟

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الامور يؤكدون انها مجرد قشرة سطحية تخفي عطن العصرية. يسهل قبول العصر الثاني بشرط لا يتحول إلى صهيونية او تعصب أعمى. أما العصر الثالث فابتلاعه عسير جدا. لكنا نعلم كيف نبتلعه بالتدريج، وعلى طريقة راسبوتين في ابتلاع جرعات متزايدة من السم يوميًا.

ان الثقافة الأمريكية قوية الى درجة أنها تخدر المواطن الامريكي نفسه. هذا المواطن الذي يمسك علبة البيرة الباردة ويلبس الكاسكيت بالمقلوب ويصبح هوايته المفضلة مشاهدة مباراة كرة القدم. كرة القدم التي يلعبها على عكس العالم كله. وهو يؤمن فعلا بأن أمريكا تقود العالم الحر وأن ديمقراطيتها هي النموذج الأعلى للشعوب الأخرى. هذا المواطن نفسه الذي آمن بخطر الشيوعية. ثم بعد سنوات راح يتساءل كيف قدر مكارثي أن يفعل هذا كله؟ هل كنا مجانين؟ ثم نسي الأمر برمته وحارب في فيتنام وبعدها بسنوات راح يتساءل كيف وصلنا لهذا؟ كيف كنا بهذا الحمق؟ ثم سرعان ما نسي وأرسل ابنه الى العراق. ولسوف يتذكر الأمر بعد عام أو عامين ليتساءل: كيف تركنا بوش يقودنا إلى هذا الجحيم؟ .

بعد خسارة كيري أمام بوش قرأت رأيا لأحد المواطنين الامريكيين يقول: لقد كان كيري رائعا في المناظرات. لكني مؤمن أن المناظرات لا تدل على شيء لهذا كان لابد أن يخسر!.

تأمل معي منطق الأطفال هذا: من يفوز في المناظرة لابد أن يخسر الانتخابات لأن المناظرات لا تدل على شيء! إذن هل كان على كيري أن يخسر المناظرات؟.. وما جدواها إذن ..؟..

كائن مغرور ساذج مخدوع. هذا هو المواطن الأمريكي. المواطن الامريكي المتوسط الذي ليس خبيرا في مؤسسة (راند) وليس طبيبا في (مايو كلينيك). لكنه صار النمط الثقافي الاكثر جاذبية على ظهر هذا الكوكب. وصار على الشباب ان يفرح لما يفرحه، و يقلق من أجل ما يقلقه حتى لو كان عدم وجود زيتون لشراب المارتيني. انها العولمة التي وصفها د. (جلال امين) بأنها تسري في اتجاه واحد منهم إلينا بينما المفترض أن تسري في الاتجاهين. لكن الامريكي يؤمن انه ليس لدى الشعوب الاخرى ما تقدمه له الا فطيرة إيطالية جديدة او وجبة مكسيكية او اسلوبًا صينيًا جديدًا في التأمل .

لقد تغلغلت الثقافة الأمريكية في خلايانا وخلايا شبابنا بلا شك. والمشكلة أن المقابل الفكري المتمثل في الاتحاد السوفيتي لم يعد موجودا. كان هناك سماء و أرض، وكان هناك أبيض وأسود. وكان هناك ماء ونار. اليوم لم يعد لدينا الا الأرض والأسود والنار. فلابد أن الناس في روسيا الآن يحاولون تحويل الرطل والقدم إلى الكيلوجرام والمتر، أو يبحثون عن زيتون لشراب المارتيني!

الكابوس الأمريكي

كنت رأيت تدعي الأحوال في مصر ، وذلك الشرخ الذي يتسع ويتسع في الجدار منذرا بالويل ، فكرت في أبنيتي الخاصة عندما لم أفكر في الهجرة للولايات المتحدة من أجل أولادي . بعد عيني (كوب كيسي) حد (أليكس هيلي) بكثير عندما تم اختطافه من سواحل غانا وحمل في قاع سفينة إلى العالم الجديد . لكنا لو فكرت تفكيرا حسبيا لوجدت أنه كان يكافح كي يتعلم حفيده يوما يستعمل ألفاظ بذيئة وشرب الكولا ورقص الراب في بروكلين . يكفي أن أحد أحفاده صار هو الكاتب العظيم (أليكس هيلي) ..

لي صديق تعلم في هذه السن المتأخرة سببا . من السن التي لا تسمح لك بأن تغسل الصحون و تعمل في محطة وقود ، بينما تقضي الليل مكبا على دراسة الطب . لكني في النهاية أحد من يشعر لا حب تماما حياة الأمريكي ولا طبيعة . حياة رسمت سلفا لكن مع حنينا وسوف يتحرك فيها كذلك قطار يتحرك على خط حديدي . صحيح أنك في مصر قطار آخر يتحرك بجر و تالف على خط حديدي متآكل . لكن الحياة هنا في مصر ذات طعم ولون ورائحة ..الكثير منها في الواقع .

لو أني ولدت في نيويورك وكنت ذكرا بروتستنتيا أبيض WASP فقد تبدو حياتي مرسومة عبر محطات معروفة صرت أحفظها من قراءة المجلات الأمريكية ومشاهدة أفلامهم ..

عالم المراهقة : هذا هو عالم المدرسة الثانوية وقلة الأدب والتطاول على المعلمين لأن التعلم كم Boring . مشكلتي هي البلطجي (هاتش)

الذي يتربص بي لأنني نحيل وبنظارة وهناك نمش على وجهي ، وهو يتعمد هاتي وسكب اللبن على رأسي ساعة الطعام . ولا أحد يتعاطف معي في مجتمع لا يرحم المهزومين سواء كانوا هنودا حمرا أو عربا أو زملاءك في الصف . ثم يأتي موعد الحفل الراقص السنوي وانتخاب الـ Prom queen أو ملكة الحفل . كيف أقنع فتاة بأن تصحبني للحفل ؟ كيف يرضى أبي بالتخلي عن السيارة ؟ بعد حفل كهذا سوف تفقد حسناء الصف (كارول آن) عذريتها ، وهي ليست مشكلة ، لأن أباها كان سيصحبها للطبيب النفسي لو تأخر الأمر أكثر من هذا ، ولربما ظهرت في إحدى حلقات (أوبرا) لمناقشة مشكلتها .

البيسبول لعبة مملة يستحيل فهمها . ملعب يشبه الماسة وشخص يضرب الكرة بمضرب يستعملونه لقتل الزوجات كذلك . وهناك ثور يلبس درعا على صدره يتلقفها بقفاز . ثم يصرخ الجميع ... ركضوا ... وعرفت فقط لا أدري على أي شيء . لكن البيسبول هو الطريقة الوحيدة لقبولك في مجتمع كهذا ، وكي تحبك الكتكوت Chicks هناك كرة القدم الأمريكية المخيفة التي تلبس فيها الدروع وتضرب عددا من الثيران . ولا تلمس قدمك الكرة مرة واحدة . بينما المدرب (رالف) يصرخ في وحشية : سوف نسحقهم يا شباب !

كلها ألعاب معقدة تختلف عما يعرفه العالم كله ، وكلها تحتاج إلى إمكانيات وثراء .

الكلية : تقريبا نفس روتين المدرسة الثانوية . نفس الحفلات ... التي يشرب فيها الجميع البيرة Booze وتتعرى الفتيات تماما . هذه هي ...

التي سأجرب فيها المخدرات لأول مرة .. سأكون محظوظ لو شاركت في احتفالات (ماردي جرا) التي تذكرك بأعياد (باخوس) الرومانية الماجنة

بعد التخرج .. أن أعمل في شركة تنفيذية .. تمارس المنافسة قاطعة الرقاب مع شركات أخرى .. القميص قصير الكمين وربطة العنق والعروض على جهاز الكمبيوتر .. مغازلة زميلة تعمل عند براد المياه .. العمل من التاسعة للخامسة والخوف المزمن من الطرد والجوع .. لو طردت سأقوم بتعبئة لوازمي في علبة كبيرة من الورق المقوى وأخرج من الباب يرافقني رجل الأمن ... ولسوف أصير سكيرًا . . .

الأسرة : حصن الدفء والسكينة التي ربطوا بها علب طعام محفوظة فارغة تحدث قعقعة .. مشكلة زوجتي هي تقليل السعرات في الطعام بسبب الشحوم حول الخصر .. يجب أن أقلل من ولعي بشطائر الهامبرجر والجبن .. ابنتي (سو الين) صارت الآن مراهقة وقحة تصر على أن ترافق الفتية للمرقص وتقول لي : « دد .. أنت ابن عاهرة وسافل وحقير .. أنا أكرهك .. » تقولها وهي تهز شعرها الطويل يغطي نصف وجهها ثم تندفع خارجة من الغرفة كنمر هائج ...

فأبتلع الإهانة .. لو صفعتها لشكتني للشرطة وقبض علي .. لا بد من الصبر حتى حل مشكلة تعاطيها المخدرات ومشكلة الحمل في سن الخامسة عشرة .. أذهب أنا وزوجتي لحفلات الكوكتيل حيث نقف أمام الناس لأحكي لهم عن (أظرف شيء حدث لي في طريقي لهذا الحفل) و (أفضل مطعم يمكن أن تتناول فيه شطائر التونة والبطاطا المقلية) .. ثم نعود للبيت لتطالبني زوجتي بالطلاق بلا سبب وتبدأ في حساب ما يناله كل منا من ممتلكاتي

ربما ستحب زوجتي لو لم تطلقني طفلاً مشوهًا له أربعة أنوف وثلاث آذان وذيل .. هنا أقرأ في الصحف عن معهد في أوهايو متخصص في الأطفال الذين لهم أربعة أنوف وثلاث آذان وذيل .. أذهب هناك لأقابل د. (سميث بـركر) خبير الأطفال ذوي الأربعة أنوف والثلاث آذان والذيل الذي يقول لي : « أهم شيء أن تجعل طفلك لا يشعر بالاختلاف عن الآخرين .. »

هكذا يصير طفلي رسامًا وسنادًا جمعيًا وبطلًا في كرة القدم ، ويظهر في حلقة من حلقات (أوبرا) حيث يبكي الجميع مع كثير من (أوو و والأوه وماي جاش) ..

السياسة : سواء كنت ديمقراطيًا أو جمهوريًا فأنا مؤمن أن الفلسطينيين رهيبون يحاولون أن يأخذوا من اليهود الطيبين أرضهم .. أؤمن بالقيم الأمريكية وطريقة حياتنا .. أؤمن بالديموقراسي وماي فيلو أمريكانز .. أدعو لهم بالنصر في العراق الذي لا أعرف أين هو ولا مشكلته بالضبط .. ولا يعنيني شيء من هذا .. أحترم بشدة أو أتظاهر باحترام اليهود والزنوج والشواذ جنسيًا حتى لو كنت أنتمي للحزب الجمهوري .. كنت أمقت الشيوعية واليوم أمقت الإسلام .. هؤلاء القوم الذين يعبدون القمر ويذبحون الأطفال قرابين من أجل إلههم الذي يسمونه (الله) .. ويرقصون عراة في موسم الحصاد ..

الحادث : ثم أسقط من على الجبل وأنا أمارس التزلج فيتهشم ظهري وأصاب بالشلل ، لكني أصر على المقاومة . وأروح أضرب كرة السربول في الحائط طيلة اليوم على سبيل التدريب .. هكذا أستعيد صحتي ،

وأكتب قصتي في كتاب اسمه (كيف قهرت الشلل) وهو الكتاب الذي يشتريه التلفزيون فورًا ، من ثم أتمكن من شراء ذلك البيت الجميل الذي كنت أحلم بشرائه في (بالتيمور) ..

النهاية : هذه هي سن سرطان القولون .. مشكلة التقدم في الرعاية الصحية هي أنك لا تموت بالتيفود ولا نوبة قلبية في سن الخمسين كما كان يحدث ، بل تنتظر حتى سن الثمانين حين تقرر خلاياك أن تصاب بالجنون .. سأموت في المستشفى ويحرقون جثتي .. ثم يقف أولادي متظاهرين بالتأثر فوق قبري ويطوق أحدهم كتف أمه مواسيًا ويقول آخر : « وداعًا داد .. كنت عظيمًا .. »

أموت مطمئنًا لأن أولادي يأتون من بعدي وسيمشون في نفس الدرب ، ويحافظون على القيم الأمريكية .. قيم (علم النجوم اللامعة) .

هذه هي حياتي لو نشأت في أمريكا أو هاجرت إليها .. وإني لأسألك بكل صدق : متى عشت ؟ متى استمتعت ؟ هل هذه هي الحياة التي من أجلها أغسل الأطباق ، وأدرس الطب ليلًا ، وأبحث عن فتاة أمريكية (مضروبة) تقبل الزواج مني وتمنحني الجنسية ؟ بصراحة عندما أقارن بين حياة (مستر فلو مريكانز) هذه وحياتي العربية بما فيها من فوضى وعشوائية وفقر ومرض و(شعبان عبد الرحيم) فإن شعبان يكسب بالتأكيد ..!

إذن هو الدلاي لاما

مصر بلد جميل ذو تاريخ عريق ، وقد حباها الله بشمس دافئة طيلة العام ، مع هواء عليل ومناظر خلابة . لهذا يقصدها السياح من أرجاء الأرض ليتمتعوا برؤية آثارها العظيمة التي تنطق بعظمة التاريخ ، ويتمتعوا بالسباحة في مياهها الجميلة أو يمارسوا رياضة الغطس في البحر الأحمر حيث الشعاب المرجانية رائعة الجمال . وقد قال مصطفى كامل : لو لم أكن مصريًا لوددت أن أكون مصريًا . لهذا يبكي السياح لأنهم ليسوا مصريين ، ويحسدون على مصر كثيرًا . وقد عاشت في مصر شعوب كثيرة شربت من مائها وامتزجت بحضارتها ، لهذا نقول بحق إن مصر أم الدنيا . و

ربما تتساءل : هل جن الرجل ؟ ما هذا الكلام الذي يكتبه ؟ أقول إنني لم أجن لكني اكتسبت حكمة فجأة . وقد سمعت الكثير من زملائي الذين لو افترضنا جدلًا أن إبراهيم عيسى ذئب .. لقد قررت أن أكتب كلامًا يحقق لي المعادلة الصعبة : ألا أسجن أو أثير غضب أحد ممن يستعد لنيله من غضبهم ، وفي الوقت نفسه يحفظ لي مكاني في جريدة الدستور .. الحقيقة أن هناك حلولًا أسهل مثل أن أتفرغ للكتابة في مجلة (ميكي) .. لكنهم لا ينشرون صورة الكاتب هناك ، وهذا سيقلل من مكانتي في البيت كما تعلم .

حدث كثير جدًا عن قضية لا تثير حفيظة أي .. الأمر .. مستحيل .. كل شيء وقت وهدف ولابد أن يعرف بداء الغضب فالتورط في كلام [illegible] في [illegible] يبدو أن [illegible] يتحدثون عن وصف الأطلال والناقة كانوا يفعلون هذا كي لا [illegible]

عن شيء آخر .. لو تكلمت عن اسرائيل كالعادة فإني أقع في عش الدبابير . خاصة أني سأكتب وأنا أعاني تحت تأثير مقال الأستاذ هويدي الذي كشف عن قيامنا بتصدير الغاز الطبيعي المسال لاسرائيل بملاليم ، مع الالتزام بالتصدير حتى بعد نفاده عندنا .. يعني لن يكون عندنا غاز لكننا سنشتري غازا بسعر باهظ نصدره بهذه الملاليم ، والأدهى أن دولة مثل اسبانيا ستأخذ الغاز من بلدنا بالسعر الرخيص لتبيعه بسعر السوق .. ليه كده ؟ هل إسرائيل تبتز شيئا منا .. هل معها (لبحانيف) على رأي سيدنا روسي ؟ لماذا تبيعون حق أبنائي في الحياة ؟ أنا مسئول عن حقي لكن ماذا عنه هو ؟ لماذا تصرون على ذبح الدجاجة وسرقة كل مسمار في السفينة ؟ لماذا لا تبقونها طافية ؟ محمد علي أراد حلب مصر لكنه قرر أن يسمنها ويحسن تغذيتها جيدًا أولا .. فلماذا لا تتعلمون منه ؟

هل تكلم عن الرغيف وزحمته والرجل النحيل البائس ممزق الثياب لدى رؤيته يركض في الشارع وهو يحتضن عشرة أرغفة ظفر بها من الطابور ، حتى يوشك على البكاء ، فقط ليعض عليه صبي على دراجة ليخطف منه رغيفين .. هل هي المجاعة إذن ؟ هل نحن مقبلون على ذلك العصر الرهيب الذي قرأنا عنه ، (كل حمار الوالي ثم أكل حتة النفس الذي أكل حمار الوالي) ؟

هل تتكلم عن البطالة ؟ عن المستقبل ؟ عن أزمة التعليم ؟ عن المرور ؟.. عن ؟.. عن ..؟..

هل تتكلم عن انتخابات المحليات ؟ أنت تعرف جيدًا أنك لم تعد تتابع حرفا من هذه الأمور منذ 73 سنة .. ربما تتكلم عن كرة القدم وتشتم في الحضري قليلا ، لكن هذا مجال خطر .. قد تدوس على لغم ... إنه لغم

هل أتكلم عن قصة حب شبابي الفاشلة ؟ محاسن التي تخلت عني بعد أن تقدم لها مهراجا عنده طائرة بوينج وعنده حرير وقدم لها ماسة الكوهينور على سبيل الشبكة ؟ بدا لي الأمر رقيعا ، خاصة وأنا لا أكف عن ابتلاع أقراص علاج ضغط الدم ولا توجد ثلاث شعرات سوداء محشورة في رأسي .. حب إيه وورق إيه ؟ دعك من أن المقال قد يقع في يد أم العيال . وهذا يجعلني في موقف لا يقل خطورة عن غضب الكبار علي .. على الأقل غضب الكبار معناه أن أموت متحصلا . أما غضب أم العيال فمعناه أن أموت ذليلاً منكرًا للنعمة .

وجدتها .. الحل العبقري الوحيد هو أن أكتب عن مشكلة الدلاي لاما .. سوف أكتب عن الصين المغرورة التي تمنع هذا الزعيم الروحي البوذي من العودة إلى التبت حيث يسيطر البوذيون .. امريكا قلقة وتطالب بتفسيرات من الصين .. حلو جدا .. هكذا أكون عرفت اتجاه الريح وأبدأ أكتب آمنا .. سوف أشتم في الصين بصبح .. سوف أتضامن مع سكان التبت وأسود صفحات من أجلهم .. لم لا ؟ لماذا نتوقع أن يتعاطف العالم معنا ولا نتعاطف مع العالم ؟ أليس هذا أقرب للتحضر ؟

قلت لصديقي أني سأحلق شعري زيرو وأحمل كيسا خشبيا للشحاذة وأخرج حافي القدمين إلى الشارع كما رأيت الناشطين الأوروبيين يفعلون في التليفزيون .. قال لي إن هذا ليس عملا عاقلا لأن رجال الأمن سيعتبرونني مجنونا أو شيئا آخر لا يستطيع كتابته هنا ، وسوف يعتقلونني فعلا . يعني الدلاي لاما يا روح أمك ؟.. [illegible] عن هذه الفكرة وقررت أن أكتب مطالبا الصين ...

للبيت وأن تسمح بالحرية الدبسة لسكان هذا البلد حتى أنني بدأت تأليف أغنية جديدة لشعبان عبد الرحيم تناسب طريقته في مواكبة الأحداث كأنه نشرة التاسعة :

فيه ناس كتيرة ياما ..خلاص حتسقط

ما تسيبوا الدلاى لاما..يرجع للبيت ..

حقًا هي ليست أغنية جيدة لكنها تؤدي الغرض، وأرجو ألا يتحدهم شعبان كما تحدى زميلتي سابقة (قتلوا سعير بوسو كل الخونة يموتوا ..) .

نعم .. صدقني .. بعد الحكم الصادر ضد ابراهيم عيسى وركيبة القضايا التي سطرها . لم أعد طفلا .. كنت بحاجة لهذا الدرس كي أعرف طريقي وكي أعرف عن أي شيء أكتب بالضبط .. كنت أعتقد أنني ذكي بما يكفي وأنني أكثر ذكاء .. اقتدي بالكاتب الشهير (   ) والكاتب الشهير (   ) الذين يكتبون بطريقة (الحكومة سيئة وتضيع كل جهود مبارك للاصلاح) . وهي طريقة خبيثة ناجحة تضمن لك رضا الجميع ، وتحفظ لك لدى رجل الشارع بصورة المعارض الذي لا يخشى في الحق لومة لائم .. هذه مدرسة تختلف تمامًا عن مدرسة عيسى والذين أعرفهم حيث لا سقف من أي نوع ، لكن من الواضح أن سقف الحرية يهبط يومًا بعد يوم ، وأن هذه المدرسة الخبيثة نفسها خطرة ..

إذن هو الدلاى لاما حتى إشعار آخر ..

عبقرية النفاق

عندما قلت في الأسبوع الماضي أنني قررت التفرغ للكتابة عن الدلاى لاما وحكومة نيبال ، منعًا لانزلاق قدمي في قول كلام يغضب الكبار ، كتب لي أحد القراء : هناك حل ثالث وهو أن تنافق .. الأمر سهل .

فعلًا لم يخطر هذا لي من قبل لكن الفكرة بدت جديرة بالتأمل .. النفاق ليس عملًا سهلًا أو هينًا بل هو يحتاج إلى أكبر قدر ممكن من التحكم في العواطف وفي تعبيرات الوجه وانتقاء الكلمات .. عندما يجلس الرجل مع مراد تملقه ويتمسح به ، فإن خروج أبسط كلمة محرمة تغدو كالولادة المتعسرة .. الكلمات لها ثقل الحجارة ووعورتها .. فقط يختار هذا الاختيار الرجل الموهوب .. الذين يستحقون لقب جنتلمان أو Womanizer كما يقول الغربيون .. هذا رجل استطاع أن يتحكم في لسانه وملامح وجهه كي يخرج الكلمة اللقيمة .. بعض هؤلاء عباقرة ينجح في برمجة عواطفه كيلا تخيب بمعتقد صادق أنه يحب هذه المرأة .. باختصار : النفاق ليس لعبة للهواة . ومن يحسن النفاق يستحق المكافأة التي سينالها من حظوة ونقود وثراء .

رأيت منذ أيام على إحدى الفضائيات مناظرة ثلاثية على الهواء بين أحد قيادات الإخوان وأحد رؤساء التحرير الحكوميين وسيدة حقوقية أوروبية . وكان الكلام عن المجزرة التي حصدت عشرة آلاف مرشح إخواني سيحجبون بدعوى فلا يبقى منهم إلا بضعة عشرات ، سوف يدعون بدورهم فلا يبقى منهم أحد .. كانت تفنيد [illegible] تزوير الانتخابات قبل أن تبدأ) قوية وكلام السيدة منطقيًا ومرتبًا .. ثم صعت [illegible] على قلبي

تعاطف مع رئيس التحرير الذي يواجه سيل الاتهامات هذا، خاصة وقد اتهم المذيع نفسه لمن يتهمون الحكومة المصرية بالقمع والتزوير .. هذا سيقول ؟ هذا رجل يعتمد مستقبله ونقوده وثراء أولاده وفيلا الساحل الشمالي ورفاق البيت في أكبر فنادق القاهرة على الكلمات التي سيقولها حالاً ..

لكن الرجل بدأ يتكلم .. قال إن هذا دليل على أن الأحزاب المصرية – باستثناء الحزب الوطني – لم تستطع تربية كوادر صالحة لخوض معركة، ولم تستطع خوض عملية الانسحاب الطبيعي التدريجي فلوس للفاشلين .. الخ .. لم يكن مقنعاً .. كانت عيناه تنطقان بعدم التصديق، ومن الواضح أنه غير سعيد بما يقول، والأسوأ أنه الرجل الذي يأتون به دوماً ليدافع عن الحكومة في أي شيء: نعمة وضع عصا في مؤخرة المعتقلين .. تعرية الصحفيات .. تزوير الانتخابات .. تصدير الغاز لإسرائيل .. الخ .. هو دائماً هناك ليرد ويبدي إعجابه بحكمة الحكومة وغباء المعترضين وقلة أدبهم

لا شك في أنه تنفس الصعداء عندما انتهى البرنامج وتخلص من هؤلاء المزعجين الثلاثة، لكني أسألك بصراحة: هل تستطيع أن تحل محله ؟ هل يمكنك أن تدافع بهذه الكفاءة عن شيء لا تؤمن به ؟ أنت لا تستطيع .. هو استطاع ولهذا استحق أن يظفر بكل ما ظفر به .. ربما وصلت به العبقرية فيما بعد إلى أن يقنع نفسه بأنه يحب الحكومة فعلاً، لكن عينيه كما قلت كانت تشيان بأنه لا يصدق حرفاً مما يقول .. إنه ما زال في مرحلة مغالبة النفس قبل أن يصل إلى حالة السلام النفسي والاستغراق، وعندها يحب الأخ الأكبر على رأي الخواجة أورويل ..

هناك خبر قرأته منذ أعوام ولست متأكداً من صحته بصراحة عن مذيع نيجيري كان يقدم نشرة الأخبار، وفجأة تصبب عرقاً وصمت .. ثم قال للمشاهدين: «معذرة .. لا أستطيع المضي في قراءة هذه الأكاذيب ..» هذا الخبر لو صح حدث في نيجيريا، أي أنه يحدث في بلد أفريقي متخلف لا يتمتع بوجود هؤلاء العباقرة الموهوبين

كنت أقرأ ما يكتبه بعض رؤساء التحرير الحكوميين في صفحة جريدة كاملة لا بد أنها تلتهم ثلاثة أو أربعة آلاف كلمة بلا مبالغة .. كلام لا أول له ولا آخر ولا رأس ولا ذيل .. أسأل نفسي عن الموهبة الخارقة فوق البشرية التي أوتيها هؤلاء لكتابة كل هذا الهراء .. الأمر قد يتجاوز عتبات الحكم الأخلاقية إلى مجال الانبهار بقدرات بشرية خارقة. مثل دهشة الساحر من جزر الكاريبي الذي رأيته يلتهم عشرين ضفدعة حية دون أن يموت أو يتقيأ .. ألا يستحق هذا المجهود مالاً ونفوذاً ؟

حين يكون دافع النفاق هو الخوف .. منذ أعوام قبل غزو العراق رأيت مناظرة على شاشة الجزيرة بين دبلوماسي كويتي هادئ الأعصاب قوي الحجة، ورئيس تحرير جريدة عراقية متوتر عصبي .. الموضوع كان عن احتلال الكويت. وقد كان العراقي يعرف أنه يدافع عن قضية باطلة أصلاً .. لكنه كان يدافع عن حياته ولا .. وتساءلت عما كان سيقوله لو كانت هذه الحلقة تذاع من بلد غير العراق .. أعتقد أنه كان سيقول ما يقوله الكويتي بالضبط ..

يذكر التاريخ للشاعر ابن هانى الأندلسي بيتين مدح بهما الخليفة الفاطمي المعز لدين الله قائلاً :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهار

وكأنما أنت النبي محمـــد .... وكأنما أنصارك الأنصار !!

قيل إن هذين البيتين كانا شؤما أدى لسقوط دولة المسلمين في الأندلس. لكن لا ننكر أن الرجل ضحى بالكثير جداً؛ لقد قبل أن يستحق الاحتقار طيلة حياته، وأن يظل دارسو الأدب العربي يلعنونه، وأن يصير اسمه نموذجاً للنفاق للأبد، خاصة والشعر لا يموت وسيظل يطاردك حتى يوم القيامة. واعتقد أنه ضحى بالكثير مقابل هذين البيتين. هذا رجل قبل أن يصير غريبا وسط أهله وقومه وأن يعرفه وأن يحتقره عامة الناس كلهم، وأن يربطوا بين صورته وصورة فتاة الليل المستندة على عمود النور وبين شفتيها المصبوغتين سيجارة. قبل الرجل هذا كله فهل ترضون له أن يبيع نفسه مقابل لا شيء؟ عم أحمد فؤاد نجم يقول: "تبدأ كلامك عن الأشعار واللي [illegible] بيرم وجرير وكل الناس اللي [illegible] من الكلاب عند [illegible] قدوة كلاب [illegible] الله الله يا بدوي جاب اليسري". قد نختلف معهم في أمور كثيرة لكن [illegible] النفاق أن يكون [illegible]

نعم. ابن هانئ وقومه موهوبون وقادرون على أن يكتبوا مكروهين، ليس لعبة للهواة ولا يمكن تعلمه في سن متأخرة. هذا لا يعني شيئاً سوى الامتحان الذي اعتقد أنني تمكنت من اجتيازه. لهذا لا نسمح [illegible] الذي لم [illegible]؟ ولهذا لا نستحب [illegible] من هذا [illegible] الصغير [illegible] سوى وجبة [illegible]

عن إيرفنج ودرشوفتز وآخرين

لو أنك كنت مواطنًا إسرائيليًا لحدث لك أحيانًا مجموعة من المفاجآت السارة. مع كل صباح هناك من يحج إلى إسرائيل ليقدم فروض الطاعة ويعلن هيامه بالصهيونية إلى درجة البكاء. ها هو ذا ماكين المرشح الجمهوري للرئاسة يقصد إسرائيل ليبكي عند حائط المبكى، ثم يزور الأردن بعد هذا وهو هناك يعلن أن القدس عاصمة أبدية لإسرائيل. قالها في الأردن وسبق أن قالها في إسرائيل. ولسبب ما لم يضربه أحد بالجزمة. ميركل الألمانية تزور إسرائيل لتعتذر للمرة المليون عما فعله هتلر وتؤكد أنها خادمة إسرائيل للأبد. كل هذا لطيف وبرغم ذلك تجد ثلاثة أعضاء في الكنيست لا يعجبهم العجب. يقول أحدهم في تعصب: نحن لا نريد من ألمانيا سوى الغواصات والسلاح. لكن ليس لها أن تأمل في أي تطبيع ثقافي من أي نوع لأننا لن ننسى ما فعلوه بنا. ثم كيف تجرؤ هذه المرأة على استعمال اللغة الألمانية الكريهة في مكان مقدس كالكنيست؟

اليوم نتحدث عن رجلين أكاديميين غربيين كرس كل منهما قلمه وعلمه للدفاع عن قضية. الأول كرس حياته لكي يثبت أن إسرائيل دولة سفاحين تتلاعب بذكريات الهولوكوست الغامضة كي تبتز العالم، والثاني هو بالضبط عكس الأول تمامًا. الثاني يتبنى عكس هذا الرأي ويغني مع السرب.

الرجل الأول هو المؤرخ البريطاني ديفيد إرفينج الذي فتح فمه وقال إن الإمبراطور عار تماما [illegible] إنه عالم مهم لكن سمعته ([illegible] الرفيت) في العالم الغربي وتهمة يشيب لها الولدان وهي (إنكار المحرقة) وهي تهمة تفوق الكفر بمراحل وتعني أنك معاد للسامية بالضرورة

مشكلة الرجل هي أنه منذ كتابه الأول (قضية درسدن) أبدى ميلاً واضحاً إلى تبرئة النازيين من معظم ما لصق بهم من تهم ، وألقى بالكثير من الجرائم على عاتق الحلفاء وخاصة تشرشل الذي اتهمه بأنه عنصري فاشي كذوب . بهذا لم يكن هجومه على إسرائيل مفيداً لنا إلى هذا الحد لأنه صنف ضمن الفكر النازي الجديد

أدرج الرجل ضمن قائمة ليست طويلة جداً من منكري الهولوكوست ومنهم جارودي وروبير فوريسون وإرنست زوندل الذي قال إن كتاباته جعلته يقتنع بعدم حدوث الهولوكوست . كل التحاليل الكيميائية لم تثبت وجود غاز زيكلون ، في الأماكن التي يزعم اليهود أنها كانت أفران غاز . كيف يمكن نسف ستة ملايين يهودي ويزعم هذا من رأى أعداد الناجين من المحرقة [illegible] كل يوم ؟ لقد ينقل [illegible] اليهود من امستردام وبروكسل إلى معتقل (أوشفيتز) الذي يبعد خمسمائة كيلومتر لمجرد حرقهم ، بينما كان يمكن عمل هذا خارج المدن حتى أسوارهم فيها .

ويقول كذلك . معسكر (أوشفيتز) كان مجرد معسكر عمل له ظروف سيئة ، وقد مات الكثيرون فيه كما مات سواهم طيلة سنوات الحرب .

عندما اتهمه الكتاب الغربيون بأنه ينكر الهولوكوست [illegible] ، قال : أنا لا أنكر الهولوكوست لسبب بسيط هو أنه لا يوجد شيء اسمه الهولوكوست أصلاً !

أدت تلك المحاضرات إلى [illegible] هكذا صدرت أوامر اعتقال ضده في تلك السنوات كان إرفنج قد صار الرجل غير المرغوب فيه رقم واحد لدى حشد من الدول ، وصار من المألوف أن تصدر الصحف وعليها صورته أثناء طرده من دولة تلو أخرى . وصدر في فرنسا أمر

باستدعائه للمحاكمة طبقاً لقانون جيسو الذي يسمح لك بأن تشكك في وجود الله وتنتقد المسيح لكن لا تشكك في الهولوكوست ، لكن الرجل بالطبع لم يذهب لفرنسا . وسط هذا كله كان يواجه سيلاً من القضايا مرفوعة ضده حتى أنه أشهر إفلاسه عام 2002 . لقد خاطر الرجل كثيراً من أجل ما يؤمن به . كانت نهاية مغامرته هي النمسا عام 2005 حيث تم اعتقاله ومحاكمته خلال أربعة أيام ، وقد وجد الرجل نفسه مضطراً للاعتذار وسحب كلامه وإبداء الندم الشديد : " لآن أعرف أن النازيين أحرقوا ملايين اليهود . كنت مخطئاً عندما قلت أنه لا توجد غرف غاز . أنا آسف يا حضرات . "

لكن المحكمة رأت أن ندمه غير مقبول وغير صادق ، ووصفه القاضي بعبارة قلما نسمعها في المحاكمات : " إنه مثل عاهرة تم [illegible] [illegible] أن إرفنج مزيف للتاريخ وليس مؤرخاً لأنه يعتبر أنه لم تكن هناك محرقة ولا غرف غاز " . هكذا صدر الحكم عليه بالسجن وقد أدهشه هذا لأنه كان واثقاً من البراءة كما قال وحجز تذكرة طائرة للندن . وقد عاد لي إيماني القديم بأن الإنكار لا يجدي . لقد ربحت [illegible] في العالم الغربي وأخرس معكر جو على إعلان رأيه . كتب البعض على استحياء عن حرية القول التي تمت مصادرتها في مجتمع ديمقراطي ، لكن المجتمع تنهد في ارتياح لأن هذا المزعج قد خرس قليلاً

والآن أقدم لكم بكل فخر وغداً أمريكياً اسمه (آلان درشوفتز) هو محام شهير تخصص في القضايا سيئة السمعة [illegible] وله مظهر وديع مضحك يذكرك بالممثل الكوميدي (رودني [illegible]) . هذا الرجل متخصص في الدفاع عن إسرائيل منذ [illegible] لا نكن

تصديقه .. كلما قامت إسرائيل بمذبحة ما كتب أنها تقف في مقدمة عشر دول تعنى بحقوق الإنسان في العالم .. « بأية معايير تظل إسرائيل صاحبة أنقى سجل حقوق إنسان وسط دول الشرق الأوسط ؟ » للأسف نحن نعرف أن هذه الجملة على الأقل صحيحة ..

لقد أصابته لاتنقصة بسهام مقالات (والتعبير ليس من عندي بل هو لكاتب أمريكي) يدافع فيها محموما عن إسرائيل ، ويلومها على شيء واحد هو رقتها الزائدة مع الفلسطينيين .

عندما كتب أساتذة هارفارد عريضة تطالب بمنع تصدير السلاح لإسرائيل سخر منهم بقسوة وهدد بمقاضاة كل من يوقع على هذه القائمة .. وهو صاحب المقال الشهير في واشنطون بوست الذي يطالب فيه إسرائيل بأن تدمر قرية فلسطينية مقابل أول خرق لوقف إطلاق النار برغم كل شيء أثار هذا الاقتراح غضب الأمريكيين وكتب أحدهم « تدمير بيوت الأقارب الأبرياء لانتحاري .. هذا كلام يجرمه القانون الدولي .. لا فارق بين هذه السياسة وتدمير النازيين لبلدة (ليديس) .. لدى بديه مستر درشوفتز .. هو فقط يقبل هذا عندما يتعلق الأمر باليهود ! » لكنه على كل حال أكثر رقة من كاتب آخر اسمه (ناثان ليون) طالب بإعدام كل أقارب منفذ أية عملية استشهادية !

كتب درشوفتز يؤيد بشدة قتل إسرائيل للمدنيين اللبنانيين في حرب 2006 . وكالعادة راح يعبث بتعريف كلمة (مدني) قائلا إنها لفظة لا معنى لها مع الحروب الحديثة .. نحتاج إلى لفظة جديدة تعرف المدنيين في عصر يختلط فيه هؤلاء بالإرهابيين .

من المعروف في الغرب أن درشوفتز يؤيد تعذيب الفلسطينيين بشدة ، وله نظرية خاصة اسمها (القنبلة التي تتكتك) لانتزاع الاعترافات ويقولون إنه ليس ضد الإرهاب .. هو ضد الإرهاب الذي يمارس ضد اليهود واليهود فقط .. وبالذات في إسرائيل .

كتب جيمي كارتر عام 2006 كتابه الشهير (فلسطين .. سلام وليس تفرقة عنصرية) الذي أدان فيه إسرائيل بشدة وعبارات واضحة ، حتى اتهمه اليهود بأن كتابه منسوخ من المواقع الأصولية الإسلامية .. قال كارتر إنه كتب كتابه ليوضح حقائق لا يفهمها الأمريكان ، حيث يتنافس طرفان على ذات الأرض لكن أحدهم يملك قوة عسكرية ساحقة .. « ما من أحد في أمريكا مستعد لسماع وجهة نظر أخرى .. لا يوجد جدل حول أي شيء قد يجرح إسرائيل ... »

طبعًا خرج درشوفتز يتحدى كارتر لمناظرة علنية بخرسه ، لكن كارتر رفض في إصرار لأنه غير مستعد لمناظرة مع شخص يجهل كل شيء عن الوضع في الشرق الأوسط .

إن هذه الأصوات المعترضة موجودة ومنها القس جيسي جاكسون الذي قال إن الفلسطينيين صاروا زنوج الشرق الأوسط ، ومنهم تشومسكي العظيم ، لكن تظل هذه الأصوات خافتة جدًا عاجزة عن التأثير .. دعك من رأس الذئب الطائر المتمثل في أمثال أرفنج الذي يستمتع الآن بالسجن ثلاث سنوات .. ترى كم من أساتذة العالم الغربي يقبلون أن يشاركوه أكل العيش والحلاوة المسموح بهما في مثل هذا

العميل رقم واحد

هناك سيناريو لقصة سينمائية قمت بكتابتها منذ أربعة أعوام ولم أجد من يرسمها. القصة تصور أسامة بن لادن وأيمن الظواهري يجلسان أمام خلفية من جبال أفغانستان الوعرة ويلقيان بيانًا ناريًا من تحت البيت.. بعد انتهاء التصوير سنرجع بلقطة لنجد أن الجبال صورة جدارية عملاقة وأن التصوير تم في هوليوود. ونرى مخرجًا أمريكيًا يثني على الأداء، بينما مدير المخابرات الأمريكية يهنئ الرجلين باعتبارهما أكفأ ضابطي مخابرات لديه على الإطلاق!..

لم أر بعد ما ينفي هذه الصورة أو يضعفها في ذهني، برغم أنها تثير غضب كثيرين وربما جنونهم، والدليل أنني لم أجد رسامًا يقبل رسمها.

في كل يوم تتأكد هذه الصورة عندي أكثر، خاصة عندما رأيت في الأسبوع الماضي صورة الرهائن الكوريات المذعورات يجلسن مرتجفات بينما يحاصرهن رجال طالبان بالبنادق الآلية.. هذا هو الإسلام لا كما قدمه المسلمون الأوائل ولكن كما يقدمه ابن لادن وتلاميذه.. ترويع آمنين عزل ومهاجمة نساء.. اليوم هو الجمعة، فلا أعرف إن كان يوم الثلاثاء القادم سيرى هؤلاء الفتيات وهن أحياء، وإن كان هناك جو عام من التفاؤل الحذر لأن كبار رجال القبائل تدخلوا في الوساطة، والقبلية هي أهم شيء في عالمنا كما تعرف.

قال المتحدث باسم طالبان إن هؤلاء مبشرات مسيحيات.. مبشرات بماذا؟ هؤلاء القوم أقرب لديانات البوذية والشنتو والشامانية. والمسيحي

منهم يحتاج إلى مبشر يعلمه أصلاً.. ثم لماذا تقتل مبشرًا؟ لماذا لا تحاربه بسلاحه وتكون أقوى منه فكرًا؟ من المعروف أن من يطلق الرصاصة الأولى هو الطرف الأضعف منطقًا، فهل أنت كذلك؟

مسافة طويلة قطعها المجاهدون الأفغان منذ كانوا يطردون الاحتلال السوفييتي من بلادهم حتى بلغوا مرحلة حصار الفتيات الكوريات بتهديد السلاح. صحيح أن طرد السوفييت تم بسلاح أمريكي وبتدريب كامل من المخابرات الأمريكية، وعلى سبيل المقلب الذي أعده بريجينسكي للسوفييت، لكنه كان جهدًا بالمعنى الدقيق للجهاد ولا أحد ينكر هذا.

والآن تخيل معي شابًا مواطنًا بريطانيًا مسلمًا لا علاقة له بتوني بلير ولا بمحافظي الولايات المتحدة المجانين عشاق الدماء.. تصحو يومًا لتجد أن طائرتين دخلتا في مركز التجارة العالمي بمن فيهما من ركاب أبرياء (كم من أم كتبت اسم الطفلة على جدران في ساعات الصباح الأولى تلك)، وهذا تحت راية الإسلام. وتجد أن العالم الإسلامي يهلل فرحًا وأن المظاهرات مثلاً في باكستان تشيد بابن لادن تحت شعار (هذا بطل).. ثم تصحو ذات يوم لتجد رجلاً ضعيفًا مقيدًا يرتجف بينما يقف خلفه خمسة أشخاص ملثمون يتلو أحدهم بيانًا طويلاً. ثم يصرخ (الله أكبر)، ويقبض بسكين ليذبح الرجل في مشهد طويل بطيء يحطم الأعصاب. ويقطعون رقبته ليضعوها على صدره.. تصحو يومًا على رجل ملتح حاول أن يفجر طائرة أمريكية مدنية بمتفجرات في حذائه.. تصحو على انفجارات في مترو أنفاق لندن.. على انفجارات في منتجع أندونيسي.. كل هذا تحت شعار نصرة الإسلام بينما تدوي صيحة (الله أكبر)

الصيحة التي فتح بها المسلمون العالم في الماضي صارت تستعمل في أمور عربية بعض الشيء .. ثم تأتي الطامة الكبرى وأنت ترى الرهائن الكوريات يبكين أمام الكاميرا . وقد يبس مثل الشاء الأفغانيات ، وهن يعرفن أن بعض زملائهن قد قتلوا فعلاً .

أنت تعرف أن حكومتك البريطانية ترتكب الفظائع .. ترى صور (أبو غريب) .. ترى الأطفال المحترقين في فلسطين والعراق .. أنت تشارك في مظاهرات عديدة تتهم فيها (بوش) بأنه مجرم حرب وتطالب بمحاكمته . لكنك تتساءل كذلك عن ذنب الذين ماتوا في مترو الأنفاق ، وهذا الذي ذُبح ببطء أمام الكاميرا ..

عندئذ يتصايحون بأن هذا نصرة الإسلام ، بينما لا يكف الإعلام العربي عن تكرار (هذا ليس من ديننا في شيء) .. (الإسلام يمنع ترويع الآمنين) .. فمن تصدق ؟

هل من الغريب عندئذ كبريطاني أن تعتبر الإسلام خطراً مروعاً وأن ترى أن نبوءة (اسبوزيتو) تتحقق ؟ .. المحاولات موجودة في كل مكان . والحديث عن حوار الأديان جذاب .. لكنك عندما تدخل الانترنت تكتشف كم الكراهية المروع الذي يضمره الغربيون للإسلام اليوم .. إلى حد أن نسبة 90٪ من رواد أحد المواقع الأمريكية يرون أنه من الواجب قصف كل البلاد الإسلامية بالسلاح النووي لتسويتها بالأرض

لكن هل ابن لادن هو من نفذ هجمات سبتمبر فعلاً ؟ .. لن نعرف أبداً ولكن يكفي أن مفكراً في حجم (هيكل) .. له رأي يرى أن هذا مستحيل حتى إنه شك في أنه ضربة .. في هذه الحالة يكون بن لادن قد

حتطف الفتورة بالاتفاق مع الأمريكان ، على طريقة فيلم فؤاد المهندس الذي كان يعترف فيه بجرائم لم يرتكبها ، فقط ليظهر شجاعاً في عين زوجته .. وبنفس المنطق صار ابن لادن بطل العالم الإسلامي ، وصارت رغباته أوامر .. نحن نعرف هؤلاء القوم حين كانوا في مصر ، ونعرف أنهم لم يقوموا بعمليات أكثر براعة من تفجير مقهى في ميدان التحرير ، أو تفجير محطة أتوبيس في شبرا لتموت طفلة بريئة اسمها شيماء كانت عائدة من المدرسة .. أو ذبح سياح عُزل .. مهمتهم تخصصت حقاً في تحطيم صورة الإسلام .. وقتها قالوا إن من فعل هذا أمن الدولة كي تستعدي على الإسلاميين ، وطبعاً نظرية لا بأس بها .. لولا أن ظهر الأخ الظواهري على شاشة الجزيرة ليؤكد أنهم من فعل هذا فعلاً (ثم تتوقف لأننا شعرنا أن هذا قد قلب الشارع المصري عليه) .. والطريف أن الشارع العربي يخرج من قوله إن ابن لادن بريء ولا يستطيع فعل عملية بهذا التعقيد ، وفخره بأن ابن لادن فعلها وانتقم !! أحياناً تقرأ الرأيين في المقال ذاته !

ما الذي يفعله الظواهري حقاً ؟ .. لا شيء على الإطلاق سوى إصدار البيانات التلفزيونية والتعليمات للمجاهدين الحقيقيين ، بينما هو لم يطلق طلقة واحدة على إسرائيل .. لم نعلم لماذا .. إلا أن اسمه عندما كان حزب الله العظيم في ذروة حربه مع إسرائيل ، عندما راح الظواهري يوجهه للكتيب وعينيه إلى الفلسطينيين يخاطبهم مستعملا مصطلحات شيعية الطابع مثل (التقية .. الاستضعاف) إلخ .. هو لا يطيقهم لكن (التي تكسب به العيب به) دعك من سخف ما يقول بينما المجاهدون غارقون في الدماء والنيران فعلاً ولسان حالهم يقول : « نحن لسنا بحاجة لتعليماتك .. لو كنت تستطيع عمل شيء لمساعدتنا فافعله .. »

الأمر أخطر من هذا لأن كل ما يفعله ويقوله ابن لادن يصب في النهاية في مصلحة بوش. ولن ننسى التوقيت العبقري الذي اختاره ليلة الانتخابات الأمريكية عندما طالب الأمريكان بألا ينتخبوا بوش.. هكذا صار كيري هو مرشح ابن لادن، وصارت النتيجة محسومة! كلما شك الناس في بوش أو عارضوه ظهر ابن لادن على الشاشات يتهدد الأمريكان ويذكرهم بأنه موجود وخطير.. ولولا حيطة لقال لهم: «والله لن يقدر عليّ إلا بوش.. لو رحل لانفردت بكم وخربت بيوتكم».

هل كان من الممكن أن تحتل أمريكا العراق لولا أحداث سبتمبر؟ لا تقل لي إن الذرائع من الممكن تلفيقها من فضلك، فنحن في عالم يحب التشكيك والتظاهر بالتحضر. ولو لم يقدم ابن لادن الذريعة ما استطاع بوش سوى أن يعد الحصى.. مع من يعمل ابن لادن حقًا؟

لا أملك أجوبة.. الأجوبة سوف يعرفها من يعيش بعدنا.. لكن لو فكرت في الأمور بمنطق لوجدت أن قصة الرئيس التي ذكرتها في بداية المقال ليست بعيدة جدًا عن الحقيقة.

جونسون أم دنانة ؟

بقلم د. أحمد خالد توفيق
aktowfik@hotmail.com

يحكون هذه القصة عن (جونسون) الرئيس الأمريكي عندما كان يخوض الانتخابات ليصير حاكم تكساس ضد منافسه حسن السمعة (بن و دانييل). بما أن جونسون كان شخصية لا تتورع عن شيء فقد استعمل أسلوب الحرب القذرة ضد منافسه.. طلب من سكرتيره أن ينشر في الصحف خبرًا ينفي فيه عن منافسه أنه يضاجع الأبقار، وأنه ضبط وهو يمارس هذا العمل المشين! قال السكرتير في ذهول:

- «لكن أحدًا لم يتهمه بشيء كهذا من قبل!»

قال جونسون في بساطة: «هذا ما يجعله تهمة. نحن لا نتهمه بل ننفي عنه التهمة! فقط انشر التكذيب ودع الناس يتساءلون، ودعه هو يؤكد النفي!»

هذا ذكاء شرير لا شك فيه.. جونسون يعرف أن نفي التهمة لا يدحضها فعلا. وإنما سوف يتساءل الناس عن سبب ظهور هذه الإشاعة.. هل هناك ظل من الحقيقة فيها؟ لا دخان من دون نار.. هل يعرفون شيئا لا نعرفه نحن؟

هذه الطريقة يتبعها الكثيرون بمهارة.. وهي تتم عبر مراحل ثلاثة: عباس لم يختلس العهدة .. وهل هناك من اتهم (عباس) باختلاس العهدة؟ لم يقل أحد هذا لهذا ننفيه!.. بعدها يثور الكثير من الغبار ويتساءل

الناس .. يبدو والله أعلم أنهم يعرفون شيئًا عن كون (عباس) سرق العهدة .. بعد عام أو عامين تبقى ذكرى غمغمة حول (عباس) الذي سرق العهدة لكنهم ينكرون ..

لهذا سررت كثيرًا لأن د. محمود جامع نفى صحة ما نشرته صحيفة شهيرة منسوبًا له من إساءات للرئيس الراحل أنور السادات وحرمه .. قال في صحيفة المصرى اليوم إن ما نشر كان دردشة عامة قبل الحوار الصحفي أساء ناشر الحوار استخدامها ، ومن بين ما كذبه ما قيل على لسانه عن استيلاء السيدة جيهان السادات على عقد ماسي قيمته ثلاثة ملايين جنيه .. وقال : « ما نشر يمثل إساءة إلىّ شخصيًا وإلى أسرة الرئيس الراحل أنور السادات » .

أنا لست مولعًا بعصر السادات على الإطلاق ، وأرى أن السادات بدأ كل شيء ما زلنا نعاني منه اليوم على نطاق أكبر ، حتى لأعتقد أن السادات ما زال يحكمنا فعلًا . لكن هذا شيء والاتهام بالسرقة والكلام عن الأعراض وإدمان المخدرات والخمور والإقامة في بيتين منفصلين شيء آخر .. بالفعل تمنيت أن ينكر د. جامع هذا الكلام وقد فعل لحسن الحظ مما أثلج صدري .

دعك من أننا اعتدنا أن نعتبر الدكتور جامع أصدق أصدقاء السادات .. لذا لا نحتمل أن يصدر هذا الكلام عنه هو بالذات .. إن هذا يشرخ شيئًا عزيزًا في نفوسنا .. كلنا نختلف مع موسى صبري لكن لا ننكر أن الرجل ظل مخلصًا للسادات حتى آخر لحظة من حياته .. حياة موسى صبري .. قد نختلف مع هيكل لكن تذكر أن الرجل ظل متوافقًا مع ماضيه ولم يتهم

عبد الناصر بالدكتاتورية أو التهور أو ... أو ... وبالطبع لم يتهمه في ذمته المالية . وأنت تعرف أن هيكل قادر على صياغة عباراته بذكاء واقتدار بحيث يخرج نفسه من أية مسئولية ، لكنه لم يفعل ..

كما تدين تدان على كل حال ، فقد كنت طالبًا في المدرسة الثانوية وبرغم هذا كانت أذناي تحمران خجلًا وغيظًا عندما أقرأ بريد القراء في (أخبار اليوم) ، حيث يتبارى القراء في اتهام (خالد محيي الدين) و(إبراهيم شكري) بكل موبقة في حياتهما الخاصة ، وكانت أسماء القراء على غرار (محمد أمين سيد) (سيد أحمد خيرة) .. إلخ مما يستحيل التأكد منه .. فيما بدا أن القراء لم يعد لهم هدف في الحياة إلا شتيمة هذين المعارضين العاجزين عن نشر الرد .. وأنا أعلم أن هذه خطابات لفقها سكرتير التحرير .. ثم ظهر نبوي إسماعيل أمام مجلس الشعب يؤكد أنهم قبضوا على كتاب المعارضة وهم يتناولون البلابيع ويدرسون المنشورات و يرتلونها في شارع (بلابيض) .. صفق المجلس كله ، وتساءلت أنا عن سبب تجمع كل هؤلاء المعارضين في مكان واحد لممارسة الرذيلة .. هل هو عيد جنسي شبيه بـ (ماردي جرا) في الولايات المتحدة ؟ .. عيد جنسي خاص بكتاب المعارضة فقط ؟ .. هذا كان يُقال ويُسمح به أيام السادات .. بل كان من وسائل التقرب من الرجل العظيم .. عندما تسمح بأن يُقال هذا عن أعدائك ، فعليك أن تتذكر أن مثل هذا سيقال عنك يومًا ..

أذكر أن رسائل بريدية إلكترونية وصلتني منذ عامين تسخر سخرية بذيئة من مسئول كبير وأسرته .. تضايقت جدًا ورددت على صاحبها مستنكرًا

يبدو لا بأس به من الأسباب . قلت له : أنت بهذا تصعّد في موقف عدائي تلك على الفور ، وتقوي قضية الطرف الآخر ... اختلف كما تشاء مع سياساته وقراراته وفكره لكن لا تقترب شعرة من بيته وأسرته من فضلك

في نفس الفترة القصيرة سمعنا كلامًا لا يختلف كثيرا عن إشاعة جونسون إياها . ومصدرها كاتب صحفي كبير شديد الذكاء ورئيس تحرير مؤسسة صحفية كبرى . هذا الرجل كما قلت شديد الذكاء و ... اعتبره لمع وجهه لنظام حيث . فهو يعرف ما يقول ويعرف كيف يبدل الحقائق ببراعة ، وعندما تراه في الفضائيات يبدو واثقا هادئا يختلف كثيرا عن أسماء نعرفها جيدا تريد الفتك بلا ... هو ذا الرجل يطلق كلمات غامضة مريبة عن ... جعلته ... الإعلامية الشجاعة الباسلة . حتى أوشكت أن نحول في ذهن المصريين إلى (أبريس) ... حتى لو لم تكن (إبريس) فأنت يا سيدي ... حصة كذلك ، وكل من قرأ كلمات تعاطف معها بشدة وكسبته أي ... تصدى له بشجاعة الأستاذ (حمدي رزق) في مقال ممتاز وأعتقد أن حرب كلامية مروعة ستنشب في الفترة القادمة

طريقة التلميح البذيء ضد الإعلامية الشجاعة ذكرتني بوصف لعبقري لشخصية (دميه) في رواية د . علاء الأسواني (شيكاغو) . (دميه) من الشخصيات الساحرة فعلا في الأدب العربي الحديث . وهو في القصة رئيس المبعوثين المصريين بالخارج ومخبر هو وبحث ... ويصف الأسواني دنانه بأنه ذو طبع أنثوي لا تخطئه العين من حيث ... ووضع يده في وسطه ، وولعه بالثرثرة والنميمة وإلقاء عبارات تحمل أكثر

من معنى ... كل هذا جعله أقرب لامرأة متذمرة منه لرجل صارم . هكذا يتشاجر مع زوجته مثلا فيعض شفتيه كما رآها ، أو يمر جوارها فيخبط كفا بكف ، أو يترحم على أمه التي كانت زوجة صالحة . مثلاً يصف حدث وقع لإحدى الخريجات فيقول : « لأخت شيماء تعرضت لحادث وأحوه طارق . جراه الله خيرا يقف الآن خلفها ليواسيها ! » . فهو يجيد هذه العبارات ذات الطابع النكدي الأنثوي والتعبيرات المذكرة التي تحتمل أكثر من تفسير .

صراحة يا سيدي رئيس التحرير الكبير ، أعتقد أن ذكاءك تخلى عنك هذه المرة ... ولو كنت أنت تتبع طريقة جونسون في نفي شائعات لم توجد أصلا ، أو طريقة دنانة في الكلام ذي المعنيين ، فإن القارئ ذكي جدا ويفهم الطريقتين ... أنا ... ولكن أن مقالك هذا لم يكتب ... لأعداء ... ولا ... للسلطة ... من قبل هذا الكلام الفارغ ؟

الصينيون ليسوا قادمين

عم شحاتة سائس سيارات رجل مكافح يبدأ يومه بالعناية بسيارات البهوات بوقفها في الخرابة وتنظيفها وقد مشمر السادس يمسك بالدلو والفوطة في صقيع الصباح . ثم يرحل آخر البهوات فيصير الصباح كله له كي يعمل في بناية قريبة تحت الإنشاء ، فيقوم بحمل الطوب إلى الطابق الرابع أحيانا ... بعض قطع الأثاث ... لزوم جهاز البنت ، وأحيانا يعمل كوب ... من الشرفات ... في قريته يربي بعض المواشي لأحدهم

يقيم عم شحاتة في عشة صنعها بنفسه من ... بورق مقوى والمشمع وآية قطعه حسب وجدها ويداخلها ... فراش صغير وجهاز ... مركوني شخصي وهناك ثلاثة ... طوب تحتها موقد يصنع عليه عدة الشاي ... أن أقول إنه يبيع الشاي ... والمتاجر المحيطة بالخرابة التي تقف فيها سياراته

في كل يوم عند العصر يصل وانج ـ هو ، مندوب المبيعات الصيني حاملا حقيبته الثقيلة التي ينوء بها كتفه ... قاسية على وجهه الأصفر المجعد المرهق . ثم يرتمي ليجلس على كومة من قوالب الطوب . وقد اندهشت للغاية لتلك الصداقة التي تجمع بين رجلين لا يملكان أية لغة مشتركة لا عربية ولا إنجليزية ولا صينية وبرغم هذا هما صديقان حميمان والتفاهم بينهما تام يجلس (وانج ـ هو) منتظرا عم شحاتة كي يعد له كوب الشاي الساخن المحلى غالبا ، فيرشف منه في استمتاع يبدو أنه لم يبع شيئا بعد يوم كامل من المشي في شوارع طنطا المزدحمة الوعرة

أين يقيم ؟ ما الجهة التي يعمل معها ؟ هو لا يجيب وعم شحاتة لا يعرف . برغم هذا فالرجلان صديقان حميمان تشعر عندما تراهما من بعيد أنهما يتبادلان حديثا مهما ثم تقترب فتدرك أنهما صامتان يتبادلان الأفكار

عندما تأملت في الأمر بدا لي غريبا جدا . هذا الرجل الصيني جاء من الجهة الأخرى من العالم ليعمل مندوب مبيعات في مدينة صغيرة في مصر . ويجلس في خرابة ليشرب الشاي من كنكة سوداء متسخة أعدها له سائس سيارات ..

من هذا المصير ؟ وما الذي قاده له ؟ أما عن العلاقة الحميمة بينه وعم شحاتة فسببها مفهوم . إن بين الرجلين لغة واحدة يليقها هي لغة الشقاء .. يفهمان بعضهما بلا كلمات ..

كان من المفترض أن أشعر بالإعجاب والانبهار بهذا النشاط ... الصينية التي لا تكف عن العمل ... في كل مكان من مصر اليوم . لم يعد الأمر يقتصر على تصدير المنتجات بل إن العمالة الصينية غلا مصر . ولا أعرف المسئول عن هذا في بلد يعاني شبابه البطالة فضلا عن أن هناك شبابا عن عرسان صينيين جاءوا يقبلون على ... الزواج ... وأن هناك نحو 50 صينيا تزوجوا مصريات خلال عام 2006 ... ثم يتحدث عن مشكلة العنوسة ويتزوجن وانج هاو ؟

هناك غزو من آلاف الصينيات على ...

خمسه آلاف فتاة صينيه تفد على قريه ام بـدوي يوميا . حتى ان اهـالي القرية صاروا يجيدون الصينية تقريبا . هناك زحف صيني على الشقق الرخيصة في امبابة والمنيب .

البائعة الصينية تدق الباب وتعض نصرها قائلة « السلام عليكم ورحمة الله » ثم تطلب مقابلة ربة البيت وترفض الدخول من دون وجودها .

كلنا يعرف ان الاقتصاد الصيني ينمو بسرعة غير مسبوقة . في احدى قصص مايكل كرايتون يقول المهندس الأمريكي « صيغو لاعبين قدمون . كانوا السادس ثم صاروا الصينيين . كلهم صيغو الاعبين لا يأخذون حذره يوم الأحد ولا يهتمون بكرة القدم » . مجلة الايكونوميست قالت ان الصين حتى بلوغ سكانها ربع سكان العالم ستصل الى الدولة الاولى في النمو الاقتصادي عام 2020 وسيبلغ حجم ناتجها المحلي 29.6 تريليون دولار ، وهي اليوم تشغل الموقع الثالث بعد اليابان . الصين تنتج ثلثي انتاج العالم من ماكينات تصوير المستندات وافران الميكروويف والدي في دي والأحذية ... انتاج العالم من الملابس وآلات التصوير وخمس انتاج العالم من الكمبيوتر المحمول . ان الصين قد فاقت الولايات المتحدة في تصدير معظم سلع التكنولوجيا حول العالم عام 2004 . لهذا كانت هناك حرب اقتصادية واضحة من الولايات المتحدة ضد هذا العملاق المصر على ان ينمو أكثر . صحيح انه ما زال بعيداً جداً عن الاقتصاد الأمريكي ، لكن لابد من توجيه ضربات له . بل إن العديد من مراقبي السياسيين ينظرون إلى الضربة العسكرية على انها (خيار حر) مع قيام قوه عظمى صاعدة في العالم ، وهم يراهنون على

الشرك الياباني) الذي قد يؤدي بالصين لضرب تايوان من ثم تضربها الولايات المتحدة وتستريح . هكذا راحت الضربات الاقتصادية تتوالى . موضوع المنتجات الصينية التي تشكل خطورة على الأطفال . هذه الفضيحة التي ادت لسحب 19 مليون لعبة من الأسواق مؤخراً فيما يعرف بالاسترجاع Recall . لانها مطلية بمادة سامة تحتوي الرصاص . تذكر ان الصين تورد 80 بالمائة من لعب الأطفال في العالم . اليوم . ثم حدثت قصة معجون الأسنان الملوث والدهانات السامة والمأكولات البحرية التي أضيفت لها مضادات حيوية . وكانت المنتجات الصينية في عام 2006 تمثل نصف المنتجات المعيبة التي كشف عنها نظام حماية المستهلكين الأوروبي .

نتيجة لهذا اعدمت بكين رئيس هيئة متابعة سلامة الأغذية والعقاقير للتقصير في عمله . يجب ان يحمد مسؤولونا الله على انهم ليسوا في الصين .

نصر الصين على توجيه ضربات مضادة من مبدأ المعاملة بالمثل « الصين ستقوم هي الأخرى بفرض معايير أكثر صرامة بشأن الواردات الغذائية من الولايات المتحدة » . لقد اعادت ارسال شحنة من المشروبات قادمه من الولايات المتحدة بعد ان اظهرت اختبارات اجريت في شحنها وجود نسبة كبيرة بها من الصبغة الحمراء . قررت سلطات الحجر الصحي في بكين حظر استيراد اللحوم من سبع شركات امريكيه كبرى ، مشيرة إلى ان نتائج الفحوص المعملية على عينات من تلك اللحوم اظهرت انها « ملوثة » ، مما يشكل خطراً على صحة المستهلكين ... 2007

أعلنت سلطات مراقبة الجودة الصينية أنها وجدت بودرة بروتين مستوردة من شركة أمريكية تحتوي على كميات زائدة بشكل كبير من عنصر سيلينيوم.

برغم هذا وتبعًا للإيكونوميست ازدادت الفجوة بين الأغنياء والفقراء، فقد بلغ عدد مليونيرات الصين 106 بليونير، وبعكس القول إن النمو الاقتصادي لم يحدث فرق في حياة الناس، فما زالت الصين تشغل المركز 100 في معدل نصيب الفرد من إجمالي الناتج والمركز 81 على صعيد التنمية البشرية وهي بالتالي دولة نامية على هذا الصعيد. حجم الاقتصاد الصيني ما زال أقل بكثير من نصف حجم الاقتصاد الياباني (نحو 9 تريليون دولار)، ناهيك عن الاقتصاد الأمريكي الذي يزيد على 50 تريليون دولار

الاستنتاج الرئيسي هو أن الصين دولة متقدمة جدًا في مؤشرات النمو الاقتصادي، لكنها دولة نامية في مؤشرات التنمية الاقتصادية والاجتماعية. مشكلة الصين هي أن ساستها يخلطون بين النمو والتنمية. وهذا متوقع في دولة دكتاتورية

أنا لا أفهم الاقتصاد جيدًا، لكني أفهم منظر (ونج هو) الجالس يشرب الشاي من يد عم سحابه. أقسم بأنه أن هذا رجل لا ينتمي لقوة اقتصادية كاسحة، وهذه الأرقام التي تعيشها البورصات الصينية لا تمت بصلة لرفاهية الفرد. إن ونج هو صورة أخرى لعم شحاتة. كلاهما عبد يجري على لقمة عيشه في ظروف أقوى منه ولهذا لا أرى الصينيين قادمين على المدى البعيد.

هوامش عن الحرب السادسة

- 1 -

في اليوم التالي مباشرة لسقوط بغداد، وجدت عند بائع الصحف جريدة أسبوعية تتصدر صفحتها الأولى صورة عملاقة لوزير الإعلام العراقي (الصحاف)، وقد كتب تحتها "الصحاف رمز الصدق الإعلامي". هذه الجريدة لم تعرف بما حدث أمس ولم تجد الوقت لتبدل عناوينها. ففي الأسابيع التالية تحول الصحاف إلى رمز للكذب والجعجعة الخطابية الفارغة وتضخم اسمه إلى اسم (أحمد سعيد) في مصر، وصار فقرة للإضحاك في الكوميديات الفضائية ..

برغم كل شيء فإن ذكرياتي عن الصحاف كانت إيجابية جدًا. ورأيي أنه أدى عمله كأفضل ما يكون. يسقط الصاروخ الأمريكي في مكان من بغداد فيكون هناك خلال ربع ساعة غير خائف على حياته من قنبلة لم تنفجر بعد أو غارة تابعة. ويقدم حقائق للصحفيين في ثبات وثقة مع الكثير من المرح. وكم من مرة وجه ضربات محكمة لأكاذيب آلة الدعاية الأمريكية التي تقودها (فوكس نيوز) و(سي إن إن). لقد كان بارعًا بحق حتى اللحظة الأخيرة، لكن الجيش خذله ..

نفس الشيء ينطبق على صمود العراقيين أمام القوة العظمى في الكون. هل بسبب الأسابيع الثلاثة الأولى من الحرب والوقت العصيب الذي منحه العراقيون للأمريكيين؟ هل بسبب القتال مدة عشرة أيام في ميناء (أم القصر) والهجمات على قوافل المؤن وسط [illegible] والمدفعية الأرضية التي تصدت لكل صواريخ (كروز)؟ [illegible] المشاحنات

في الباخون ؟ والاستجوابات التي خاضها رامسفيلد حول (هل وضعنا في فيتنام جديدة ؟ كيف دخلت هذه الحرب من دون قوات برية كافية ؟) ملحمة رائعة ساعد فيها أن خطة الدفاع عن بغداد وضعها عسكريون محترفون ، بينما سقطت بغداد ذاتها خلال ساعات لأن خطة الدفاع عنها وضعها المحامي (قصي صدام حسين) ، وبما أنه ابن رئيس الجمهورية فقد فرض أن هذا كاف لجعله يجيد الاستراتيجية والسباكة والفن التشكيلي وميكانيكا الكم .

سقطت بغداد وعلى الفور نسي الناس كل شيء وتبخرت كل هذه المقاومة الأسطورية . فلم يعد أحد يذكر إلا مشاهد الاقتحام والنهب ونسي الأمريكان كل اتهاماتهم لرامسفيلد فلم يعد إلا القائد المنتصر

فيا معك يا شيخ (حسن نصر الله) ، فلو أن إرادتك انتصرت واستطعت أن ترغم إسرائيل على حد وقف إطلاق النار وتبادل الأسرى ، فلسوف تصير بطل الأمة ويخرس كل منتقديك الرجل الذي استطاع أن يقهر إسرائيل بمجموعة من الميليشيات

أما لو خطموك - لا سمح الله - فلسوف يبعث هؤلاء الذين تخاجرهم هدف ذلك اليوم وسيذكر لك الناس ذلك الرجل الذي تسبب في دمار لبنان ، وندد بحماقة النصر الجميل الذي صنعه من قبل وسيُقال إنك عميل إيران الذي أسبه بطاعة واجب أحمر ووقتها لن يتذكر أحد حرفاً عن قصف حيفا والذعر الإسرائيلي وبطولات قرى الجنوب وقصف البارجة من لا أدهى سوف يقول إنك عميل لدى الموساد كلف بمهمة تبرير دخول إسرائيل إلى لبنان ..

-2-

منذ سمعت اسم (حسن نصر الله) للمرة الأولى وقعت في حبائله ككل من عرفه إنه كاريزما تمشي على قدمين . وعقل متزن ومنطق قوي لا تشوبه شائبة في الوقت نفسه هناك لمحة معينة من المكر اللطيف في عينيه . وهي لمحة تشي بأنه لم يتخل بعد عن براءة الطفل بداخله هذه البراءة بالذات هي التي تجعله يرفض أنصاف الحلول . ويحتفظ بدهشته تجاه ألعاب السياسة السخيفة الحق واضح لا شك فيه ، والباطل واضح لا شك فيه . فلم الخلط إذن ؟ إنه يتصرف بالضبط بالطريقة التي تتصور أنك كنت ستتصرف بها لو كنت تملك القوة . ولهذا يشعر الإسرائيليون بأن لهجة خطابه مختلفة عن لهجة باقي العرب الذين يتكلمون عن السيف والخيل ولا يستعملونهم

هذا الرجل لا يمت وهام ، ولا يشعر بحاجة لتفسير نفسه أو تقديم شهادة حسن سير وسلوك للغرب لقد كرر مراراً أن المجتمع الدولي لا وجود له . وهو ما يؤمن به كل مواطن عربي . حتى أن أحدهم سألني عن الذي نجنيه من مجلس الأمن والأمم المتحدة ولا عمل لهما إلا دائماً وتأييد إسرائيل ؟ لماذا لا تعلن الدول العربية جميعاً انسحابها من هاتين الجمعيتين التمثيليتين ؟ حسن نصر الله يؤمن بالشيء ذاته ، ويعمل بالضبط وفق بيت أبي القاسم الشابي :

لا عدل إلا أن تعادلت القوى . . . وتصادم الإرهاب بالإرهاب

أذكر منذ عدة سنوات أن لبنان قام باستغلال حق مشروع له في مياه نهر الليطاني ، لكن شارون هدد بأنه سيدمر به مشروع بنفسه تعتمد على

هذا النهر لأنها تتعدى على حصة إسرائيل من المياه .. رأيت حسن نصر الله في قناة الجزيرة يقول بعبارات واضحة باردة: "أية محاولة إسرائيلية ستقابل برد قاس .. ولن يتأخر هذا الرد أكثر من الوقت الذي تستغرقه مكالمة أجريها على الهاتف المحمول !" .. هل تعرف ما حدث ؟ .. أعلن شارون أن إسرائيل تحتفظ لنفسها بحق الرد في الزمان والمكان المناسبين !!
وكنت أحسب هذه العبارة مقصورة على العرب فقط ..

الإسرائيليون أذكياء ويعرفون جيدًا أن هذا الرجل لا يطلق التهديدات جزافًا .. ليس صدام حسين الذي وعد بأن يتحطم المغول المعاصرون على سور بغداد . ثم سقطت بغداد بنفسها من دون رصاصة واحدة .. ليس الظواهري الذي فجر قنابل في مقهى أو في محطة أتوبيس في شبرا ليقتل طفلة عائدة من مدرستها .. وذبح بعض السياح لإذلال الغرب .. ولا يكف عن الكلام عن الكفاح برغم أنه لم يطلق طلقة واحدة على إسرائيل .. وفي العراق يتلخص كفاح القاعدة في تفجير مزارات الشيعة وذبح الجنود العراقيين .. قد يقول قائل إن الأمريكان هم من يفعلون هذا .. لماذا لم تنكر القاعدة ذلك في بيان واضح يا أخي ؟

الطريف في الموضوع هو أن الظواهري قرر أن يدلي بدلوه في الموضوع .. لا يمكن أن يسمح بكل هذه الشعبية لنصر الله الذي يوشك على التحول إلى بطل العروبة .. لابد من بيان لا معنى له كالعادة .. وعلى الأرجح سوف يفجر محطة مترو في دولة أوروبية ليقتل بعض الأبرياء ويرقص .. [illegible] سوف يتظاهر بالتحالف مع الشيعة الذين يعتبرهم أنجس من الصهاينة

-3-

تذكرني ملامح (كوندوليزا رايس) بكومبارس مصرية شهيرة جدًا تلعب دائمًا دور فتوة المدبح أو كودية الزار في الأفلام ، وهذا مع احترامي الشديد للكومبارس لأنها لم تستمتع بقتل المدنيين ، ولم تصف تعذيب الأطفال بأنه (مخاض من أجل شرق أوسط جديد) .. فقط أتساءل ماذا كانت كودية الزار (رايس) ستقول لو كان هؤلاء الأطفال المحترقون في قصور إسرائيليين .. مش كده مخاض يا ولية ؟ (سأحتوي على هذه اللغة السوقية)..

وبولتون (مندوب أمريكا في مجلس الأمن شبيه لأبيض المضحك) يقول إن ما فعله حزب الله بشع بل لا يمكن مقارنته بما فعلته إسرائيل في لبنان .. لقد خطف حزب الله جنديين كاملي التسليح وأرعب الإسرائيليين وحلب بهم . (خطفهم) .. هذه حركة شنعاء كما ترى لا تستوي مع تحريق بعض الأطفال العرب الذين لا قيمة لحياتهم .. والأرقام على كل حال تدل على تقييمهم للأمر .. خمسون إسرائيليًا مقابل أربعمائة عربي .. الإسرائيلي الواحد يساوي ثمانية من العرب وكانوا يقولون إنه يساوي عشرة

[illegible] shit [illegible]
[illegible] والإخلاص من أعماق قلبه . وهو [illegible]

سبحان الله ! شاهت الوجوه فعلا من لم يدرك أن يخضع قبح الوجوه وقبح الوجوه بهذا الشكل كلامك عن (الديموكراسي) يا مستر بوش لم يعد يخدع طفلاً عربيًا ..

لقد انتهت اللعبة ولم تعد هناك أية أوهام .. زال القناع عن وجه الأمريكي القبيح . وقد حرقت الولايات المتحدة أية جسور مستقبلية لها في العالم العربي حرقت أية مصداقية وكما قال أحد الإسرائيليين في جريدة هآرتز « لقد قضينا على آخر أمل لنا في الدوبان في المنطقة .. صرنا مجرد بلطجي شرس أحمق .. »

قوة الرد الإسرائيلي رفعت الكثير من اللوم عما قام به حسن نصر الله وأعطته شرعية لا بأس بها عندما يقذفك طفل بحجر فتقوم بحرقه بالكيروسين عندها لن يلوم أحد طفلا على قذفه الحجر سوف ينتهي اليوم عصيبًا و عندما تراجع النسبى في موقف مصر والسعودية والأردن بشاعة ما يحدث في لبنان حيث صار يوم الصحية مخاطرة غير محمودة العواقب

-4-

قلبي معك يا شيخ (حسن نصر الله) عيش ذلك الكابوس الذي صار متكررًا أن ينتهي كل شيء في ساعات وبلا سابق إنذار . وأن يذوب حزب الله ونرى الإسرائيليين يغلقون الجنوب اللبناني ، بينما يبحثون عنك ويرجحون أنك فررت إلى سوريا رأيت هذا المشهد في كابول وبغداد . فليس من حقك على العرب أن نشعر بنشوة النصر أو نشفى في أقوى جيش في المنطقة وهو مرتبك ممزق وكما قال د (جلال أمين) تتعمد الولايات المتحدة في تكتيكاتها أن تظهر بمظهر المتعثر الذي يلاقي مصاعب في البداية هذا يرفع توقعات الجماهير لدرجة عالية . من ثم تكون الصدمة مضاعفة لهذه التوقعات . ويكون الإحباط هائلا المطلوب أن يؤمن المواطن العربي أنه لا جدوى ، وأنه لا سبيل لهزيمة هؤلاء و حد فقط احتفظ بتفاؤله واحتفظ بعينيه بهدى هذا الواحد ليس مغرور واهم مثل صدام حسين . وليس بائع كلام مثل الظواهري

ندعو الله أن تكون مدركًا لما تفعله حقًا يا شيخ حسن . وأن تكون على قدر الحكمة وبعد النظر الذي يوحي به كلماتك وقسماتك لقد ... الله مكانًا عزيزًا في ... ومن العسير أن نصير هذا المكان خاويًا لا سمح الله .

أسعد أيام هدى

عظيمة هي قناة الجزيرة .. قد نختلف معها . وقد نراها متحيزة لجهات بعينها ومتجاهلة لأمور بعينها . وقد يتهمها البعض بالعمالة وهي التهمة الجاهزة لوصم كل من نختلف معه .. إن من يختلف معك فكريًا في العالم العربي هو على الأرجح ملحد أو عميل أو شاذ جنسيًا ، ولما كان من الصعب اتهام قناة كاملة بالشذوذ الجنسي تبقى تهمة العمالة .. (لم أصدق حتى سمعت بأذني أن هناك من يتهم منظمة حماس وحزب الله بالعمالة لإسرائيل ، ولا أعرف المنطق الموضوعي الذي قاد لهذه الاستنتاجات العبقرية)

أقول إن قناة الجزيرة فتحت نافذة وسط ستار التعتيم الإعلامي الكثيف ، ولولاها لما عرفنا عن الانتفاضة إلا أنها (اضطرابات في الأرض المحتلة) كما كانت وسائل إعلامنا ستصفها .. وعن طريق قناة الجزيرة رأينا (محمد الدرة) يصرخ متوسلاً للإسرائيليين كي يوقفوا الرصاص .. ورأينا ظهر جثة الرضيعة (عائلة حجو) الذي تحول إلى فجوة دامية كبيرة ، بينما حرصت (سي إن إن) وإعلامنا على إظهار الوجه فقط لأنه لا يعبر إلا عن سلام عميق لرضيعة نائمة . كل ما فعله الإسرائيليون هو أن ساعدوا الصغيرة كي تنام في سلام ..

هذا التفوق الذي حققته الجزيرة في فلسطين جعل نفسي كثيرة لعظماء وليد العمري وجيفارا البديري وشيرين أبو عاقلة ومن معهم من مخرجين ومصورين وفنيين ..

حظي الأسود جعلني أفتح قناة الجزيرة يوم الجمعة 9 يونيو لأرى هذا المشهد الرهيب .. الطفلة (هدى) تجري على رمال الشاطئ وتتعثر وتنهض ، وتصرخ في جنون وهستيريا : أبويا !

أبوها جثة مفتوحة العينين فوق الرمال ، بينما الفتاة تحتضنه .. لا تعرف سبب الذي جعله فجأة يرفض النطق وتلبية ندائها ربما للمرة الأولى .. تخون الكاميرا سريعًا ما تبقى من حياة هذه الأسرة .. ذهبت لقضاء يوم على شط البحر في غزة .. نعومة .. دلو الماء .. الحروف .. ثم أسرة هذه التي تحولت إلى عجين من اللحم المتفحم والدم .. لعومة والحروف سماء مدنية جدًا .. مساحة جدًا يصعب أن تلطخ بالدماء إلا في فيلم (الفلك المفترس) لكن إسرائيل فعلتها ..

ما حدث هو أن سفينة حربية إسرائيلية في عرض البحر قررت أن تمرح هذه الأسرة البريئة بطريقتها .. وكان البديع تجرى التحقيقات بتصور بين السفينة .. ما زالت هناك تراقب الموقف في استمتاع ووضح

إن مشاهد الموت في فلسطين صارت يومية منذ زمن بعيد ، لكن عندما يتعلق الأمر برحيل المقاومة وقياداتها فهؤلاء الأبطال اختاروا وتحملوا مسؤولية قرارهم .. وكل واحد منهم يتوقع اليوم الذي سيتحول فيه إلى أشلاء متفحمة لخروجهم من سيارة تصهر معدنها .. ما تلك الأسرة على الشاطئ فلم تفعل شيئًا على الإطلاق .. كل ما أرادوه هو يوم من المرح بين أمواج البحر .. فلا بد أن (هدى) الصغيرة صحت صباحًا منتظرة أسعد يوم في حياتها .. ذات المشهد يذكرني بمشهد رأيته منذ ثلاث سنوات لذلك الصغير الفلسطيني الذي جلس وحده جوار النافذة في غرفة نومه يعد لعبة ليعيد الضحى غد . فكانت رصاصة طائشة في رأسه من قناص إسرائيلي يهوى المزاح بدوره .. ظرفاء وأولاد حظ هؤلاء الإسرائيليين ..

أسوأ ما في الأمر أن هذه الحوادث صارت كثيرة إلى درجة أنها ...

بعضها وسيبت .. عندما تملأ جوالاً بالبيض المهشم فإنه يحطم بعضه فلا يبقى شيء ، وإسرائيل تهوى تكديس البيض بحق ..

من أعطى قائد السفينة الحربية هذا الحق ؟ إنه ليس رب العالمين عشيته كما يقول العظيم (أمل دنقل) .. من أعطاه الحق في أن يجعل حياة هذه الصغيرة إلى كوابيس ؟ من أعطاه الحق في أن تملأ حياتي أنا بالكوابيس ؟

ويخرج بيان الحكومة الأمريكية كما هي العادة .. هم فقط ينتقون في العبارات التي تثير غيظك : "وقال الناطق باسم الخارجية شون ماكورماك إن بلاده تشجع إسرائيل على التفكير في نتائج هذه الأعمال .."

يا سلام على التعبيرات العبقرية ! .. هذه أعمال أدبية وليست تصريحات سياسية .. لو احتضرت تشيكوف وكافكا وموم وماركيز وشكسبير لصاغوا جملة سخيفة تحسس دربها ولا تجرؤ على أن تقول أي شيء مثل (تشجع إسرائيل على التفكير في نتائج هذه الأعمال) لاعترفوا بأنهم معدومو الموهبة .. من قبل رأى (بوش) أن قصف غزة بطائرات الـ 16 (غير مفيد) .. دعك من التعبير العبقري الآخر : نحن نشعر بقلق .. [illegible] هم فلقين .. من كل هذا الحلم ومن هذا [illegible] [illegible] نطيح به كي نشفي من عادة [illegible]

[illegible] الانتخاب وتعتبر [illegible] بعملية [illegible] على [illegible] الكثير من الـ (واو) والـ (ياي) والـ (أوه) .. أي نفاق هذا ؟

السؤال الأهم هو متى يعتقد (عباس) أنه بفعله .. يخرج ليتهم عمل المقاومة بأنها حقيرة ، ويستجب قصف المدنيين الفلسطينيين بلغة عقلانية هادئة .. هو دوره بالضبط وهو عاجز عن حماية شعبه ، وعاجز عن الاحتجاج على ما يحدث لشعبه ؟

لابد من أن يدفع هؤلاء الثمن .. أما من يتكلم عن الواقعية والتحضر ويطلب للفلسطينيين أن يموتوا في أدب ورقي ، فليخرس من فضلك .. لا ثمن لهذا الدم لا الدم .. لا .. ليس الدم كافياً .. لو ماتت ألف إسرائيلي فلن يعوضوا (هدى) الصغيرة عن أبيها ، ولن يعوضوا أم (إيمان حجو) عن رضيعتها .. لكنه شيء ممكن لو كانت هناك عدالة حقة في هذا العالم

دماغي كده

في أحوالنا الجارية

عن أدب الرعب في بلد مرعوب

ليرحمه الله لأنه قد توفاه قطعًا عم (أبو اليزيد) البواب النوبي محرور طيب القلب . وعرفته بصفته العامرة بالبراغيث تحت سلم حضانة حديثة الأسرة) ، فقط وعداوته التي لا تتغير رغيف الخبز الأسمر والدخان الأسود المحتال الذي كنت أشعر دوما بأنه جزء من بشرته هو نفسه . أذكر بجلاء كيف أنقذ عم أبو اليزيد حياتي وحياة خمسة من زملاء الحضانة عندما حبسنا في غرفته في ذلك اليوم من صيف 1967 عندما جن جنون (عبد الناصر) فأرسل رجاله يسحبون الدم من بطون الأطفال . يومها جرى عم (أبو اليزيد) في غرفته ونظر حوله بحذر ثم قال ـ همس بلهجته النوبية الساحرة وبياض عينيه الأصفر يلمع

ـ « بي نعدي ساكته لاحسن عبد الناصر ياخد دم من بطنك »

وهكذا جلسنا صامتين في غرفته ونحن نتخيل ما يحدث للتعساء الذين يخرجون في الخارج بينما رجال عبد الناصر يقيدونهم ويدسون خراطيمهم في أحشائهم . وكنت الكثير من الدخان الأسود على سبيل ترجية الوقت ، وبعد ساعة رأيت أمي تركض إلى الحضانة لم تهدأ إلا بعد أن نظرت للمذعور منهك . عدت برحل الطب ... تم جمعي وراحت تعبر الشوارع خلفية حتى لا نقابل مصاصي الدماء الحكوميين . وفي الطريق إلى الدار رأيت النسوة يركضن في كل صوب ... وعمي وجوههن ذات التعبير ... على وجه أمي

شرحت لي أمي كيف أن هناك أزمة في الدماء بعد هزيمة جيشنا في سيناء ، وكيف أن عبد الناصر أصدر أوامره لرجاله أن يعبروا على المدارس ليسحبوا الدماء من بطون الأطفال .

فيما بعد عرفت أننا كنا في ذروة انعدام الوزن بعد ما فقدنا ثقتنا في النسر الأسطوري الجميل الذي جاء من أعماق التاريخ ليهزم الاستعمار ويوحد العرب .. وكنا على استعداد لتصديق أي شيء مهما كان سخيفاً .. إن هذه الإشاعة لا تصمد لأي تحليل منطقي .. فليس الأخطبوط بالمصدر الأفضل للدماء .. ولو كان هذا صحيحاً فالدماء لا توجد من البطون .. لكنها شائعة صممت ببراعة لتجمع بين بشاعة (دم يؤخذ من البطن) ولهيب المشاعر (لا أحد يطيق إيذاء الأطفال) .. شائعة صممت كي تحدث هياجاً شعبياً تصعب السيطرة عليه ..

كان هذا أول عهدي بالإشاعات .. وفيما بعد قرأت كتاب صلاح نصر عن حرب النفسية وسيكولوجية الإشاعة .. فوجدت أن هذه الإشاعة من أبرع ما تم تصميمه لبلد يهوى تصديق كل شيء ..

كتاب صلاح نصر نفسه كان مصدر رعب لا يوصف لي لأن السلطة غضبت على الرجل .. وصار من يقتني كتابه عميلاً أو على الأقل تقدير وغداً .. أبي لم يرد التخلص من هذا الكتاب الثمين لهذا أخفاه تحت الفراش .. وعشت عمراً أتوقع أن يقتحم رجال المباحث البيت ليخرجوا الكتاب من مكانه .. ثم يوقفونا صفاً إلى الحائط ويفرغوا فينا الرصاص ..

أعتقد أنك قد فهمت الآن موضوع المقال باختصار شديد .. طلب ساويرس عن مستقبل أدب الرعب في مصر .. فكنت أقول بثقة لا مستقبل له .. ليس الآن .. نحتاج إلى مائة عام على الأقل ودرجة معينة من الترف الفكري والاجتماعي والحضاري حتى نقرر أن نرعب أنفسنا بأنفسنا .. ليس هذا كلامي بل كلام عميد كتاب الرعب في القرن

العشرين هوارد لافكرافت .. يقول الرجل في مقال شهير جداً كتبه عام 1926 ويحمل اسم (الرعب الخوارقي في الأدب) : « يحتاج تذوق أدب الرعب إلى قدرة تخيلية عالية عند القارئ .. بالإضافة إلى قدرته على التجرد مما يحيط به من مؤثرات » .. كانت أمريكا مشغولة ببناء نفسها عندما كتب لافكرافت ، لهذا عاش الرجل حياة ضنكاً ومات فقيراً .. نفس الشيء ينطبق على ذكر الآن أو مواطنه الذي كان يغري القطط بالنوم على قدمي زوجته المريضة لتدفئتها .. إن محاولة قراءة لافكرافت وقت الظهيرة وسط زحام المواصلات تجعلك تعتقد أن هذا الرجل مخبول أو (رايق) لدرجة تثير الغيظ ..

لدينا نحن أدب الرعب سنظهر من مخاوفنا الخاصة .. إن تعيش القطع الحرب بشكل مصير لتزداد ثقة في بقدرتها على البقاء .. باختصار أدب الرعب هو بروفة موت دائمة...

لماذا يبحث المرء عن بروفة موت وهمية إذا كان فعلاً في بروفة موت واقعية دائمة ؟ .. ماذا عن محاولة عبور الشارع وسط الميكروباصات المحشوة بسائقيها (المستعجلين خطر) التي تحاول أن تدهس أكبر عدد من المارة ؟ .. ماذا عن الوثب من الأتوبيس ؟ .. ولو كنت تملك سيارة فماذا عن حمى المرور ومحاولتك ألا تنظر أكثر من اللازم إلى الخلف كي لا يموت الراكب .. ماذا عن شهادة المخالفات لو وجدت أن عليك ثلاثة آلاف جنيه بسبب استعمالك آلة التنبيه ؟ .. هل يمكن القيادة في مصر من دون آلة تنبيه ؟. كيف سمعوا آلة تنبيهك أصلاً وسط هذه الضوضاء ؟

ماذا عن فاتورة الكهرباء القادمة ؟ وماذا عن فاتورة الهاتف القادمة ؟ ماذا تفعله لو وجدت أنهم يطالبونك بخمسين ألفًا من الجنيهات لاستخدامك خدمة زيرو تسعمائة أو مكالمات موبايل لم تجرها ؟ هل تتركهم (يشيلوا العدة) ؟ وماذا عن إخطار جلسة المحكمة الذى لم تستلمه وقد يؤدى بك لدخول السجن دون أن تعرف السبب ؟

ثم ماذا عن أساسات العمارة التى دفعت دم قلبك للحصول على شقة فيها ؟ هل كان المقاول نصابًا ؟ هل تتحمل الزلزال القادم ؟ هل تسقط فجأة من دون زلزال لتجد نفسك فى الشارع تسأل أو تجد نفسك تحت الأنقاض وتطلع فى النشرة التاسعة ؟

وماذا عن مدخراتك لو كنت تملك شيئًا ؟ ما هو القرار الجديد لمجموعة الاقتصاديين الهواة الذين يجتمعون كل صباح باحثين عن وسيلة جديدة لخراب بيتك ؟ لقد صار كل جنيه فى جيبك ربع قرش خلال عامين فهل تتحول الأربعون قرشًا إلى نكلة ؟ ماذا عن راتبك ؟ هل ستظل تتقاضاه أم يقول لك عم جابر الصراف (اتكل على الله) يوم ما ؟ واللحم ؟ كيف يمكن أن تشترى اللحم يوم يصير ثمنه ستين جنيهًا ؟ وهذا سيحدث بدون واحد أحد لأنه ما من أحد يبالى بمصيبتك سواك

ماذا عن كوب الماء الذى تشربه والهواء الملوث الذى تتنفسه ؟ ماذا عن الفراخ المحشوة بالهرمونات ؟ هل لعبة الجينات تدور الآن فى كبدك لتكون تلك الخلية المحدقة الشقية التى تصر على ألا تموت ؟ هكذا يولد السرطان ببطء لكى تنقسم ... كل معارفك وجدوا ذلك الورم فى أكبادهم ويبدو أن من لا يجد سرطانًا فى كبده اليوم إنسان محظوظ فعلا

ماذا عن زوار الفجر ؟ وماذا عن صوت البوكس لو وقف تحت شرفتك فى الرابعة صباحًا وجاء (عادل بيه) يقول لزوجتك إنهم يريدونك لمدة نصف ساعة لا أكثر « مجرد إجراءات روتينية » ثم تذهب فلا يعرف ذلك الذباب الأزرق طريقًا ؟ ترى هل تتحمل التعليق على عروسة والفلكة ؟ يمكنك أن ترحم نفسك وتعترف ولكن بأى شىء بالضبط ؟

ماذا عن ابنك العائدة من المدرسة وقد بدأ الظلام يحل ؟ ماذا عن ابنك وتلك الشلة المريبة تحيط به ؟ كم من الوقت يلزم قبل أن يقدم له أحدهم أول جرعة من البرشام ؟ وامتحان الثانوية العامة هل هو من المنهج أم خارجه ؟ الامتحان من المنهج يبشر بتحويله إلى حمار ، والامتحان خارج المنهج يهدد بألا يجد كلية تقبله إلا (معهد الدراسات محلية التعاونية) وماذا عن جلوسه فى البيت بلا عمل بعد التخرج ؟ ينظر لك بعينين متهمتين يطالبك بعمل شىء مش خلفتونا ؟ يبقى تتصرفوا ...

ماذا عن أزمة المياه واتفاقيات حوض النيل ؟ ماذا عن قناة سويس سرابيل البديلة ؟ ماذا عن ثقب الأوزون والتسخين الحرارى ؟

الحقيقة أن الناس فى مصر محظوظون فهم ليسوا بحاجة إلى قراءة أدب الرعب لممارسة نزوة الموت ... إن الرعب ضيف دائم معهم خاصة أسوأ أنواعه الخوف من الغد وكلما أمعنت النظر فى المسألة ازداد اقتناعى بأن سيفى كبح (واحد قاصى) وأن لا فكر ... (...) ليرحمنا الله جميعًا .

المزيد من سيد حبارة

إنه (سيد حبارة) الاسم وهمي طبعًا لكنك سوف تعرفه بالتأكيد تراه في كل مكان. تعرفه من شاربه والنظرة الخبيثة على وجهه، والطاقية البيضاء التي لا يرفعها عن رأسه أبدًا لأنها (من الحجاز) تعرفه من الدراجة التي يصر على أن يركبها عكس اتجاه المرور. ينظر راكب السيارة لليسار متحينًا كل فرصة ليخطفها كي ينطلق وسط سيل السيارات المنهمر، عندما تحين الفرصة يثب بالسيارة. فيجد سيد حبارة مندفعًا كالسهم على دراجته قادمًا من اليمين، فيحاول أحد راكبي السيارات أن يدهس حبارة في هذه اللحظة. ولسوف تنهمر عليه قائمة فريدة من الشتائم تتعلق بنشاطات أمه الجنسية. إن حبارة يحمل حقدًا هائلًا نحو راكبي السيارات وفي أول ثورة أو انتفاضة أو شغب سوف يحرق سيارتين أو ثلاثًا قبل أن يعرف سبب الشغب ..

سوف تعرف حبارة وهو يركب دراجته في الأيام المطيرة وقد أدخل سروال البدلة في الجورب حتى لا يتسخ، وهو يطلق على هذا لفظ (التقفيز) وقد تعلمه من أيام الجيش، ويحمل في يده عصا (علية)؛ لا تعرف الغرض منها لكنه مصر على حملها. يلبس كل ثيابه ويلف حول عنقه كوفية صوفية كاملة في سبتمبر لأنه يؤمن أن البرد هو منبع كل الأمراض ولسبب ما يصر على أن يلبس بدلة كاملة في أيام المطر هذه. سوف تتطاير عليه بعض الوحل من سيارة تمر بجواره. فيتوقف على الفور ويطلق سبة بذيئة ويلتقط قالب طوب من على الأرض ليقذفه في الزجاج الخلفي للسيارة. من أهم مزايا (سيد حبارة) أنه لا يملك نفسه ساعة الغضب ولا تهمه العواقب ما دام سيفش غله حالًا.

(حبارة) عامل في مصنع أو موظف في إدارة حكومية ما، وهو لا تدري أي عمل تقريبًا سوى نقل القيل والقال وكيف أن (الملاحظ المفتش رئيس القلم) رجل مسخرة ديوث تلعب به زوجته كما تشاء. يتبادل الدعابات الجنسية مع زملائه خصوصًا ما يتعلق منها بليلة الخميس والكوارع وضعف [illegible] والخميري. يرى جريدة مع واحد من رفاقه فيلقي لها نظرة (إنه لا يقرأ) ويقول: «بلد بايظة» هكذا بلا أية تفسيرات. هنا يطلب منهم رئيسهم مهمة ما فيثور ويختلق مشكلة ويقف ساعات صائحًا: مش منفذ .. لو الوزير نفسه جه دلوقتي مش منفذ

تنتهي هذه الضوضاء عند أول شخطة حقيقية من (الملاحظ المفتش رئيس القلم)، فيصمت لكن حقده يتزايد ومعه يؤلف المزيد من الحكايات البذيئة عن المفتش ذي الميول الشاذة جنسيًا أو الملحد.

إنه مظلوم دائمًا في نظر نفسه .. غير قادر على الحياة لكنه غير قادر كذلك على الاحتجاج.

(سيد حبارة) قد يبدو كل العصور في مصر لكنه يكره الحكام كراهية عمياء .. لا يوجد تناقض هنا .. إنه يكره عبد الناصر بشدة لسبب لا يذكره لكنه يرى صورته في فيلم أو مسلسل فيصفق له بحماس .. كان يكره السادات ثم مر موكب السادات أمامه فوجد نفسه يصرخ هاتفًا: بالروح .. بالدم .. نفديك يا سادات ..

منذ أعوام طويلة جاءت مذيعة التليفزيون تسأله عن الشيء الذي لا يروق له في برامج التليفزيون. فقال العبارة التي أعدها وحفظها وسمعها لنفسه عدة مرات: التليفزيون مش بيقدم وعي أسري كي .. عبارة لا يفهمها لكنه يحفظها ويشعر بأنها عميقة.

بعد أعوام قابلته مذيعة أخرى وسألته عما لا يروق له فقال: في حماس واللعاب يتطاير من فمه: التغريبون ما قدمش حاجة تناسب 6 أكتوبر

بعد عام جاءت مذيعة أخرى تسأله عن رأيه فقال: التلفزيون بيقدم مناظر عريانة .

برغم هذا هو لا يفوت منظرا واحدا من تلك المناظر على الفضائيات التي تأتيه بـ (الوصلة) ، يتابع المنظر بعين جاحظة حمراء ، يوشك على الخروج من محجره . وهذه الشهوة تتحول إلى حقد واحتقار يتخذ طابع الورع المتشدد المتعصب . هو يشتهي الفاتنات جدا إلى درجة المقت وهو يسمى بالفعل [illegible] يتعصب ويغرق [illegible] وأسعد لحظة في حياته هي عندما يسمع عن القبض على واحدة منهن في قضية آداب . هؤلاء القوم يملكون الثروة والجمال ولكنهم يفتقرون إلى الدين والأخلاق ويعيشون كالخنازير [illegible] يفتقرون إلى [illegible] . نحن أفضل منهم .. »

من الناحية الدينية ، سيد جبارة ، لا يمارس الشعائر [illegible] . لكنه مستعد لأن يتحول إلى أسد مفترس ويفترس أي واحد لو سمع مثلا أن أقراص لعبة (بوكيمون) مكتوب عند حرقها عبارة (سيدنا [illegible] لا) أو أن عبارة (كوكا كولا) لو رأيتها في المرآة تكتب [illegible] تماثلا [illegible] متعصب بلا حدود يعتبر التعصب من شروط التدين الصحيح . وهو غير مستعد البتة لقبول الآخر . مستعد لتصديق أي شيء يسمعه رسم الكاريكاتور الدانمركي الذي أهان الإسلام وحدوه [illegible] المصعقة السيراي الذي يرسم شكل الصليب على ثياب المنقبات [illegible] يتعصب

بلا حدود من دون أن يفعل شيئا واحدا يثبت به أنه مسلم فعلا كما أراد له الرسول (ﷺ) . لهذا من السهل جدا أن تحشد سيد جبارة في أية مظاهرة بشرط أن يكون لها سبب ديني ..

كنت أكلم صديقي عن مستقبل التفاعلات الدولية في مصر . ثم توقف وقد أفزعته فكرة أن المجتمع سوف يشبه المهندس الصيني (ونج هاو تشين) أو الألماني (فرانس هوفمان) و الروسي (ميخائيل سولوفيتش) ، لكن حركات السلامة في النهاية سوف تقع على عاتق سيد جبارة ! تمكنت تخيل منظر [illegible] على الانتحار . [illegible] سيد جبارة ، يؤكد أنه سلم [illegible] دفتر 118 ليس معه ، وأن المفتاح مع الونتجي [illegible] . وأن الملاحظ خصم له ثلاثة أيام دون وجه حق [illegible]

في كل الاستفتاءات والانتخابات يعتبر سيد جبارة مخزونا [illegible] للحكومة . حتى من دون تزوير أو تلاعب في أوراق التصويت . يصدر (الملاحظ المفتش رئيس القلم) أمر للعاملين بالتوجه إلى [illegible] . ويتم شحن (جبارة) هو ورفاقه من [illegible] جبارة ، في أتوبيسات إلى لجان الانتخاب وهم يهتفون مؤيدين شيئا ما . ثم ينزلون إلى اللجان يصوتون بـ (نعم) ويرفعون عريضة مكتوبة [illegible] تؤيد أي شيء حتى لو كان قانونا [illegible] أو منع دخول دورة المياه [illegible] طهيرة يطير فرحا [illegible] الكيس [illegible] يحتوى [illegible] عصير [illegible] ، سيد جبارة لعب دورا مهما في التصويت على التعديل الدستوري الأخير ، ونحن نعرف ما سيحدث [illegible] يوم التصويت على توريث القادم . سوف تخرج عشرات الأتوبيسات [illegible]

والمتابعة والموافقة .. الكثير من الهتاف .. عريضة بالدم تبايع الابن على طريق الأب .. وهكذا نفيق لنجد أن أسوأ كوابيسك قد تحقق وأن هناك إجماعًا سخيفًا لدى الشعب المصري على التوريث .. لا يوجد تزوير هنا .. سيد حجارة هو من قال نعم..

هذا ما يقدر على عمله (سيد حجارة) .. إنه بات كبيرًا أكثر تأثيرًا وأعلى صوتًا مما يقدر على عمله عشرون ألف متظاهر يقفون هاتفين على سلالم نقابة الصحفيين، بينما يحيط بهم ثلاثون عربة بوكس خضراء..

الآن هل تعرف من هو (سيد حجارة)؟ .. (سيد حجارة) هو المصري العادي الذي يملأ الشوارع .. من قال إن الإنسان المصري ما زال كما كان؟ لقد تغير كثيرًا جدًا .. إنه نتيجة بائسة لسنوات من القهر والجهل والتخلف، لكنه برغم هذا أقوى حزب يحكم مصر ويمكنه بالتأكيد أن يحدد مصير هذا البلد للأعوام القادمة .. لقد صنعته حكومات متعاقبة وظروف اقتصادية وسياسية تفوق الوصف، لكن (سيد حجارة) هو من يفرز الحكومات لأن الشعب يستحق الحكومة التي تحكمه .. وهكذا دائرة شيطانية لا تنتهي .. المزيد من سيد حجارة .. المزيد من الفساد .. المزيد من الحكومات الفاسدة .. المزيد من سيد حجارة .. وهكذا

من يقدر على كسر هذه الدائرة؟ .. ليس أنا بالتأكيد .. لا تنس أنني مواطن مصري وبالتأكيد أحمل الكثير من (سيد حجارة) في أعماقي .. إن لم أكن أنا هو فعلاً، حتى لو كنت لا أركب الدراجة ولا أضع طاقية بيضاء على رأسي!

شباب عاوز الحرق !

ثمة إجماع في وسائل الإعلام والأعمدة الصحفية على أننا رزقنا من دون الأمم بأبلى جيل من الشباب الرقيع المنحل الشهواني التافه (شباب عاوز الحرق) باختصار شديد .. نحن وكل جيلنا سلبنا الشباب أحلامه، واحتللنا المناصب التي يمكن أن يطمح إليها، وحرمناه أبسط الحقوق التي يمارسها أي فرد في رفق العمل والزواج، وأعطيناه سفينة غارقة نخرها الإهمال واللصوص ونهب كل لوح خشب وكل مسمار فيها. وقلنا له إن عليه أن يتولى الإبحار بها بعدنا .. وينظر الشاب إلى البحر الذي يعج بالأساطيل وحاملات الطائرات التي صنعها الآخرون، فيتساءل: ماذا كنتم تفعلون طيلة هذا الوقت حينما كانت سفينة لكم؟ فنقول له: أنت شاب شهواني قليل الأدب .. وربما سافل كذلك .. مشكلتك هي أنك كسول تريد كل شيء بلا تعب ..

نعم .. وسائل الإعلام تنظر بريبة واضحة إلى هؤلاء الأوغاد بشواربهم النصف النامية والحبوب في وجوههم وأصواتهم الخشنة .. وهي تتظاهر بحبهم وتقدم لهم الكثير من (نانسي عجرم) و(البمب)، لأنهم ما زالوا الوسط الاستهلاكي الأفضل .. لكنها تعتقد في قرارة نفسها أنهم خطر أمني داهم، وأنهم يدارون ذيولهم في سراويلهم ..

المشكلة فعلاً أن الشباب لم يعد على ما يرام .. هذه الطاقة الكاسحة المعطلة التي حرمت الأمل والمشروع القومي المشترك تزداد خطرًا يومًا بعد يوم، والفراغ يهدد كل شيء وكل بيت .. لاحظ انتشار الكافيتريات وملاعب البلياردو ومقاهي السايبر .. باختصار ثقافة البطالة .. لاحظ عدد

التطرف الديني الذي تزامن مع غياب المشروع القومي والأمل في الغد ولغة (الروشنة) التي يستعملها الشباب تحوى في 90٪ من كلماتها معاني الاستهتار والتحدي .. دعك من الوقاحة التي يشكو منها كل مدرس .. يحكي الدكتور (جلال أمين) لعالم الوقور عظيم الشأن عن شاب من هؤلاء دنا من سيارته وهو جالس فيها ينتظر زوجته ، فاستند على النافذة بجواره ، وراح يثني مرآة سيارته ويفتحها بلا توقف وبلا هدف واضح وعلى سبيل التحدي فقط ، بينما ظل الأستاذ الكبير جالسًا في السيارة صامتًا يراقب هذا السلوك غير المفهوم..

لكننا نحن مسئولون بالكامل عن خلق هذا الوحش .. وكما يقول الشاعر العربي :

إنا بأيدينا جرحنا قلبنا .. وبنا إلينا جاءت الآلام

قرأت لأحد الصحفيين الكبار (الملاصقة) ولن أذكر اسمه ، لأن بلاط السجن سيكون باردًا جدًا في هذه الفترة من السنة .. أنه كان في رحلة مع مجموعة من الشباب حين سمعهم يغنون : الأقصر بلدنا بلد سواح فيها الأجانب تتسوح .. وكل عام وقت أفواج .. نشقى مشتاقة تروح ونسيب بلدنا !

يتساءل الأستاذ العبقري : أين ذهب الانتماء لدى جيل الشباب ؟ ذهب يا سيدي للعاصي بسببك وبسبب أمثالك ، الذين أيدتم كل نظام حكم وكل سياسة ، وعشتم جاهدين من أجل الوصول إلى الثراء والصعود صاعدين سلمًا من أجساد الشباب المطحون .. في عصر كانت الصحف المصرية ترسم فيه الزعماء العرب جالسين على (قصرية) الأطفال ، وفي

عصر كان يعلن فيه في الصحف عن زيادة الأسعار فتكتب مقالاً كاملاً تؤيد فيه هذه الخطوة المدركة التي تأخرت كثيرًا ، وحينما يضع السادات كل قوى مصر السياسية في السجن تكتب مباركا (ثورة سبتمبر) هذه

يؤمن الشباب بعبد الناصر فيخرج أمثالك بكتاب يلعن عبد الناصر .. يحن الشباب إلى سعد زغلول فتمزقون سعد زغلول .. كل المجرمات يوليو تحولونها إلى كوارث يوليو .. تهللون للاشتراكية في عهد عبد الناصر ثم تلعنونها في عهد السادات .. وتلعنون أمريكا في عهد عبد الناصر وتكتشفون أنها الشريك الكامل الأمين في عهد السادات .. ولولا بعض الحياء والخشية من النظام الحالي الذي يستمد شرعيته من أكتوبر لشككتم في حرب أكتوبر نفسها .. « المصريون لم يعبروا القناة في أكتوبر .. القناة هي التي تحركت إلى الغرب بضعة كيلومترات »

في إحدى فترات الخلاف العابرة مع أمريكا قرأت مؤخرًا لصحفي كبير جدًا يقول : "علينا أن نشفى من خرافة أن 99٪ من أوراق الحل في يد أمريكا" .. والحقيقة أنك يا سيدي كتبت هذه الخرافة مرارًا من قبل خاصة في عهد السادات .. من حسن حظ الشباب أنه لم يقرأ مقالاتك القديمة تلك وإلا جن بالتأكيد ..

تخرج وسائل الإعلام لتلقى الشباب ومعها المذيعة التي سكبت زجاجة الكبريت كاملة على شعرها ووضعت طنًا من المساحيق كأنها إحدى بطلات مسرح الكابوكي الياباني .. تسأل الشاب عن اسم وزير (التوابع المصدقة) ووزير (المعونة الإعلامي) فيخطئ ، فلا عن أمثاله عيبة بكلمة .. من ثم تخرج الصحف صارخة .. شباب تافه شبوبي رقيع ، ليت الشباب يهتم بعقله كما يهتم بالدهان الذي يسكبه على شعره

الحقيقة ان الإجابة عن هذا تكمن في كلمات (اورويل) في روايته رائعه 1984 عندما دبت مشاده بين البطل وحبيبته حول (هل كان الحزب في حرب مع أيستاسيا اولا ام كان في حرب مع إيوراسيا ؟) يقول (اورويل) إن الفتاة لم تكترث بهذا على الإطلاق لأنها لا ترى فارقًا بين هراء وهراء آخر ..

الشاب لم يختر وربر لنعود الاعلامي لتخطيطي) ولم يسمع عنه من قبل ، ويوم يرحل هذا لوربر فلن يعرف احد السبب ادن ما جدوى معرفه اسمه ؟ (لا فرق بين هراء وهراء اخر) سمحوا للشاب ان يختار وربر (التعود الاعلامي التخطيطي) ثم طالبوه بان يعرف اسمه ، وانصبوا له المشانق لو لم يعرفه ..

نفس الشيء ينطبق على الأسئلة من طراز (متى مات بيلاطس البنطي ؟) (ما طول نهر المسيسبي ؟) من موقف كتب تثقيف الشعوب في تقنية الحاسوب ؟ السيدة مذيعة لو استرعوا منها البطاقة الأبيضة لن تعرف الاجابة و السيد لعد لا يعرف الاجابة . و انا لا اعرف الاجابة . وليس مما يفيد الإنسان المعاصر ان يعرف طول نهر المسيسبي ما دامت هذه المعلومات موجودة في اية دائرة معارف إنها ثقافة الكلمات المتقاطعة ، التي يصرون على أنها هي الثقافة ولا شيء سواها بينما الثقافة هي ان تستخدم ما تعرف في تكوين مفهوم متكامل للعالم من حولك وكيفية التفاعل معه ..

لكن وسائل الإعلام لا ترضى بهذا هي لا تريد إلا ان ترى الدماء تسيل وتلطخ كل شيء بهذا تطالب براس الشاب المائلة بسبب اسم

جرائمه لراغب علامة أو عيد ميلاد روبى هي بالفعل معلومات تبدو مهمة للشباب على الأقل هو لا يزعم على معرفتها ، وتمس حياته ورغباته بشكل واضح ولا تتعالى عليه و بعده مما لا يمكن تحقيقه ولا يهدم ما آمن به من قبل بلا مبرر والاهم انها لا تسد عليه طريق الرقي والسمو في الحياة باختصار روبى ، تبدو هي الشيء الوحيد الحقيقي وسط كل هذه الأوهام وكل هذا الكذب .

الشباب ليس مجموعة من الملائكة ، لكنهم ليسوا شياطين سوف يصيرون كذلك لو لم نفق من غيبوبتنا ، ونحن لسنا ملائكة ولا شياطين نحن ملاحون خاسرون غرقت سفينتهم او كادت وعلينا أن نترك قطعة خشب واحدة طافية ليتمسك بها من يأتون بعدنا .

البرتقالة الميكانيكية في مصر

من أين جاءوا ؟.. إلى أين يذهبون ؟.. ومتى ؟

في العام 1962 كتب أنطوني بيرجس روايته الشهيرة (البرتقالة الميكانيكية) و (برتقالة بعقب ساعة) التي تحولت فيما بعد إلى فيلم رائع رهيب لستانلي كوبريك ، ظل ممنوعًا من العرض أعوامًا طويلة في عدة بلدان غربية (حتى جريدة هنا لها سقف مهم رغم أن [illegible])

تتحدث القصة عن مستقبل كابوسي تحت حكم البلاد فيه سلطة شمولية لا يهمها كثيرًا أمن الشوارع لدرجة يهمهم بالأمن السياسي . من ثم تصير الشوارع مملكة عصابات الشباب التي تحولها خرابة كاملة تضرب الناس وتغتصب النساء وتسرق المتاجر بينما يعتق الكبار أبوابهم على أنفسهم خائفين ويتظاهرون بأن كل شيء على ما يرام .

للشباب لغة خاصة ذات جذور عدة من الكوكني ولغة الغجر واللغة الروسية ، ويسمى ذلك (الندسات) . مثلًا الاغتصاب اسمه عندهم هو (حوه بره حوه بره) . أليكس بطل القصة شاب من هذه العصابات مهمته في كل ليلة أن يجوب الشوارع مع عصابته ويقوم بسباقات ليلية بالسيارة ، ويغتصب أية فتاة يقابلها .

يتورط أليكس في عملية هجوم على بيت مؤلف ، ويقوم مع رفاقه بالتناوب على اغتصاب زوجة الرجل أمام عينيه (من أجل بعض المرح) ، ثم يتورط في جريمة قتل لامرأة تعيش وحدها . هذا يدفع به إلى السجن وهناك يقضي الوقت في قراءة قصص المذابح والاغتصاب في التوراة شاعرًا بأنها كانت أيامًا مجيدة . كان عليه أن يوجد في تلك العصور ،

لكن الحكومة لأغراض سياسية تتبنى علاجًا خاصًا لحالات العنف لدى الشباب تطبق فيه نظام التغذية الرجعية السلبية . يهدف هذا العلاج إلى إحداث ارتباط شرطي بين العنف والقيء . هكذا يختارون أليكس باعتباره نموذجًا فريدًا يعتقدون أن يتحكم في شهوتي الجنس والعنف . يرغمونه لعدة أيام على مشاهدة أفلام عنف وأفلام جنسية (حوه بره حوه بره) بلا انقطاع وهو مقيد في مقعده . مع تثبيت جفني عينيه حتى لا يغمضهما . مع حقن تسبب له الغثيان والدوار . النتيجة هي أن أليكس يتحول إلى كتكوت وديع لا يتحمل أي نوع من العنف . وبدرجة تعق حذاء من يهينه أو يضربه . يخرج للعالم الخارجي على أساس أن الحكومة نجحت في سعيها ، لكنه يكتشف أنه لا مكان له في هذا العالم على الإطلاق حتى الكاتب الذي اغتصب زوجته وحده وكاد يفتك به . إنه برتقالة ميكانيكية تبدو طبيعية من الخارج لكنها مكبلة بنظام تروس صارم من الداخل . ولا جدوى منه على الإطلاق ..

هذه هي رسالة الرواية الحسنة التي يمكن أن نلخصها كما يلي : لا يجوز أن نهذب الإنسان أكثر من اللازم فهذا يفقده آدميته . إن كان الإنسان في صورته الشريرة أفضل .

[illegible]

بسهولة أن تعرف أن أيا واحد من هؤلاء [illegible]

وقد تضاءل مفهوم الأبوة عنده إلى مفهوم [illegible]

بكثرة وإخلاص حتى يعوض الابن عن عدم وجوده. بدلا من الحب اعطه مالا. بدلا من التربية الصارمة أعطه مالا. بدلاً من التدين اعطه مالا.
النوع الثاني من الآباء هم (مراد بيه) وأمثاله. مراد بيه الذي يشغل منصبًا مهمًا. وقد علم ابنه أن احترام الآخرين ضعف، وأن قلة الأدب هي الطريقة الوحيدة للحصول على الاحترام الاجتماعي. الفيلية هي كل شيء فنحن سادة بني مخزوم ونشرب إن وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرًا وطينا. هناك نمط ثالث من هؤلاء الشباب هو من فقد الأمل في الغد وقرر أن يطلق لشهواته العنان.

حتى صوت الشباب تغير فصاروا يتكلمون بطريقة التطجين المطحية الشهيرة. ومزحهم عبارة عن دعابة واحدة تتكرر بلا توقف هي تهديم الآخر المعهر. يبدو أن هذا طريف جدًا لأنهم يقهقهون مع كل سبة، مع ذلك الصوت سكندري خلقي الدال على الاحتجاج واختصار وجودهم صفعة على وجهك وإهانة للحضارة البشرية حتى لو لم يفعلوا شيئا. مجرد مشيتك في الشارع مع زوجتك أصبحت صارت نوعا من البهدلة.

في مراهقتي كان هذا النشاط غير مستحب ويعرضك للخطر. لأن شرطة الآداب كانت موجودة فعلا، ومن الممكن في أية لحظة أن يمسك بك رجلان صحح الجثة يدفعانك إلى البوكس. وفي يوم السبت كان بعض زملائي في المدرسة الثانوية يجيئون للمدرسة وشعورهم حليقة (زيرو) فنعرف على الفور أنهم كانوا يعكسون البنات ليلة الخميس، فأمضوا باقي الليلة في التخشيبة. أين ذهبت شرطة الآداب في الشوارع؟ أم

أن الآداب تحسنت فلم يعد لهذا الجهاز لزوم. أو أن بيوت الدعارة تكاثرت حتى لم يعد لدى رجال الشرطة وقت لحملات الشارع.

إن أية محاولة قام بها أب غيور أو أخ غاضب أو زوج ثائر لإبلاغ الشرطة باءت بالفشل، لأن الشرطة لم يعد لديها وقت لهذا الكلام الفارغ. ولأن واحدا من أقرب الفتية هو (مراد بيه) الذي نهى القضية في ثوان. أحد رفاقي اتصل بالشرطة بلا جدوى عدة مرات من أجل تجمع شبابي يقف تحت نافذة بناته المراهقات، بحيث تسمع شتائم الأم والأب. إن عرفه يوم السبت مباشرة. نصحه ذوو الخبرة أن يتصل بالشرطة ليبلغهم أن مجموعة من الشباب الملتحي تقف تحت نافذته مرددة « إسلامية إسلامية ». لو فعلها لامتلأ الشارع بعربات ومدرعات الأمن المركزي خلال دقائق، ولحلقت طائرات الهليكوبتر، ولما رأى أحدا من هؤلاء الشباب النور ثانية. لكنه لم يجرؤ على عمل ذلك طبعا.

عندما نشر هذا المقال سيكون عام قد مر على مظاهرات الشبق، التي اجتاحت شارع طلعت حرب في العيد. ولتي تضاربت بصددها الأقوال. لكننا على الأقل نعرف أن مجموعات من الشباب إياها حين تلاحق أية فتاة حتى درجة [illegible] وعرق [illegible] هذا طبيعي؟

هل هذا سلوك معتاد ؟

حقيقة أن حرارة [illegible] ... [illegible] أسود قادم يبدو لدى الشباب [illegible] ... [illegible] الشوارع يهرب من سيطرة [illegible] ... سيطر على كل [illegible] منظومة البطالة .. منظومة انعدام القيم، [illegible]

منظومة اليأس من الغد ومن التغيير ، منظومة التوتر ، منظومة ارتفاع سن الزواج أو استحالته ، منظومة عدم الثقة في الكبار بعد كل ما قالوه وكل ما كذبوا فيه ، منظومة الزحام وضياع الفرص لأن الآخرين سبقوك كلها تجتمع لتفرز لنا هذه الصورة المرعبة .

والحلول ؟ هناك حل سهل هو فرق الإعدام التي تجوب الشوارع لتطلق الرصاص عشوائيًا على أي تجمع شبابي ... البرازيل فعلتها مع أطفال الشوارع ... لكن سنفعلها مع شباب الضياع ، إلا أنه حل غير عملي ، ومن يروق للأباء ... الإخصاء الجبري كذلك ليس حلاً لأن الجنس ليس هو سبب المشكلة الوحيد ... دعك من أن الهرمونات ستظل تؤدي عملها ... دن نطل ... الحل الوحيد الممكن هو أن تفعل الدولة ما يجب على الدول أن تفعله ... تحارب البطالة ، تتحمس لهؤلاء ... تحترم القانون وتنفذه مع الجميع ودون استثناء أي من أفراده ... هناك الحل الذي اقترحته رؤية د البرنامه ميكانيكية ... لكن لا أعتقد أن أحدًا سيرحب بأن يتحول شباب إلى برنامج ميكانيكي يعلق أحديه من ... يروق هذا للبعض في الحكومة لكن ... حقيقة ... حل ممكن ... الكلس ولدت ... قادمون ... فهلا بدأنا ... ذلك ؟

تدين وروشنة وسيارات مرسيدس ! أحمدك يا رب !!

التغيرات الاجتماعية التي تراها مصر في الآونة الأخيرة عاصفة وعاتية ومن المحتم أن تلد شيئًا ما ... هناك أشياء لم يكن أحد يجسر على التفكير فيها منذ خمسة أو ستة أعوام ، واليوم صار الكلام عنها مملاً ... الأمثلة كثيرة ويصعب حصرها ، لكن العقل يستحضر من على السطح البرنامج التلفزيوني المذاع على الهواء الذي يتشاجر فيه أبو الفتوح ... مع أبي ... سدى عرض به ، ولا هدف للبرنامج إلا تقديم نوع مسلٍ من مصارعة الديوك للمشاهدين أثناء تناول العشاء ... المعارك الطائفية تبرز للسطح بوضوح تام ، ويتم تداولها بلا همس ، ويقول أتباع كل دين عن الآخر ما لم نتصوره إلا في كوابيسنا ... النقد الصريح جدًا الموجه للحكم ... دون أن يدل هذا على مكسب حقيقي في الحريات ... بل إن الحكومة استغلت هذه الحرية كبعدة بصحتها ، ووضعت المعارضة في خانة معدة لها سلفًا ... أيها العالم ... كيف لا أكون ديمقراطيًا وهم يشتمونني بهذه الجرأة دون أن أسحقهم في الشوارع ؟) ... والمعارضة متحمسة لا تعرف أنها تلعب دورًا رسم لها من قبل إلا وهو تجميل النظام ... وحقيقة كما يقول د ... جلال أمين ... إن هذا التسامح يمكن أن ينقلب على ... لو عبث بواحد من مقدسات الحكومة الحقيقية مثل (تكوير ... وتصدير الغاز لإسرائيل ، ... دعوت إلى عصيان مدني وهو الحل الوحيد الممكن لإسقاط النظام ... عندها سنرى أنياب الدولة الحقيقية

واحدة تلو الأخرى يتهاوى أحد المحرمات السابقة ... المحمدي في مقال له بالدستور : « عندما يلتقي ... وقف ... خلق

وهو تسلل فوته يخترق أثمن من المقدسات .. الأغاني الوطنية وأم كلثوم التي اعتدنا أن نعتبرها مصر بشكل ما .. »

لكن التغيير الذي وجدته فاحشًا ويهدم الكثير من المسلمات عندي هو هذا (الفُجر) بضم الفاء الذي تتعامل به الإعلانات التلفزيونية هذا العام ..

في دراسة ممتعة في (الإيكونوميست) قرأت عن تجربة قام بها أحد أساتذة سيكولوجية الإعلان .. يرى أن هناك طريقتين للإقناع : الطريقة الأولى التي تقوم على ترغيبك في السلعة . والطريقة الثانية التي تقوم على إزالة مقاومتك .. الأغرب منهم حدثًا للطريقة الثانية .. دفعت من التظاهر بالدقة .. عندما أرسل هذا العالم تلامذته يسألون خمسة دولارات لم ينل أحدهم شيئًا .. بينما عندما سألوا سبعة دولارات ونصف حصلوا عليها .. إن مبلغ سبعة دولارات ونصف معقد لا يسمح بالتفكير ويزيل بالتالي مقاومتك غير الشعورية .. هذا يفسر الـ 1999 الشهيرة في أسعار السلع . ويبدو أن سيكولوجية الإعلان عندنا تعتمد على الطريقة الثانية لكنها كي تهدم مقاومتك تحاول تسفيه ما كنت تؤمن به من قبل .. أنت كنت مخدوعًا واهمًا . فلتفق وتشتري سلعتنا

منذ زمن بعيد وقيمة الكفاح والعمل معنى مقدس لا يمكن المساس به .. لكن الإعلانات التلفزيونية اخترقت هذا التابو بسخرية [illegible] كفاح في تعمير الصحراء عشرين سنة حتى صار شعره [illegible] [illegible] الروش [illegible] الناس برغم [illegible] من (1900) وحتى [illegible]

هكذا في ثوان سخر الإعلان من قيم الكفاح ومن تعمير الصحراء ومن كل شيء .. لم تعد هناك قيمة في العالم إلا الروشنة والاتصالات

بدأ الأمر على استحياء مع بداية الانفتاح في أوائل الثمانينيات ، عندما سمح التلفزيون لظاهرة شعبية بأن تظهر على شاشته .. كانت ظاهرة تردد من حناجر تحت بالهدف .. مش عدورة سؤال طبعا ميرال .. هؤلاء ناس حملوا قلوبهم على يديهم وودعوا أطفالهم من أجل القضية الوحيدة التي تهم ومن أجلها نضحي بكل مرتخص وغال [illegible]

بعدها رأيت مع هشام سليم كيف أن شرائح البطاطس المقلية هي العامل الوحيد الذي يجمع طبقات الشعب وكل فئاته .. وظهر أحمد السقا الذي يضغط عليه الإرهابيون ويعذبونه وهو مربوط في قبو مخيف ، لكنه مصر على الهدف من أجل قضيته .. حاجة ساقعة بيبسي .. ويوشك أن يقول والله لأموتن عليها ..

الفتى (الروش) يعاني من أن أباه في العيادة طول اليوم لا يفعل شيئًا إلا أن يعد المال .. لكن أنا (مكبر دماغي وبشرب مش عارف إيه كده)

حتى طريقة نطق الحروف السريعة نفسها توحي بالاستهتار .. هناك مذيع إعلانات لا أعرف اسمه لكنه دخل هذا المجال مع ظاهرة (طارق نور) في بدايات الانفتاح . ويوشك أن يكون المذيع الأوحد الآن .. هو الذي نسمع صوته يقول (أمير كرة) في البرنامج الشهير .. هذا الصوت الرفيع السهير دائمًا يعبر أصدق تعبير عن السعار الاستهلاكي الذي أدخلنا فيه السادات ، فلو كان لهذا السعار صوت لكان صوته .. الحق نفسك .. وفر فلوسك .. اتسف .. [illegible]

المحل الثاني الذي حرقت فيه الإعلانات الدنيا هو محل البن .. هذه ظاهرة ذكية أخرى تستغل (إيدن الروشنة) تلك الظاهرة الجديدة التي تغزو أوساط الشباب .. الشباب الثري أو المستريح يشعر بتأنيب الضمير بين دنيا مغرية ودين يندسه فيتخذ هذا الحل الوسط .. اللحية لابتة القصيرة والبدلة السوداء والعطر الفاخر والموبايل مع التدين .. هكذا يشعر أنه جمع بين الدنيا والدين . وهذه الظاهرة هي التي أفرزت الحجاب الذي يلبس على الجينز و شباب الصيغة مع ماكياج كامل يدعدغ في الرحل الشرقي ذكريات عصر الحريم .. فقط ليس هناك نصيحة في عين من عدو على أن تطلبها بالحجاب الصحيح .. ونوسه تخذ بها مكانا محجوزا في الجنة فسوف تدهش كثيرا من الفصل ما قرأته هذه الظاهرة على كل حال ذلك الشاب عمرو خالد الذي هو صورة ابنة معاصرة لهذه .. والذي تسمح للشباب محاضراته وتبيعونها عبر شبكة الإنترنت .. ثم ترجم الإعلانات ظاهرة التدين هذه وقررت بها معتقدة حد بعد سهى عصر صوت محمد متولي .. وفور استهلاك الذي تغذيه وهذه جزء عشرة جنيهات .. بالمرة لأول تسمع عن جنح خمس جنوه وعن تدين موبايلات .. هناك إعلان جديد تسمع فيه .. خيبة .. من مونس فركوف بعد الاسكواش .. شاب .. متدين معتد .. وهكذا نصل .. شو .. حتى .. جديدة و .. مكن كي تعم .. لأنك ومستقل .. في .. مصر

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
وأجرى أول اتصال برقم (0900) اللعين !

حيوانات غير حساسة !

في مشهد ساحر من فيلم (ساحر) يريد محمود عبد العزيز أن يربي حصانا في شقته لصيقة . ويطلب من سائس خيول أن يعتني به .. سائس خيول هو ذلك الممثل العجوز العبقري فتوة (ساعة بقبيث) الذي توفاه الله والذي لا استطيع تذكر اسمه . ولا تطالبني بأن أتصل بسلال فصل في هذه الساعة المتأخرة لأسأله .. يطلب السائس من محمود عبد العزيز أن يوفر للحصان مساحة خضراء يرمح فيها . فيكون رد محمود « انت عارف ناس عايشين من غير غيطان ومتبلين هنا » فيقول السائس عبارة عبقرية ساحرية « بس دي حيوانات حساسة .. مش زينا » .

نعم .. نحن (...............) .. هذا صحيح . لا يوجد حصان يحترم نفسه يتحمل أن يعيش في شقة ضيقة أو عشة في العشوائيات أو خيمة إيواء .. ماهو حين قدمه ويخرج بعمله وسط المجاري الطافحة . بينما نحن .. قادرون على الحياة بعد ما أكلنا الورنيش الأسود والفورمالين والسيراميك المطحون والخضر المسرطنة واللحوم الفاسدة التي تخلص منها الاتحاد الأوروبي والطيور الجارحة .. قادرون على الحياة في أية ظروف .. راجع عدد الحيوانات التي هلكت في حديقة الحيوان كما نشرت الدستور .. تعرف أن هذه حيوانات الحساسة لم تتحمل ظروف القذارة وقشر الصطلى الذي يطعمونه للدببة واللحم الفاسد الذي تأكله الأسود .. ذلك من الذين يسطون على الخضر ليسرقوا لحم هذه الكتف .. وتلك .. حرب أن يتسرب أي نوع من التلوث لحوض أسماك الزينة وترى كيف تطفو الأسماك ميتة على السطح بعد ربع ساعة .. حين لا نطفو ميتين لأننا لسنا حيوانات حساسة

عندما قابلت للمرة الأولى ذلك الصديق القادم من قطر من أجل إنهاء بعض الأعمال ، وجدت أنه يقيم في جناح فاخر في فندق مهم بالقاهرة إنه في الثلاثين من عمره ، وبرغم هذا هو مخول بإجراء صفقات تجارية مهمة جدًا لبلاده . الانطباع الذي أخذته عن قطر ودبي هو أنهما بلدان غير مثقلين بأثقال التاريخ والريادة والأبوة والأمومة . وإنما هما على استعداد دائم للتطور والتغيير والتعلم . عندما يتضخم كبرياؤك وتعتقد أن الآخرين لا يمكن أن يعلموك أي شيء فأنت تنهار بسرعة لا تصدق . وقد رحب بي وجلس يحكي لي انطباعاته عن مصر .. ثم قال لي فجأة :

ـ « حياتكم قاسية جدًا هنا .. لا أعرف كيف تتحملون هذا كله ! »

ذات الكلمة قالتها لي منذ أعوام سائحة هولندية مرهقة حمراء العينين حافية القدمين في مطار الأقصر تنتظر إقلاع طائرة مصر للطيران التي تأخرت عشر ساعات .. كان زوجها الهولندي العجوز الأشيب جالسًا يطالع في نهم كتاب (ماذا حدث للمصريين ؟) لـ (جلال أمين) مترجمًا للإنجليزية . وقد بدت عليه ملامح فارس اليوم الذي يحاول ألا ينفعل .. وددت لو قلت لهم : أنا ([illegible]) ، لكن فيلم (الساحر) لم يكن قد عرض بعد ، لهذا لم تخطر بذهني هذه العبارة ..

قالت لي السائحة :

ـ « يخيل لي أنه لا أحد في بلادكم عنده إحساس بالمسئولية ! »

ابتلعت الإهانة في صمت ، فأنا لن أدافع عن هؤلاء القوم الذين يعتقدون أنهم يتقاضون أجرهم مقابل تدمير السياحة في مصر .. وابتلعت فكرة أن هذه السائحة سوف تعود لبلدها ، كي تحكي لهم عن معاملة العبيد التي عوملت بها في مصر ..

كان كل شيء في المطار يوحي بالتخبط والارتباك واللا مبالاة .. كل شيء قاس مرير . وقد رأيت مواقف ميكروباص أكثر نظامًا والتزامًا ..

منذ أيام وصلني خطاب من البنك يقول : « نرجو الحضور إلى قسم الائتمان بمجرد وصول هذا الخطاب للأهمية » .. كل هذا جميل لكن الخطاب أرسل منذ شهر ونصف ! شهر ونصف كي يصل الخطاب من البنك إلى بيتي . وهي مسافة تقدر بخمسمائة متر لو كان الخطاب يمشي على قدميه ويعاكس البنات ويجلس على المقاهي . نشكو في البنك فيقسمون أنهم أرسلوا الخطاب فور توقيعه . ويقول المحاسب الشاب ضاحكًا : « انت عارف البوسطة في ... هيء هيء ... » كأنه من الطبيعي جدًا أن يتأخر الخطاب 45 يومًا .. ولو شكوت فلمن ؟ النتيجة أنك تبتلع غيظك وتنسى الأمر ..

من المعجزات الحقيقية أن يصل القطار في موعده .. تسأل في المحطة فيصعر الموظف للسماء في تصوف ويقول : « رب يسهل .. » كأنك تتحدث عن رزق قد يأتي أو لا يأتي .. أقسم بالله إنني انتظرت القطار الأسباني الذي يتحرك من طنطا إلى القاهرة في الثانية عشرة والنصف بطوله ذات مرة حتى الثانية والنصف ! وعندما سألت في مكتب المعاونين قيل لي إنه ما زال في دمنهور ! هكذا أعدت التذكرة و... أتصور النشاطات الجميلة الغامضة التي كان ممكن أن أقوم بها في القاهرة لو انتظرت القطار ! صار من الطبيعي جدًا والرائع ألا يتأخر القطار أكثر من نصف ساعة [illegible] الطلبة الذين هم ذاهبون إلى الامتحان .. يقسمون في [illegible] يتقنصون [illegible] طب للمزيد من [illegible]

كل يوم يؤكد أن مرفق السكة الحديد انهار أو كاد ، والأدهى أن أسعار التذاكر تتواثب ، لكنهم جميعًا مطمئنون إلى أن زبون القطار سوف يأتيهم حتى لو صار سعر التذكرة مائة جنيه والقطار يتأخر عشر ساعات إنما (...............) لا تؤذيها هذه التفاصيل ..

يصعد الميكروباص على ظهر معدية فيسقط في الترعة عن فيه من بؤساء دعك من طقوس العيد الدائمة عندما تغرق المعدية نفسها بمن فيها عمارة في الإسكندرية تنهار على سكانها بالكامل لا أعرف لماذا يموت المصريون عندما تقع حوادث بهذه الكثافة لا يمكن أن تسمع عن عدد قتلى أقل من الثلاثين في أي شيء كأننا دجاج (يفطس) لا يمر أسبوع من دون طفل تفترسه شبكة المجاري السعيدة كأننا نعيش حربًا ضروسًا لكن العدو من داخلنا نحن تتأخر سيارات الأتوبيس على الحجاج المصريين فيتظاهرون وتقع حالات وفاة في البعثة المصرية

هناك مجموعة صور متداولة جدًا على شبكة الإنترنت والمجموعات البريدية تحمل عنوان (تبقى أنت أكيد في مصر) ، وهي مجموعة فريدة فعلا من الصور التي لا يمكن تصديقها الحمار الذي تم تحميل عربته أكثر من اللازم فمالت وصار معلقًا في الهواء الرجل الذي يجلس على جهاز تكييف ليصلحه في الطابق السابع السيارة التي التوت قوائمها فكاد سقفها يلمس الأرض وبرغم هذا تمشي الشاحنة المحشورة تحت كوبري ، والرجل الذي وضع في سيارته مصابيح (مصيك) من التي تستعمل في البيوت ..

هذه الصور توحي لك فعلا بأننا حيوانات لكن حيوانات غير

حساسة مثل حصان (محمود عبد العزيز) ، بل هي قدرة على قبول أي شيء والتكيف مع أي وضع فقط يكون هذا بالتدريج وببطء . تصديقًا لمقولة (ألبير كامي) في (الغريب) : اكتشفت أن كل وضع قابل للتعود عليه . حتى إنهم لو حبسوني في برميل لرحت أراقب السحب وأحلل شكل السحابة القادمة .. رغم كل كامي من ( )
... كان يؤمن بأن القضية الفلسفية الأكبر هي الانتحار ، فماذا كان سيقول لو رأى حالنا اليوم ؟!

خواطر تغم الخاطر

موعد دفع فاتورة الهاتف الذى بدأت أشعر بأنه أسبوعى لا كل ثلاثة أشهر. طبعا لم أستطع معرفة قيمة فاتورتى مسبقًا لأن الرقم المخصص للاستعلام لا يرد للأبد، وموقع الإنترنت يخبرنى أن هناك خطأ فى الصفحة. إذن أخذ معى ما تيسر من مال، وأدخل السنترال فى العاشرة صباحًا وأنا أهنئ نفسى على عبقريتى لكونى اخترت الموعد الذى يكون فيه الموظفون فى العمل حول طبق الفول بالزيت الحار، لكنى أكتشف أن مصر كلها شعب من العباقرة. وأن الجميع فكر فى الشيء نفسه. والسؤال هنا هو: إذا كان جميع هؤلاء هنا فمن هناك؟ من الذى يعمل بالضبط؟

طوابير.. طوابير.. سوت حول بعضها كالثعابين لضيق المكان حتى إن الأخير يقف جوار الأول.. لا أحد يتحرك.. ونعرف أن جهاز الكمبيوتر ملعين معطل.. الكمبيوتر لدى الغرب جعل الحياة أسهل فى كل تعامل، أما عند مصر بل هو زاد الحياة تعقيدًا.. فى السنترال الكمبيوتر معطل.. فى البنك الكمبيوتر معطل.. فى محطة القطار الكمبيوتر معطل وعليك أن تقف بانتظار الفرج إلى أن يرحل قطارك.. إن بركات الحكومة الإلكترونية تنهال علينا، ومن الواضح أن الأمر لا يمت للعولمة والثورة الرقمية قدر ما يمت لجعل حياتنا زى الطين، أو كما تصفها جريدة العربى الناصرى بـ (هيكلة الدهولة).

حولى.. وعلامات بشرية عميقة انعقدت بين الواقفين.. [illegible] عن [illegible] وجوهم استجهم تفكر فى حكمة متراكمة من حيث [illegible]

ـ «اضحك.. اضحك.. محدش واخد منها حاجة.. احنا دلوقت

مع بعض وبعد ساعة ساعتين مش حنقابل تانى..»

أحد الواقفين يؤكد أن هذا لا يحدث فى دبى لأن هؤلاء الناس عندهم مخ.. وآخر راح يحكى كيف أن السعودية متقدمة وأحسن منا مليون مرة. بينما راح غلام مراهق لا يتجاوز سن الثانية عشرة يردد بصوته الرفيع مقلدًا الرجال الكبار:

ـ «كل ده بسبب الحكومة أصلاً..»

وأنا أراهن على أنه لا يعرف معنى كلمة (حكومة) بدقة.. كمية سباب هائلة تلقتها الحكومة فى ذلك اليوم فلو كانت رجلا لانتحر من القهر والخجل.. ورجل حار الدماء محمر الوجه غارق فى العرق يصيح:

ـ «كل ده عشان ندفع فلوس يا ظلمة يا ولاد الـ (...)؟ أمال لو بنأخد فلوس؟!»

هنا انبرى رجل من الذين يلبسون بدلة صيفية رمادية قصيرة الكمين يقول:

ـ «عندك عبد العزيز حجازى مثلاً..»

نظرنا جميعًا للرجل لنعرف ما دخل الرجل المحترم عبد العزيز حجازى بما نحن فيه، لكنه كان قد أنهى ما يريد قوله.. لم يكن عنده سوى مبتدأ بلا خبر. فقال واحد آخر:

ـ «والا الجمصى.. راجل محترم بصحيح..»

المشكلة عندنا أن كل شيء (يبدو) جيدًا لكنه ليس كذلك.. الكمبيوتر فى كل مكان. لكن من ذا قدم لك فعلاً.. بعد.. دقيق من جدوى منه فعلاً؟ فى مدارس لا يتجاوز دوره دور (الدسوخيه) من

ترضي السيد وكيل الوزارة ، والأولاد لا يتعلمون الا برنامج البوربوينت وفي كل عام يبدءون من جديد بلا تراكم من اى نوع كتبت قبل هذا عن كتاب الكمبيوتر للصف السادس الابتدائي لغث وكيف وحدته مجرد وسيلة استرزاق مما يطلقون عليه في لغة الشباب (...) هناك كمبيوتر في بنك القاهرة وبنك مصر لا يعمل تقريبا . ويبدو انه ينتظر الخصخصة مثله مثل كمبيوتر محطة السكة الحديد الذي يعتمد على عمله معنث من سفر كمبيوتر في كل بيت لكنه يستعمل كجهاز فيديو وجهاز كسيت وهاتف ومجلة بورنو يستعمل لكل شيء ما عدا الغرض الذي اخترع الكمبيوتر من اجله بالفعل عندما تدخل المواقع العربية على النت تجد الكثير من اهدار الطاقات مليون موقع يدعونك للدخول لترى مشهد شيق لا يناسب ضعاف القلوب . وتدخل وتسجل لتكتشف ان المشهد بيضة مكسورة وتنهمر التعليقات على مدى ست صفحات من طراز (هي هي) و(ها ها) و(الله ما حصلت ...) يعطيك العافيه) دعك بالطبع من ذلك النوع المحبون بكلمة (فضيحة) مرحة ان هناك منتدى كاملا اسمه (فضيحة) كل شيء فضيحة وتعال لترى الفنانة الفلانية وهي تخلع قطعة ثياب بملابسه . وشاهد بوش وقد صابه العته فعجز عن الكلام في الكونجرس . وهذا فيلم سرى تخفيه الحكومة الأمريكية تدخل على سبيل الفضول لتجد انها دعابة موت مسروقة من موقع عربي لا أكثر دعك من مجموعات (...) و(هذى 5) و(روربيا ...) التي لا تفهم ... ولا كيف تشق طريقك وسطها .

المدونات من ... على الانترنت وقد قال احد ...

... انها والويكيبيديا اهم ما اضافته الإنترنت للحضارة البشرية بعضها جيد جداً والحق يقال . لكن عليك اولا أن تجد طريقك وسط كل هذا ... كلام كثير جداً جداً بحيث لا يترك لك وقتا لقراءة أى شيء ... ، ومئات الفتيات يتحدثن العصبي بعامية على طريقة (الناس التعبيرت ... فيه خير في الفوس) وهو ذات الكلام الذى يكتبه في اخر كراسة المحاضرات

قلت للذى يقف امامي اني خلفه ، وللذى يقف خلفي إني أمامه وغادرت الستر ل لاجلس في كافتيريا قريبة إلى ان ياتي الفرج هنا لاحظت ظاهرة غريبة هي ان كل الكافتيريا تعلق لافتة بالتحديد ... وطبيه على كل ... ومن الواضح انهم من المعهد المحلي ... للتخطيط العمراني و اى من هذه المعاهد التي لا تعلم شيئا ولا ... لها على الإطلاق هناك شيشة في يد الفتى يدخنها بطريقة ... توحي بالحكمة و ... ، والفتاة تلبس ذلك الحجاب المزركش ... في الواقع . لانها تضع ثلاثة إيشاربات فوق بعض إلى حد تتحول ... عروس حلاوة من عرائس المولد . وتلبس سروال جينز واسعا جداً وحذاء كوتشي ... وفوق كل هذا فستان شفاف ... كأنه قميص نوم ثياب معقدة جداً لا يمكن فهمها ولا يمكن ان تعتبرها ... القصة ، قدر ما هي نوع من لفت الانظار المجنون والفتاة نفسها تعاني من حالة زيادة عارمة في هرمونات الأنوثة إلى حد أنها بدأت تتحول ... وهي نفس الوقت في تعقد شاشة الموبايل الرخيص في عصبية ، ثم تقول لمن ...

ـ « انا بصراحة حيرانة يا حلاء ... حادل إنسان ممتاز لكن الكحة دى لاسم تنتهي ... أنا قلت لماما اني مرتبطة بالإنسان ده لكنها مصرة على إني أكمل المجهود ... »

يكتفي بأن يضيق عينيه وينفخ دخان الشيشة في حكمة ورجولة مدرك خطورة ما تقول . وأنا أضحك في سري . تذكرت عبارة سمعتها في مسلسل أجنبي . تقولها أم مذعورة رأت ابنها مع أصدقائها المراهقين « الهرمونات كثيفة في هذا المكان لدرجة أنه يمكنني أن أقصها بالمقص ! » طبعًا حلاء غير مهتم بمشكلتها مع حادل ولا هي مهتمة ... إن هو إلا شبق حسي رهيب يوشك أن يتحول لكرتة لو أنهما وجدا مكانًا ينفردان فيه . والسؤال من جديد هو : ما دام كل هؤلاء هنا فمن هناك ؟ من الذى يملأ قاعات العلم الآن ؟

شربت القهوة وعدت للسراي . لم أجد لدى كل أمامي وكنت خلفه ولا الذى كان خلفي وكنت أمامه ... وجوه جديدة غاضبة تصر على تعريفي . ربما لو أصررت على العودة لمكتبي الكمبيوتر ما زال معطلًا والحمد لله على كل شيء . هكذا وجدت أن علي أن أطوى جيبي وأرحل . يوم كامل ضاع مع حلاء ودنيا والحكومة ... ما تعرفش وجده والدك شخصًا طيبًا يدفع لي فاتورة الهاتف ويأخذ خمسة جنيهات كاملة ؟

التصطيب وتكنولوجيا المعلومات

يندهش عامة الناس عندما يكتشفون أن إنجليزية الأطباء ليست جيدة على الحد الذى يعتقدونه . وأن الطبيب قد يقف أمام عناوين جريدة إنجليزية أو نص أدبي حائرًا عاجزًا عن الفهم . السبب الأول هو أن ما يتعامل معه الطبيب ليس اللغة الإنجليزية بالضبط . ولكن لغة أقرب إلى اللاتينية في معظمها . والسبب الثاني أنا اعتدنا ونحن طلبة طب أن نستخدم تلك الطريقة الغريبة التي أطلق عليها اسم تكنو تراب في مزج المصطلحات اللاتينية بالعربية . لتتكون تركيبات لغوية ممسوخة مثل : النرفات والدراجات لجمع كلمتي nerve و drug بالترتيب ... وحينما تخرجنا صرنا نستعمل ذات الطريقة على غرار (الجرح حيسبتك) أى أنه سيصير ملوثًا Septic ... لم أجد بعد الطبيب الذى لا يقول He is nauseating يريد القول إن المريض يشعر بغثيان . بينما معنى الجملة لغويًا أن المريض (يقرف) ... دعك من عبارات مثل أن (المريضة حالتها painful) بمعنى أنها تتألم ... ومعناها الحرفي أن المريضة حالتها مؤلمة ! ... دعك من النطق الذى يثير سخرية الأجانب لكلمات مثل Umbilicus و Jejunum, و Vagina ... فهذه أمور صارت لها قوة الدين ولا يجرؤ أحد على تغييرها.

الغريب أنك تدرك الخطأ لكنك مع الوقت تعتاده حتى لا تبدو متحذلقًا سخيفًا ... ثم تصير أنت نفسك مصدرًا لهذه اللغة ، وتنقلها لمن يأتي بعدك .

فيما بعد وجدت أن كل مهنة ابتكرت لنفسها هذه اللغة الخاصة بها ... كم قضيت سمعت أن (الكاوت) بالط ... ظللت لوقت طويل حتى أعرف أن معناها هو الـ Cut-out أى قاطع الدائرة . لكن هذا على قدر تعليم الرجل على كل حال ...

أما انتشار الكمبيوتر في مصر فقد ولد لدى الشباب مجموعة عجيبة من مصطلحات تكسر الرأس. مثلا يقول لك الفتى في حماس إنه حيصطّب البرامج، وإن التصطيب خلص، تستغرق نصف ساعة لتفهم أنه يتكلم عن Setup أي تنصيب البرامج. وقد صارحني مهندس الكمبيوتر من أنه يخشى أن الهارد بتاعي حيبيد (بتشديد الياء الأخيرة) فظللت قلقا لأن الهارد حيبيد. ثم عرفت أنه يريد قول إن قرص الصلب قد يمتلئ بالقطاعات التالفة. هكذا أثريت العربية بفعل جديد هو (بيّد) بتشديد الياء يعني (يصير تالفا) وهو مشتق طبعا من Bad الإنجليزية.

قال لي مهندس الصالات إنني لا أستطيع عمل (داونلود) لأن عندي (تروجان). فهمت فيما بعد أنني لا أستطيع عمل تحميل Download عبر الشبكة لأن عندي فيروس من نوع حصان طروادة Trojan. لكنه مصر على نطق اللفظين بالطريقة الخطأ..

يأتي رمضان فينهمك الشباب في فرمتة الهاردات، أي أنهم يقومون بعمل تهيئة Format للأقراص الصلبة لمسح ما عليها من ملفات الصور العارية. ثم يأتي يوم 20 رمضان فينهمكون في البحث عمن لديه مجموعة من تلك الصور لإنقاذ الموقف قبل العيد.

أما عن المحادثات عبر الإنترنت وهي بدعة الوقت التي تمتص معظم الفضلة وبعض المعدلات. فهي نشاط بشري يعني يقتضي أن تجلس أمام شاشة تحدث أشخاصا لا تعرف عنهم أي شيء سوى ما يقولون عن أنفسهم. وغالبا ما تستعمل كوسيلة للسعي الجنسي من منطلق أنه لا أحد يعرفك على الشبكة واللي يعرف خالي يقول له. هكذا تخرج أكثر الدوافع كمونا وكبتا

ولهذا نسمع دائما عن قصة الحب المثلى التي تنشأ بين فتاتين ثم يتضح أنهما فتيان يضحك كل منهما على الآخر. هذه المحادثات أوجدت لغة جديدة خاصة بها هي كتابة العامية بعض الحروف اللاتينية بحيث يصير النص مستحيل القراءة، وتجد كلمات عجيبة على غرار.

Salamo 3alaikom و Besara7a لاحظ أن رقم 3 يدل على حرف العين، ورقم 7 يدل على الحاء، ورقم 2 هو الهمزة..

لا أفهم السبب. لماذا لا نستعمل الإنجليزية كما هي وبشكل دقيق وصحيح، أو نستعمل العربية الجميلة المحكمة؟ لماذا لا نقول (تنصيب البرامج) أو Program setup بدلا من تلك اللغة الهجينة التي ليس لها أب شرعي؟ اللغة التي لم تجعلنا عربا ولم تجعلنا خواجات

المشكلة في مصر عامة هي أن الناس لا تكون لكنها تعرف كيف تبدو. أي مسئول يرى ازدحام مقاهي السايبر وعدد ساعات الإنترنت سوف يقول في فخر: إن التكنولوجيا عرفت مصر. السؤال هنا هو: ماذا يصنعون بهذه التكنولوجيا؟ أعتقد أنك ستجد أن 5٪ فقط يستعملون الإنترنت للحصول على معلومات والباقي يستخدم في تحميل الأفلام والصور إياها والشات. وهناك من يستخدمون الإنترنت مثل المخبول الذي يتلقى أية رسالة فيرسلها لعشرين واحدا قبل أن يتبين ما هي. قديما انتشرت تلك الورقة التي تحكي عن وصية حلم بها خادم مسجد الرسول (ص) وقرر أن يوزعها على الناس، فمن لم ينسخ تلك الورقة عشرين مرة ويوزعها على معارفه حدث له كذا وكذا. علماء الدين قالوا إنه موضوع لا أساس له من الصحة ودعاية عملية قاسية جدا. اليوم نستخدم سيبب

الكمبيوتر لعمل الشيء نفسه. تصلك رسالة بالبريد الإلكتروني تخبرك أن وقعتك سودا بإذن الله لو لم ترسلها لثلاثين واحدا أو تجرأت ومسحتها. هكذا تستخدم التكنولوجيا في خدمة الخرافة التي ليس لها أساس ديني.

هذه من استخدامات الإنترنت المصرية العبقرية كما ترى. والحديث يطول على كل حال. لهذا نكتفي بهذا القدر اليوم قبل أن يهبج بتشديد النون جهاز الكمبيوتر مني !

المتحرشون

من الأشياء التي تضايقني فعلاً أنني لم أدرس الإعلام، وبالتالي لا أجد الإجابة عن أسئلة أطرحها على نفسي كثيرًا. ثمة أشياء قد يعرفها المرء بالفطرة أو الخبرة، لكنها لا تكفي لإعطاء إجابات، إلا إذا كانت الفطرة والخبرة تسمحان لرجل الشارع بإبداء رأيه في التصميم الهندسي لكوبري (أبو العلا)، أو الطريقة المثلى لعلاج سرطان الكبد، أو قواعد تقسيم الميراث.

ظاهرة التحرش. هذا هو العنوان الذي تصادفه تقريبًا في كل جريدة يومية أو أسبوعية، وفي كل موقع إنترنت. كلمة همة الموضوع نوعا. منذ يد تحرك الصعود من جديد ليمتلئ لسطح بالفقاقيع. تحرش جماعي في العيد. مخرجة الأفلام التسجيلية الباسلة (نهى رشدي) التي صممت على ألا تترك المتحرش بها يفر. من ثم تبدأ موجة مقالات وبرامج لتحرش من جديد. مقال طويل يبدأ بقصص تحكيها عدة فتيات عما تعرضن له من تحرش لفظي أو فعلي، مع تأكيد بعضهن على أنهن محجبات لكن الحجاب لم يمنع فعل التحرش. المركز المصري لحقوق المرأة ينشر تقريرا يؤكد أن 83٪ من المصريات و98٪ من الأجنبيات يتعرضن للتحرش الجنسي. ثم ينتقل المقال إلى رأي علماء النفس والاجتماع. الردود محفوظة وهي أن البطالة والضغوط الاقتصادية تدفع الشباب لهذا. ربما يأخذ الرد شكلاً سياسيًا أكثر فتتهم الشرطة بالتقاعس بسبب انشغالها بالأمن السياسي بدلاً من الأمن الجنائي. ثم ينتهي المقال لو كان في موقع إنترنت بردود قراء متفاوتة متصارعة،

منها من يؤكد أن الفتيات اللاتي تركن سراويلهن وارتفعت تنوراتهن هن السبب ، ومن يؤكد أن العودة للدين هي الحل ، ثم تتدخل فتاة لتؤكد أنها محجبة ووقور ، لكن الأوغاد لم يتركوها وشأنها .. إلخ

قل لي بصراحة : كم مرة قرأت هذا المقال بهذه التفاصيل ؟

القضية معقدة ومتداخلة ، ويمكن بسهولة اتهام كل الأطراف .. لو اتهمت الفتيات فقط فأنت ترضي نفسك وتشعر شعورًا رائعًا بالعدالة الشعرية ، فقد نلن ما يستحققن .. في معظم حوادث التحرش والاغتصاب وحتى القتل التي تسمع عنها اليوم . تتلقى الضحية قدرًا لا بأس به من اللوم .. هذا يشعرنا بالأمن وبأن هذا لن يحدث لنساء .. ذات مرة حكى لي أحدهم قصة عن فتاة اغتصبت . فطلب القاضي منها أن تريه كيف كانت تجلس قبل الجريمة ، وماذا كانت ترتدي .. فلما رأى المشهد وجده مثيرًا جدًا لدرجة أنه برأ المتهم فورًا ! .. هذه القصة تخريف كما هو واضح لكنها تعكس نظرة المجتمع الانتقامية للفتاة المغتصبة و المتحرش بها .. وكعادة عبقري يوسف إدريس قال هذا كله منذ أربعين عامًا في قصة قصيرة عن الفتاة التي تعرضت لتحرش نغيل العابر في الحافلة . فلما صرخت انهال الناس عليها سبًا ولومًا وضربًا ثم ألقوا بها كالعاهرة من الحافلة .. عالم الأنثروبولوجي المهذب الذي رقب هذا المشهد حاول ببراءة أن يسأل الناس عن سبب هذا السلوك الجماعي المحير ، فضربوه بدوره وكسروا له نظارته ..

لو اتهمت الشباب فقط فأنت تتناسى كل هذا العبء الهرموني والنفسي والاقتصادي على عاتق شاب لا يجد أملًا في أي شيء ، ويتحدث منظر

الفتيات في الشوارع .. لسان حال الواحدة منهن يقول : « عجبًا لهؤلاء الشبان .. كشفت عن صدري وضيقت الفستان على ردفي ، وبرغم هذا يصرون على عدم التعامل معي كإنسانة بل يريدون الظفر بهذه الأشياء .. يا لهم من حيوانات !! » .. الفتيات يعتقدن فعلًا أنهن يعرضن السلعة الوحيدة التي تضمن لهن المستقبل ، ويتصرفن على هذا الأساس لكنهن يتضايقن عندما يحاول الجمهور غير المستهدف الحصول عليها .. هذا الرأي لا يخلو من منطق لكنه لن يروق كثيرًا لجمعيات حقوق المرأة

لو اتهمت الحكومة فقط فأنت تنسى أن عقوبة الإعدام لم تمنع الاغتصاب .. بالعكس هذه الجريمة تتزايد .. فما السبب ؟

أنا لا أتهم هذا أو ذاك أو أعلق على أي شيء ، لكني فقط ألقي أسئلة عن تأثير الكلام عن ظاهرة ما بهذا الإلحاح .. هل يكرسها ويثبتها ؟ الغربيون يعرفون ما يسمى بـ (تأثير فرتر) عندما انتحر بطل قصة (آلام فرتر) لـ (جوته) بإطلاق الرصاص على رأسه .. بعدها صارت موضة أن ينتحر العاشق الفاشل بإطلاق النار على رأسه .. يقول أوسكار وايلد : الطبيعة تقلد الفن .. فهل المجتمع يقلد الإعلام؟

منذ أعوام دأبت جريدة الأهرام على نشر قصص حقيقية تتعلق بزنا المحارم .. تنشرها بانتظام أسبوعي غريب ، وقد اكتشفت أن هناك كثيرين ينتظرون هذه المقالات في شوق لا يمت للتقزز بصلة .. باختصار وبلا تزويق كانوا يتحمسون جنسيًا لقراءة هذا .. ولاشك طرحت أمام كثيرين أساليب جنسية لم يتخيلوها من قبل .. تمس الشيء بشيء على

أخبار حفلات الجنس الجماعي أو جمعيات تبادل الزوجات . الرد الجاهز دوماً هو « نحن نفتح الجرح لنخرج ما فيه من صديد » وهو رد منطقي ، لكن النتيجة هي أن الصدمة تتحول إلى استمرار والاستمرار يتحول إلى دهشة . والدهشة تتحول مع التكرار الى لا مبالاة . وفي النهاية لم يعد خبر (زنا المحارم) أو (تبادل الزوجات) يثير أي انفعال مجرد خبر كحوادث الطريق ..

الأمر مع الوقت تحول إلى عشق الصديد نفسه ..

هل كل المقالات التي تتحدث عن التحرش تبغي فعلاً فتح الجرح لتفريغ الجراح ؟ لا اعتقد . معظمها (أكل عيش) واستغلال لمادة مثيرة بطبعها . مادة تبيع وتحدث جدلا . اما ما بعد هذا فإن للمجتمع ربًا يحميه .

هل يمكن أن يكون كل هذا الكلام عن ظاهرة التحرش منبعًا متجددًا لظاهرة التحرش ؟ هل ظاهرة التحرش وجه آخر للتطرف لدى يحمل سادية ومقت للمرأة باعتبارها مصدر الخطايا ؟ أم ان هذا الاهتمام بالتحرش ناجم عن العولمة ومعايير تمكين المرأة التي وجدت النساء نفسها تتكلم بلغتها من دون ان تدري ؟ كم من الكلام عن المرض يعتبر صحيًا وكم يعتبر جزءًا من المرض نفسه ؟

فعلاً أنا لا أملك أجوبة . هذه من اللحظات التي يتمنى المرء فيها لو يجد الأجوبة عند خبراء الإعلام وأساتذته . ولسوف أكون سعيدًا جدًا لو اهتم أحدهم بي إلى درجة أن يرسل ردًا أنشره هنا !

عندما يخرج الوحش

الكبت أزمة عميقة في كل المجتمعات ، لكنها أعنف في مجتمعنا ، ولا أعني بهذا الكبت الجنسي فحسب بل العجز عن التعبير عن الغضب والقهر أو الغيظ . تأمل لو انك انفجرت في رئيسك غاضبًا وقلت له رأيك فيه فالنتيجة هي « انت مش عارف شغلك يا افندي . خصم 15 يوم ومن بكرة في الشئون القانونية »

تنفجر في أستاذك فتكون النتيجة « مجلس تأديب وفصل »

تنفجر في الضابط المستفز فتكون النتيجة « بت حتطول لسانك يا روح أمك ؟ » ثم « وبتفتيش المتهم قمنا بتحرير قطعة بانجو بحوزته بغرض الاتجار » .

تتشاجر مع زوجتك « انت ازاى تكلمني كده ؟ . ماما كان معاها حق لما قلت إنك إنسان سافل .. »

تتشاجر مع أي واحد في الشارع . النتيجة هي ان تصحو في المستشفى لتتشاجر من جديد مع الممرضات .

هكذا لا يوجد مكان يحتمل الاحتكاك على الإطلاق ، وهذه مشكلة حقيقية لذا يبحث الناس عن مخرج ، وهذا المخرج قد يكون غريبًا . في كل رمضان سوف تقرأ في الصحف قصة العامل الذي ذبح زوجته وأحرقها بالكيروسين لأنه عاد للبيت قبل اذان المغرب وهي لم تنته من طهي الفطور بعد . الأمر لا يتعلق بالجوع ولكن بإخراج شحنة الغضب والعنف الداخلي لأوهى سبب ، خاصة أنه لم يشرب شيئا ولم يدخن منذ ساعات .. لهذا يصير خلقه أضيق من سم الخياط

بالطبع لا يرتاح الكثيرون لهذه الطريقة من تنفيس الكبت التي تنتهي بالموت أو المشنقة حسب كمية العنف المكبوتة لدى العاصي وقت النطق بالحكم . لكن هناك آخرين وجدوا طرقًا أسهل مثل صديقي الذي اعتاد أن ينطلق بسيارته على الطريق السريع ليلًا عندما ينام الرادار بأقصى سرعة . ويخرج رأسه من النافذة وينطلق في انفجار من السباب والصراخ .. هذا شيء أفهمه

في لندن هناك حديقة (هايد بارك) التي يمكن اعتبارها أكبر جلسة علاج جمعي في التاريخ ، حيث يمكنك أن تقف على صندوق خشبي وتخطب في الناس مطالبًا بقتل الرضع أو أكل العصافير أو سلخ توني بلير ، ولن يمنعك أحد من الكلام .. بل إن الشرطة هناك تحميك . هكذا يمكنك أن تخرج الأبخرة السوداء في صدرك من دون أن تجد يدًا ثقيلة لمخبر اسمه (سطويسي) يقول لك في حضورة أمينة « تعال كلم الباشا كلمتين وارجع على طول .. »

هناك مخرج آخر كان سائدًا منذ أعوام ، وهو الكتابة على الجدران في الخارج يتخذ هذا الشكل من إخراج الكبت شكلًا فنًا اسمه (الجرافيتي Graffiti) وله نجوم يعرفهم الناس هناك بالاسم .. في مصر نجد هذا النشاط بشكل محدود . وإن كان الأستاذ اللباد يحكي عن نداء (شرم برُم) الغامض الذي ملأ جدران مصر قديمًا . وكان في الواقع صرخة مكبوتة عبثية ضد الاحتلال الإنجليزي .

لكن نشاط الكتابة على الجدران يزدهر فعلًا في دورات المياه عندنا . ولو أن عالمًا نفسيًّا قام بهذه الدراسة كريهة الرائحة لفهم الكثير عن

النوازع المكبوتة لدى الناس .. طبعًا يتخذ شكل الكتابة هنا تحررًا حسيًّا رائدًا وشتائم ورسومًا بذيئة .. في العصر الحالي هناك أرقام موبايل واتهامات لفتيات يذكرهن الشخص بالاسم ، فيشتمه واحد آخر بأقذع الألفاظ .. وهكذا .. من الصعب أن تجد دعوة لثورة أو نداء سياسيًّا في مكان كهذا طبعًا ، لكن المقياس واحد ..

اليوم ظهرت طريقة أخرى لإخراج البخار الأسود هي الإنترنت .. مدونات حيث عبقري تتكلم فيه كما تريد . ولو كنت محظوظًا فسيمسك بك بسطويسي .. التعليقات في المنتديات والتعليقات على المقالات هي الأخرى تحتاج لدراسة نفسية مدققة .. لأسباب كهذه يحجم امرؤ عن الكتابة في أي موقع ينشر التعليقات مباشرة من دون مراجعة ورقابة .. لأن الأرجح أن تتلقى كمًّا من الشتائم لا يوصف .. هل لأنك سيئ إلى هذا الحد ؟ لا .. بل لأن من يرد عليك يحتاج إلى إخراج البخار وأنت فرصة سانحة

في المواقع التي لا تقوم بترشيح الردود ، يبرهن الشباب العربي على عصره فعلًا .. ما دام لن يُقبض عليه وما دام لا أحد يعرف اسمه ، فهو يطلق العنان لأفحش الشتائم التي تندرج تحت القائمة (د) في تصنيفي اللغوي

القائمة (أ) .. شتائم متحضرة وراقية ، مثل .. (أنت غير مسئول ، أنت عميل ، أنت غير ناضج .. إلخ)

القائمة (ب) .. شتائم قاسية لكنها قابلة للنشر ، مثل .. (مخبول غبي .. إلخ)

القائمة (جـ) .. شتائم قاسية جدًّا يعاقب عليها القانون لكنها ما زالت قابلة للنشر ، وهي على الأعم أسماء حيوانات .. هذه القائمة تتضمن

هواية التكفير أو الاتهام بالعمالة لكل من يختلف معك في الرأي . مثلا كل من يهاجم صدام حسين هو عميل للشيعة والرافضة ، وكل من يمتدح صدام حسين هو داعية دكتاتورية وعلماني كذلك .

القائمة (د) : شتائم في منتهى البذاءة ولا يمكن حتى التلميح لها ، وغالبًا هي ذات طابع جنسي فاحش . من الغريب أن هذه القائمة بالذات هي ما يفضل رواد المدونات وتعليقات المقالات استعماله . حالة لا توصف من الانفلات العصبي والعقلي ، حتى لتشعر بأن كاتب هذه الكلمات يعوي ويقضم لسانه وهو يكتب ، وقد استطالت أذناه ومخالبه ؛ هذا هو البديل العصري لكتابة الشتائم على جدران دورات المياه .

هذه حالة نفسية فريدة : صاحب هذه السطور قد يكون متزنا مهذبا ، بل هو غالبًا كذلك ، ثم يخلو لشاشة الكمبيوتر حيث لا يراه أحد ، عندها يخرج كل هذا الصديد والقيح الأسود من داخله . لا أعرف إن كانت هذه طريقة علاجية مفيدة أم لا ، لكني لا أرجو خيرا من شخص يستعمل هذه الألفاظ ويكتبها وينشرها على العالم كله .

في قصة (أرض النفاق) ليوسف السباعي ، كان البطل مهذبا خجولا ثم ابتلع مسحوق الشجاعة . عندها أدرك الحقيقة المريرة : وهي أن أخلاقه لم يكن دافعها سوى الخوف وحده . لم تكن لديه مثل من أي نوع . ثم هو خوف من القانون والناس ، وهكذا فإنه بعد دقائق من ابتلاع المسحوق يقتحم بيت جارته الحسناء التي اشتهاها كثيرا ، وكان يغض بصره عنها !

هذا هو ما يحدث بالضبط عندما لا يكون لك اسم على الإنترنت . دع الوحش بداخلك يخرج . الوحش الذي لا يحكمه دين ولا خوف من القانون ولا ضمير ولا أي شيء .

في مقال قديم لي اتهمت معظم هؤلاء بأنهم مصابون بمرض (لا توريت La Tourette) الذي يرغم المريض به على أن يتفوه بألفاظ بذيئة ، ويأتي بحركات مشينة من دون أن يستطيع السيطرة على نفسه .

في سياق الردود هناك من يشبع هوايته بالعبث . مثلاً هناك من يكتب أحرفا لا معنى لها ، وهناك من يحكي قصة لا علاقة لها بالموضوع . هناك صديق لي اعتاد أن يتدخل في سياق الردود . مثلاً يتكلم المقال عن حريق مجلس الشورى ، فيكتب معلقا يقول : « مستوى الأهلي في انحدار مستمر » . هكذا تنهال عليه الشتائم من الأهلاوية وينسى الجميع موضوع المقال ، ويمكنني أن أتخيل كاتبه ينتف شعره غيظًا .

بعض من يردون يفصحون لا شعوريًا عن عطنهم النفسي . في أحد المنتديات الخليجية نشروا صورة لفتاة فلبينية ملأت ثلاجتها باللحم البشري لأنها تحب طعمه . هنا ردت إحدى القارئات قائلة : « الخدم ما عندهم قلب مرة ! » هكذا تكشف القارئة لك عن حقيقة مهمة ، هي أن الشعب الفلبيني كله بتاريخه العريق وثقافته وأدبائه ورئيس وزرائه وبرلمانه وأطبائه ومهندسيه ليس سوى (خدم) . ثم إن الفتاة الفلبينية كانت تمزق البشر وتأكلهم ليس لأنها مجنونة بل لأنها (ما عندها قلب) ؛ لأنها من الخدم . الخلاصة هي أن كل الفلبينيين يأكلون لحم البشر !

نعم .. نحتاج السنين التي يخرج بها الناس أخيرة الكيت السوداء إلى دراسة مدققة من عالم نفسي ، لكني أرشح المدونات والردود على المقالات كمصدر ثري جداً .. وأرجو في النهاية من الموقع أن يقوم بترشيح الردود القادمة على هذا المقال بدقة .. مكتفياً بالردود من المرحلة (ب) و(جـ) .. بلاش (د) أرجوكم !

البحث عن جسر

منذ عام أو عامين طلبت المدرسة من ابني جسراً .. نعم .. أنت لم تخطئ قراءة الكلمة .. طلبوا منه نموذج جسر كشرط للنجاح في مادة المجالات .. اقترح المدرس أو المستر حسب التعديل الأخير على الطلاب أن يبتاعوا الجسر من مرسم معين حدده لهم بالاسم والعنوان .. وقد حاولت أن أصنع الشيء بنفسي في البيت لكن الولد قليل الأدب أبدى اشمئزازه من النتيجة ، وقال إن هذا ليس نموذج جسر ، بل نموذج جمجمة مصابة بسرطان المثانة .. هكذا اتجهت إلى المرسم المذكور لأجد رجلاً أصلع ضب على نفسه .. يجلس وسط فوضى عارمة ويدخن بكثافة ، وحوله عشرات الجسور التي صنعها من الورق المقوى والإسفنج الرغوي ، وعرفت أن ثمن الجسر خمسة وعشرون جنيهاً دفعتها في صمت .. وفي يوم الامتحان كان الشارع يعج بالطلبة الذين يحمل كل منهم جسراً لا يختلف عن الذي في يد ابني . وخطر لي مدى سخف هذه الخدعة .. المدرس يعلم جيداً أن كل هؤلاء التلاميذ ابتاعوا جسورهم من المكان نفسه ، ويعرف أنه ما من واحد منهم ضيع وقته في نهاية العام في صنع جسر معقد التركيب يفوق قدراته كطفل .

في العام التالي عرفت من ابنة خالة التي تصغره بعام أن المدرسة طلبت منهم جسراً .. هذه المرة الجسر تباع في المدرسة بعشرة جنيهات لمن يرغب .. هكذا أصبحت معالم اللعبة .. كل الجسور التي سلمها التلاميذ العام الماضي تباع هنا بعد بسعر أرخص .. ربما يحتفظ بها مدرس المجالات يدخن مع الرجل الأصلع الذي ... نفسه ويقتسمان

دخل هذه العملية (تذكر عدد الطلاب المهول) ؟ وعلى الأرجح سوف يُباع هذا الجسر العام التالي بخمسة جنيهات ..

ابنتي مشكلة أخرى لأن مدرستها لا تكف عن طلب هذا الشيء المدعو (نشاطات) .. كأنها لا تفعل أي شيء في البيت سوى تصميم هذه النشاطات، وفي النهاية هم يخدعون أنفسهم أو يخدعوننا لا أدري، لأنهم بالقطع يعرفون أن أولياء الأمور هم الذين يسهرون ليلا يصنعون هذه الأشياء، أو هم يتوجهون إلى أقرب مكتب لتصميم الوسائل التعليمية لدفع مبلغ لا يقل عن خمسين جنيهًا شهريا لشراء وسائل جاهزة .. التلميذ لم يتعلم شيئا جديدا .. الأبوان أضاعا وقتا ومالا .. لم يسعد سوى المدرس الذي يهمه إرضاء المفتش جدًا، وصاحب المكتب طبعا

وسط هذه الأزمات الاقتصادية الطاحنة، والجو المكفهر المنذر بمجاعة أو ما هو أقرب لها، تشعر بأن أمرا غير مكتوب صدر لكل واحد ممن تقابلهم: تصرف .. فلينج كل بنفسه

هكذا يلعب الجميع على الجميع ويحاول الجميع خداع الكل .. أنت تعرف أن فاتورة الكهرباء مبالغ فيها، وفي كل شهر يمر موظف يتفقد عداد المياه في بيتي ويقرأ المكتوب، ثم تأتي الفاتورة تحمل رقما ثابتا بخط مع محفوظة من مرفق المياه أن العداد معطل .. أقسم بالله إنه ليس معطلا ولو كان كذلك فلماذا يأتي الموظف أصلا، وما الذي يدونه في كل مرة ؟ إنهم يسرقونك فماذا تفعل ؟

تذهب لهذه المصلحة أو تلك ليكتشف الموظف أن ورقك ناقص والأختام غير واضحة، فتغدو المكان محققا لتبدأ رحلة أوديسيوس من

جديد، لكنك على الباب تقابل دوما ذلك الأخ الذي يعرض عليك إنهاء أوراقك مقابل عشرين جنيهًا .. معه موتوسيكل يصر على تسميته (مكنة) دائمًا وهو ينطلق به ليقوم بعمل غامض ما، والمهم أنك تأخذ أوراقك كاملة خلال نصف ساعة .. طبعًا من الواضح أنه يقسم المبلغ مع الموظف الذي رفض أوراقك .. جربت هذا الموقف في أكثر من مكان، حتى إنني صرت أبحث عن ذلك الرجل في لهفة ليهيني الأمي .. ذات مرة قابلت أحدهم في هيئة الكهرباء فصحت في فرحة: « أنت فين يا عم ؟ »

إن كانت الرشوة قد صارت دينا فلماذا تمارس طقوسه بشكل سري ؟ لماذا لا تنتشر المعابد في كل مكان ؟ لماذا لا يضعون لافتة تقول: « على السادة الراغبين في دفع الرشوة أن يتجهوا إلى مكتب الرشوى جوار دورة المياه مع الشكر » ؟ المشكلة هي أنني لست خبيرا في هذه الأمور ولا أعرف الموظف المرتشي من الشريف .. واحد من رفاقي قال لأحد موظفي المرور بلهجة الخبير الذي فهم الحياة: « اتوصى بينا وبعدين احنا مع بعض .. هه ؟ » .. هنا ارتفعت حاجورة الموظف ترح ابتسامة رجّا « مع بعض يعني إيه يا أستاذ ؟؟؟ »

هذه هي المشكلة .. ما دامت محاربة الرشوة مستحيلة فلماذا لا يسهلون الأمور على من لا يعرفون كيف يرشون ؟ وماذا عن التعساء الذين لا يعرفون كيف يرتشون ؟ أذكر كاريكاتورا قديمًا جدًا للرائع حجازي تمثل موظفًا مكفهرًا مقطب الجبين، ومواطنًا يقول همسًا لصاحبه: « عصبي وبيكره نفسه وبيعامل الجمهور معاملة زي الزفت لأنه شريف ومش بياخد رشوة ! »

هناك لكل شيء في مصر باب خلفي ، المهم أن تدفع ، ولا أستطيع أن أرجمهم بحجر إلى هذا الحد ، لأن الحياة قد صارت مستحيلة على شريحة لا بأس بها من الناس ، وحتى مبلغ الألف جنيه شهريًا الذي كنا نعتبره الحد الأدنى لأحلام الشباب صار بلا قيمة تقريبًا . معنى هذا أن هؤلاء لا يجدون قوت يومهم ، لكنهم لم يخرجوا على الناس شاهرين سيوفهم بل هم يمدون أيديهم من تحت المنضدة . لقد اختلط مفهوم الصواب والخطأ تمامًا ، حتى إنني أتساءل عن الصورة التي كان يوسف إدريس سيكتب بها رواية (العيب) لو كتبها اليوم .

هناك باب خلفي للتفوق الدراسي اسمه (الآي جي) حيث تدفع مبالغ فلكية من المال لتضمن لابنك مكانًا في كلية محترمة . عندما يحصل الجميع على 120٪ فستصبح درجة واحدة من ابنك في الامتحان معناه أن مستقبله قد انتهى . الجميع سعيد والجميع يربح من هذا النظام الدراسي ما عدا الأسرة طبعًا . هناك سائق سيارة أجرة في طنطا قال لي في حماس « ربنا يخليها الآي جي يا باشمهندس » . لأنه يوصل عشرات الطلاب إلى القاهرة عدة مرات أسبوعيًا . هناك دروس خصوصية كذلك . وفي النهاية يكتشف الأب القادر أنه لم يعد قادرًا إلى هذا الحد . لكنه الباب الخلفي كالعادة . هكذا يجد الأب أن عليه أن يسرق من مكان ما . عالي يسرق من مدرسي الآي جي أو سائقي سيارات الأجرة

حدثني ابني عن نظام تمهيدي جديد للآي جي يبدأ من الصف الثالث الإعدادي ، واقترح أن أدرس الموضوع بجدية ! لقد وجد هؤلاء القوم أنهم لم يعتصروا ما يكفي من مال ، فقرروا أن يغروا الناس بوجود باب

خلفي آخر في عملية التعليم بالذات تلعب عدة عوامل ، منها الخوف من أن تكون قد قدمت لابنك كل ما يجب ، والخوف من أن يسبقه رفاقه . من هذه العوامل أنك تعرف أن المستقبل مظلم أصلًا ويجب أن تعطي الطفل كل سلاح ممكن ، منها المشاجرة والرغبة في التميز . المهم أنك تحتاج قوة شخصية كاسحة ، كي تتجاهل هذا الاختراع الجديد . هذه نغمة لا تخيب أبدًا ..

سوف أبحث عن شيء أختلسه أو أسرقه ، فإذا وجدت فلسوف أقدم ورث الولد في هذا النظام التعليمي الجديد ، وإن لم أجد فلسوف أكتفي بصفعه مع تذكيره بأن أبي لم يترك لي سوى اسمه والتربية الحسنة . تلك تركة أنني أشعر بأنني موشك على فقدها لو استمرت الأمور كما هي !

حسد

اليوم أعترف بالحقيقة التي أخفيتها عن الناس منذ الطفولة

أنا أحسد بقوة ..

أحسد طفلا سوف يحقق كل الأشياء التي فشلت أنا في تحقيقها

(الشاعر الروسي إيفتوشنكو)

* * *

يجب أن أعترف بهذه الحقيقة .. لقد نجح هؤلاء القوم في تحقيق ما عجزت عنه أنا .. ربما أدري الحقيقة بالكثير من التعالي .. التحذلق .. ترفع الطبقة الوسطى . لكني أدرك يقينا أني فشلت في فهم قواعد اللعبة منذ البداية وهي ذي النتيجة واضحة جلية ، وهي أن الزمن ليس زمني ولا البلد بلدي

لقد رأيتهم قادمين .. كنت في المدرسة الثانوية يوم السادات يضع المتفجرات تحت الصرح الذي شيده عبد الناصر طيلة عقدين من الزمن . ولم أعلق أهمية كبرى على هذا .. عرفتهم بوجوههم المسوقة الشهوانية عرفتهم بأصواتهم الجهيرة .. وكما قال الناقد السينمائي الراحل سامي السلاموني « تعرفهم من كروشهم وفتحة صدر الطرابلس وصفاقة من شبع بعد جوع ، منهم الطبيب والمحامي والمهندس والعامل ، لكنهم صاروا طبقة واحدة لها شكل واحد وطموحات واحدة ، وربما تسمع بعض مصوب .. » كن هذه تكسب يوم قد حدهم نشاط محبب بينهم ألا وهو عرس سكني يعكفه حتى تقبض ثمن من شقة عند لحمه فقط عين السلاموني الحساسة استطاعت أن تعرف وراء هذا المشهد

كنت أجلس في غرفتي أطالع الطيب صالح وكافكا وطه حسين ، وأعلق رسوم محمود سعيد ورينوار ، بينما كان هؤلاء يزحفون كالقمل في كل مكان .. ثمة نشاط بشري غريب هو أن تذهب لبورسعيد وتلف قماشًا على خصرك وتضع عشرين ساعة حول ساعديك كي تتجنب الجمرك .. نشاط آخر غريب اسمه المتاجرة بالدولار في السوق السوداء .. هذا النشاط يقومون به جميعًا لكني وكل أمثالي عاجزون عنه .. ربما لأني أترفع عنه .. ربما لأني أخشاه .. ربما لأني لم أفهم قواعد اللعبة بعد .. ربما لأني (مش وش بهدلة) وبلغة أدق .. كان لدي ما أخسره .. هم لم يكن لديهم ما يخسرون .. هذه هي عقد الطبقة الوسطى التي تكبلك إلى الأرض ..

إنهم يدرسون الاختلاس والرشوة والمحسوبية على نطاق واسع .. ثم إنهم لا يخجلون .. ينشئ السادات حزب مصر فينضمون جميعًا له ، ويكتب أحدهم على طريقة فكتور هوجو .. لو كان أعضاء حزب مصر خمسة فأنا منهم .. ولو كانوا واحدًا فأنا ذلك الواحد .

ثم يترك السادات حزب مصر لينشئ الحزب الوطني الديمقراطي عندها في اليوم نفسه لا يبقى بين جدران حزب مصر واحد من هؤلاء .. مشكلتي أني بطيء التفكير أكثر من اللازم .. أرى هذا الموقف فأقضي عشر سنوات أحاول استيعابه .. بينما هم جميعًا فهموه (وهي طبيعة) قد انتهوا من استخراج الذهب من الزلط ودهن الهواء بالدوكو ، بينما أنا ابن الطبقة الوسطى ما زلت أعتقد أن المستقبل .. رأسي مفعمة ترنيمة تضم رفات ناصر وجيفارا ولومومبا حيث أحرق البخور والكتب عن

بطولة سموت حت مع المحاس ، واحفظ كل حرف قاله كسترو لناصر عندما التقيا في القاهرة ..

إنهم يتاجرون في الأراضي . إنهم يحصلون على تصاريح البناء غير القانونية . إنهم يقوون علاقاتهم بكبار رجال الشرطة . بينما يستطيع أصغر شرطي مرور أن يجعل الدم يتجمد في عروقي . ثم يقررون أن يتدينوا فجأة ، وتظهر زبيبة صلاة عملاقة لكل منهم . ويلبسون الجلاليب البيضاء ، ويسافرون للعمرة عدة مرات في كل عام ، ويبتلعون الشركات التي تبيع حبة البركة والعسل الأبيض . ويديرون المدارس التي تحمل في نهاية اسمها لفظة (الإسلامية) . ويعودون ليتهموا نجيب محفوظ بالتسيب الأدبي ، ولا مانع من غرس سكين في عنق نجيب محفوظ فهذه كما قلت من هواياتهم المحببة . والرجل هو الآخر لم يفهم قواعد اللعبة برغم ذكائه الشديد .

وتتأمل سلوكهم فتجد أنهم يمارسون للأنانية أسمى حرفية . يحدثون فيكذبون . ويعدون فيخلفون . ويوثقون فيخونون . لكنهم جهورو الصوت قادرون على الصراخ في أي وقت ليخرسوك

ثم يكتشفون فجأة أن مصر تضم مسلمين ومسيحيين ويقررون أن هذا خطأ ، وأن هذا سبب مشاكل الاقتصادية التي يعاني منها ... دعك من أنهم اكتشفوا فجأة أن هناك صعايدة في الجنوب . وأن هذا شيء ظريف جدًا . وتبدأ نكات الصعايدة التي يطلقها حشاشون في ملاهي شارع الهرم لتشق مصر إلى نصفين ..

إنهم يسودون المقالات في الصحف تبرر كل ما تفعله الحكومة مهما

... خطأ أو جبرًا . إنهم يهتفون بالروح بالدم نفديك يا سادات ... عيل السادات لم يكن أحدهم مستعدًا لتبديل حلته المريحة بعده ... الأسماء كانوا قد نسوا كل شيء عن السادات وراحوا يرتبون ... فهم للعهد الجديد . فإذا جرؤت على انتقادهم صرخوا بأعلى صوتهم أنك من (حزب أعداء النجاح) ..

إنهم لا يملكون ذرة ثقافة لكنهم يحفظون شعر روكفلر ... في ... دليل على أن الله راض عما فعله . وهم يؤمنون كخلاصة ... الرأسمالية الأمريكية بأن الفقير مسئول عن فقره بشكل ما ... لأنه أغبى من اللازم ... من اللازم ... من اللازم ... والمشكلة أنني بدأت أعتقد هذا

... في الحشيش و البرشام و البودرة ، و اليوم يزرعون ... لأنهم ... أدري الناس بأن ... مكلفة ، وهم حريصون على ... لأنه ... هذه . إنهم يأخذون القروض ... وهذا ... تطل ... بلدهم ، بينما ... في فيها والذي ... مفروض - في ... تشعر بشكل ما أنك مجرد ضيف عابر

* * *

نعم . في لحظات كفاحي المرهقة كي لا أنزلق إلى طبقة أقل . ... لكن الزمن يتغير وفشلت في فهم ذلك . بينما هم ... لقد امتلكت بعض الثقافة السطحية لكني افتقرت تمامًا لذلك النوع الخاص من الذكاء الذي يطلقون ... (... ربما لو لم يكن لديَّ ما أخسره ، ربما لو فهمت ...

لكني لن ألقي باللوم على أحد سواي .. لا توجد بدايات متأخرة للغة وليس بوسعك أن تتعلمها في سن الأربعين كما أنها لا تدرس في المدارس ولهذا فشلت كل محاولة لي في دهن الهواء بالدوكو أو خرم التعريفة أو اعتصار الدهن من الزلط .. ولهذا أقولها بكل صدق : أنا أحسد هؤلاء القوم ، فقد امتلكوا الأرض وما عليها ، وربما يمتلكون المستقبل كذلك ، وإن كنت أدعو الله أن يتعلم ابني فن دهان الهواء قبل أن يحدث هذا .

مخلوقات كانت رجالاً (1)

لا يوجد ثقاب يا حضرات .. هذه هي الحقيقة المريعة التي أدركتها بعد بحث في عشرة أماكن ، والسبب كما قال لي البقال هو أن سعره سيرتفع ليصير جنيهين إلا الربع للقاروصة بعد ما كان جنيهًا .. كما تعرف تكفي أية شائعة في مصر عن ارتفاع سعر شيء ما كي يختفي من على ظهر البسيطة . قال لي البقال هامسًا : « هل تصدق أن المشابك الخشب اختفت كذلك ؟ »

لا أعرف أهمية المشابك الخشب ولست مستعدًا للعصب من أجل [illegible] . الثقاب شيء آخر . وهذه الزيادة لعب أطفال بالمقارنة بما حدث [illegible] للمكرونة واللحم و[illegible] . لكن هذه كانت القشة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة لي فرحت أردد :

- « ربنا ياخدهم أو ياخدنا !! »

و[illegible] في دهشة من [illegible] الطبيب الذي فقد أعصابه لأن [illegible] الثقاب [illegible] خمسة وسبعين قرشًا .. لابد [illegible] عن مدى شح [illegible] لكن [illegible] ليس كل شيء [illegible] مرهقة من [illegible] تتضاعف يومًا بعد يوم وبسرعة لا تصدق بعد العلاوة [illegible] حتى إن نفس البقال قال لي ذات يوم ساخرًا :

« [illegible] كده .. أصل أسعاره بتتغير كل يوم زي الصاغة ! »

ربنا ياخدهم أو ياخدنا .. هذا حل عادل بالنسبة [illegible] إذا أردنا أن نحرق أنفسنا .. فلماذا يختفي ؟

ماذا يريد هؤلاء القوم منا ولماذا ؟ لا يتركونا نحيا ؟ لماذا يصحون كل يوم من نومهم ليجعلوا الحياة أعقد ويتأكدوا من أننا نزلنا طبقة في السلم الاجتماعي ؟ لماذا لا يكتفون ويرحلون بما سرقوه إلى جزر الكاريبي ليعيشوا كالملوك ، ويتركوننا نحيا بما بقي في هذا البلد ؟ وما الفارق بين أن تكون ثروة الواحد منهم 20 مليارًا وأن تكون 21 مليارًا ؟ هم فقط يريدون أن يعتصروا الليمونة حتى آخر قطرة .. لن يركبوا الطائرات المتجهة إلى سويسرا قبل أن يتأكدوا من أن آخر موظف قد صار حافيًا ، وآخر طفل قد مات بسوء التغذية ، وآخر سنتيمتر مكعب من الغاز الطبيعي تم ضخه لإسرائيل . عندها فقط يسافرون وينسون كل شيء عن مصر وربما يظهر واحد منهم في التلفزيون السويسري ليتنهد ويقول : مصر أم الدنيا .. واحشاني قوي ..!

منذ أيام جاءني ذلك الشاب المصرفي الأنيق الذي فرزه عصر الانفتاح بكثرة في مجتمعنا : قميص قصير الكمين وربطة عنق ومن حزامه تتدلى عشرات الأجهزة المهمة التي توحي بالأهمية ، وكما يصف صنع الله إبراهيم هذا النمط فهو يستعمل لغة الوقت المحدث من ثقافة عربية سطحية . وغالبًا يبيع الهواء لابد من استعمال لفظة CEO و Sale و Share في كل جملة تقريبًا . جاءني يقنعني بأن أدفع ألف جنيه شهريًا مدة ثلاثين عامًا وسوف أظفر في النهاية بمبلغ كذا .. نظرت له وابتسمت : هل أنت واثق من أن مصرفك سيكون موجودًا بعد ثلاثين عامًا ؟ هل سأكون أنا موجودًا ؟.. هل مصر نفسها ستكون موجودة إذا استمرت بهذا المعدل ؟

ثم يرد ... صحت في عصبية وقال : « دي حاجة بتاعتك ربما يبقى شيء هيء هيء ..! »

المشكلة هي أنك قد تكون ميسور الحال نسبيًا ، لكنك لا تضمن أي شيء من أي نوع . عرفت جراحين زملاء لا يكفون عن العمل والكسب ، برغم هذا يشعرون بخوف مريع من الغد ، ومن اليوم الذي قد يشعرون فيه عاجزين عن العمل ، فالجراح مثل أي شخص آخر يشتغل على ذراعه .. مهما ادخروا في المصرف فمن الوارد أن يفيقوا ليكتشفوا أن ما ادخروه صار يساوي 31 جنيهًا لا أكثر ، أو أن المصرف نفسه لم يعد له وجود

البورصة ؟ هذا مكان مناسب كي تفلس فيه ، وسوف تدرك وقتها أنه ليس مكانًا للاعبين الصغار بل هو مكان لعب العمالقة الذين يخصصون مبلغًا لا بأس به للخسارة ..

من اشتروا عقارات صاروا عاجزين عن التصرف فيها بسبب الافتقار إلى السيولة .. أعرف أشخاصًا يملكون أرضًا وشققًا لكنهم عاجزون عن بيعها برغم ارتفاع سعرها كل يوم ، من الممكن أن يجدوا من يدفع على قسط لكنك تعرف جيدًا أنه لن يدفع سوى قسط واحد ويكون عليك أن تلجأ للتقاضي ، وأن تقضي باقي حياتك في المحكمة

وماذا عن افتتاح مشاريع صغيرة ؟ في شارعنا نجد في كل يوم مكبرات صوت ودي جي وتصوير فيديو وحلوى بورتو ، وفتيات على حصانين وخيلًا ترقص مع افتتاح محل جديد . ثم ... شجية ... تتغذيه ... الرتيبة ... بعد شهرين تغلق

هذا المحل بسبب الكساد وتبدأ الدورة من جديد . الدورة التي لم يستفد منها سوى مصور الفيديو والذي جي .

أتكلم هنا بالطبع عن الأشخاص الذين يكسبون شيئاً ، ولديهم رأس مال صغير يريدون أن يضعوه في شيء مضمون ، فماذا عن الذين يعيشون من اليد إلى الفم وهم يتزايدون كل يوم ؟

كنت أمر جوار طابور من طوابير الخبز ، عندما رأيت ذلك الرجل الأصلع عرق الجبين ذا السن عاد يخرج من الطابور بأرغفة عيشه حققها ، فمه مفتوح في لهفة والعرق يبلل جبينه ، وهو يحتضن كومة من أرغفة الخبز في حب وله حققهما . صورة مجسدة للخلاص والفرحة والظفر

... جوار الرصيف لحظة يتأمل حمداً في روعة ما حققه وفي المحطة ... على راحة ذلك الصبي الذي ... حرفي ... لحظات أرغفته من ... ويحملها متعه بسرعة ... في ... خوف وجه الرجل ... ودموع ... في عينيه لكنه صار عاجزاً عن ... شيء ما في عينيه يشي ... عاطفة إلا الجوع والظمأ .

قلت لنفسي الحمد لله أني لست المسئول المباشر عن هذا الرجل ولا الفتى ... برغم هذا كل واحد فينا مسئول ... هذا وأنت تدخل فراشك ليلاً ..

خطر في ذهني عما مكسيم جوركي وما كان سيكتبه لو رأى هذا المشهد . بطبيعة الحال كان أقدر على رؤية هذه التفاصيل ، وقد قرأت له منذ زمن سحيق مجموعة قصصية رائعة اسمها (مخلوقات كانت رجالاً) ترجمة (سعد توفيق) تحكي عن مجموعة من النماذج البشرية التي (أكل عليها الدهر وشرب وقضى حاجته) على رأي بلال فضل الذي افتقده كثيراً وهذه النماذج تعيش كلها في مسكن رخيص الثمن شديد القذارة ، نام فيه الكاتب لفترة من فترات شبابه الصاخبة . بالفعل هي مخلوقات كانت رجالاً وكان يمكن أن تحصل منها على نفع أكبر بكثير من الوقوف ساعات في طوابير الخبز أو سرقته .

قررت أن أكتب في الأسابيع القادمة عن هذه المخلوقات التي كانت رجالاً في عالمنا هذا ، والتي أفقدها الفقر الكثير من إنسانيتها . أكتب عنها لأنني لا أملك أن أقدم لها شيئاً آخر . وللحديث بقية



مخلوقات كانت رجالاً (2)

القصة واقعية تماماً، لكن لو كانت قصة بوليسية ولو كان كاتبها أحد أساطين القصص البوليسية من وزن (أجاثا كريستي) أو (إيلري كوين)، لكان اسمها (قضية سرقة الحقنة الشرجية)، ولبدأت كما يلي:

أشعل المفتش (رشيد مكالستر) من سكوتلانديارد غليونه وجلس في مقعده الذي كان مقعد رئيس القسم منذ دقائق، وقال للطبيب متفكراً:

ـ «ما زلت لا أفهم القيمة المادية لهذه الحقنة الشرجية حتى يقوم أحد بسرقتها..»

قال الطبيب:

ـ «لا قيمة لها على الإطلاق.. إنما هي مجرد كوز صغير من الصفيح يتصل بخرطوم ونبل.. واحدة فقط في قسم الرجال وواحدة في قسم الحريم.. نحن لا نستطيع الاستغناء عنها لأننا ننظف قولون مرضى الغيبوبة الكبدية بانتظام. وعامل القسم هو الذي يجري هذه العملية مرة كل أسبوعين. تبرع أحد فاعلي الخير للقسم بحقنة شرجية ثمينة ذات خرطوم لونه أزرق جميل.. هكذا صار لدينا ثلاث حقن شرجية.. لكن مشكلة الروتين والبيروقراطية بالنسبة لهذه الهبات هي أنها لا تدخل دفاتر العهدة إلا بعد إجراءات معقدة.. وهذا يعني أنه لا صاحب لها.. كما أن [illegible] المجهود الذاتية وقعت في ذات المشكلة، وسرعان ما [illegible] أو سُرقت..»

ـ «من الممكن أن يحتفظ بها الطبيب في خزانته..»

ـ «هذا يعقد الأمور أكثر.. لأنها مطلوبة طيلة الوقت تقريباً..»

فكر المفتش قليلاً ثم طلب استدعاء عامل القسم..

دخل العامل متوتراً وقبل أن يوجه له أحد أي اتهام راح يقسم أغلظ الأيمان أنه لا يعرف أي شيء عن مصير الحقنة.. فقط هو كان يضعها في الحمام معلقة فوق ماسورة ماء الصدفة، وقد استعملها عشر مرات في يوم الجريمة.

ـ «في العاشرة مساء أمس دخلت الحمام مع عم (شحاتة) لأجري له حقنة.. لكنه غير موجود.. هنا فوجئت بأن الحقنة ليست في مكانها.. بحثت عنها حولي وفتشت كل مكان في القسم.. هكذا اضطررت أن أستعمل الحقنة القديمة..»

سأله المفتش (مكالستر) وهو يعيد شعل غليونه: «هل لاحظت أن هناك من يهتم بها بين مرضى القسم؟»

قال العامل: «كلهم.. منذ ظهرت بلونها الأزرق الجميل والجميع يشعر بها بإعجاب واشتهاء.. حتى إني أنذرت حكيمة العهدة من أنني أخشى أن تُسرق.. قالت لي إن هذه ليست مسئوليتها..»

بالنسبة للمفتش كان العامل بعيداً عن دائرة الاشتباه لأنه يتعرض لإغراءات كثيرة مع أجهزة أعلى ثمناً ومنذ أعوام طويلة.. يجب أن تنحصر دائرة الشك في الوجوه الغريبة عن القسم.

راح يفكر وهو يتأمل سحب الدخان:

ـ «هذه سرقة محيرة.. ما الذي يمكن أن يفعله امرؤ بحقنة شرجية قذرة استعملها العشرات قبله؟ إن بيعها صعب جداً على ما أظن..»

يمكن أن يسرقها المرء لو أراد أن يفتتح مستشفى خاصاً لكن هذا يعقد الأمور.. لأنه قد يؤدي لاتهام الأطباء كذلك.. وفجأة بدا أنه وجد طرف الخيط: طلب من الطبيب قائمة بأسماء المرضى الذين تقرر خروجهم اليوم.. كان هناك ثلاثة مرضى.. مريض منهم واسمه ([illegible]) يتلقى حقنة شرجية بانتظام

طلب المفتش أن يرى عم (بيومي) هذا . وكان المريض العجوز يجلس فوق فراشه الذى فرش عليه جريدة ، وفوق الجريدة انتثر خليط من الأرز والفول والخضار وبقايا الدجاج والخبز القديم .. طعام المستشفى مع الطعام الذى يرسله أهله .. إنه يجلس القرفصاء حتى لتحسب قدمه الغليظة الحافية صنفا من أصناف الطعام الذى يأكله .. جوار الرحل كانت أمتعته التى حزمها بانتظار قدوم أسرته ليعيدوه لقريته

– « بسم الله .. »

قالها عم (بيومي) بمسش سكوتلانديارد لكن هذا لم يرد المجاملة . ومد يده يعبث فى متاع الرحل ثم بحركة درامية مد يده الى لفافة صغيرة وفتحها ، وأمام عيون الجميع ظهرت الحقنة الشرجية الزرقاء . صاح الجميع فى ذهول غير مصدقين أن هذا العجوز الطيب يمكن أن يسرق شيئا ثمينا كهذا . ودمعت عينا عامل القسم وهو يدرك أن العجوز خدعه . لو كان الأمر بيده لشنقه هنا والآن ..

قال المفتش وهو يشعل غليونه فى رضا : « الأمر منطقى وبديهى يا عزيزى (واطسون) .. الحقنة الشرجية لن تُباع .. هناك فى الغرب نوع من الجنس الشاذ اسمه Enema sex لكنه غير معروف فى بلدكم لحسن الحظ .. إذن من سرق الحقنة سرقها لاستعماله الشخصى فقط .. كى ينظف قولونه فى بيته . هكذا ضيقت دائرة الاشتباه .. شخص يوشك على مغادرة المستشفى ويشعر بالذعر لأنه لا يملك ثمن حقنة شرجية يعالج بها نفسه فى بيته .. هكذا اختمرت فكرة الجريمة فى ذهنه وأحسن التنفيذ وكاد يفلت بفعلته لولا أن المفتش (مكلنسر) هنا »

كان العجوز يبكى بحرقة ، عندما تدخل الطبيب المقيم ملاحظا « إن كتبت لك الخروج صباح اليوم فمن أين جئت بهذه الوجبة ؟ »

بصوت خفيض اعترف العجوز أنه سرق صينية من الفتاة التى توزع الوجبات لأنه كان جائعا . وقد أضاف للصينية بقايا طعام أمس .. عمت سعادة الجميع بينما قال المفتش فى رضا وهو يلبس معطفه :

– « كانت من أعقد القضايا التى قابلتها فى حياتى المهنية . لكن خلايا عقلى الرمادية لم يعجزها أن تحل قضية الحقنة الشرجية .. »

كما قلت لك .. القصة واقعية تماما لو أنك حذفت المفتش لأن التحقيق قام به الطبيب المقيم نفسه ، وهى تثير أسئلة كثيرة عن مريض فقير وعامل فقير وممرضة فقيرة وطبيب شاب فقير فى واقع يزداد قسوة كل يوم .. عم (بيومي) الذى سرق حقنة شرجية باعتبارها نوعا من الرفاهية يستحق مكانه بلا شك ضمن المخلوقات التى كانت رجالاً .

من ضمن هذه المخلوقات وما دمت فى عالم المستشفيات ذلك الفتى الذى كان مصابا منذ أعوام بمرض مزمن نادر يجعله يبقى فى المستشفى فترات طويلة جدا . وقد لوحظ أنه يختفى من فراشه والمستشفى كثيرا ، ويعود محملا بأعذار لا تنتهى تدفع الطبيب المقيم إلى شطب عبارة (خروج هروب) التى كان قد كتبها فى كراسة العلاج .. لكن أشياء كهذه لا تظل سرا .. وقد انكشف الأمر عندما لاحظ أحد الأطباء شابا يتسول بقرب مسجد (السيد البدوى) على كرسى متحرك . ولاحظ أن الكرسى المتحرك قد كتب على ظهره بحروف واضحة (باطنة رجال) .. الفتى لم يكن يفر من المستشفى فقط بل كان يفر بالمقعد المتحرك كذلك ليستخدمه أداة للتسول ! .. بالطبع سببت هذه القصة صدمة لا حصر لها لعمال القسم ورجال الأمن الذين لم يستطيعوا فهم الطريقة التى كان يمضى

يخرج بها كل مرة . حدث هذا منذ أعوام طويلة فلا أعرف إن كان الفتى ما زال حيًا أم توفي لكني أعرف أنه كان مدمنا للبرشام كذلك . عندما تكون فقيرًا ومدمنًا فلا مفر من أن تتحول إلى لص أو متسول أو تاجر مخدرات .. هكذا تصير الأمور ....

ولنا لقاء آخر مع مزيد من المخلوقات التي كانت رجالا في الأسبوع القادم ..

مخلوقات كانت رجالاً (3)

هل تراها ؟ بالتأكيد يمكنك ذلك . من مكتبك في الشرفة وكوب الشاي في يدك . تراها وهي تمشي في الشارع صباحًا وتمارس عملها اليومي ..

ما هو عملها اليومي ؟ التنقيب في أكياس الزبالة طبعا . الأكياس السوداء عدو البيئة الأبدي والتي يضعها السكان كل ليلة أمام بيوتهم بانتظار عامل الزبالة ، وهذه الأكياس هي هدف هذه المرأة التي لا اسم لها ولا ملامح لها . إن وجهها مغطى بطرحة سوداء ، وهي تجد السير في حذر وقد تعلمت الكثير من طباع القطط الضالة وشراستها وحذرها وتوجسها ... مثل قط أسود كبير يفتح الأكياس ويبحث فيها عن شيء يؤكل شيء يلبس ... فردة حذاء قديمة هنا وكيس من الخبز انتهت صلاحيته هناك .

تعرف أنه لو رآها أحد السكان لشتمها وضربها ، لذا تختار هذه الساعة المبكرة من النهار حيث لا أحد سواها والقطط الضالة ، ومن خلفها يمتد أثرها ... أكياس فرغت من محتواها وقد اتسخ مدخل كل بيت من هذه البيوت . لكنها كما قلت تعلمت طباع القطط فلا يمكن أن يضبطها أحد أبدًا

من أين جاءت ؟ . أين تبيت ليلتها ؟ . الجواب سهل .. لقد جاءت من حيث يأتي هؤلاء .. تلك المخلوقات التي كانت رجالاً والتي تجدها في كل صوب وكل ركن ..

عندما تتوارى هذه المرأة القط تظهر ام (اية) ام اية تمارس عدة أعمال في وقت واحد ، فهي تنظف السيارات الواقفه في الواقع هي تريدها قدارة لكنها ترفع المساحتين علامة لا شك فيها على أنها أنجزت عملها تبيع الشاى لبائعي الخضر وعمال البناء في كل مكان تبتاع الخبز لربات البيوت عندما كان هناك خبز وتبتاع الخضر من السوق ، وأحياناً تجلس على الرصيف تقطف الملوخية أو تقور الكوسة لواحدة من ربات البيوت المشغولات لا يتم تنظيف أية شقة في الحي كله الا ووجدت ام (آية) تقف في الشرفة وهي توسع المراتب ضرباً احياناً تقوم بالصويت على من يموت من السادة كذلك وتشارك في عرس نسائهم .

بما أن الفقر والمرض والإدمان هم عجلات دراجة ثلاثية ، فإن ام آية لها ابنة مصابة بعيب خلقي في الصمام الأورطي واختها مصابة بسرطان القولون ، وهي نفسها مصابة بسقوط رحمي يجعلها تبول على نفسها باستمرار لكنها لا تملك ترف الاعتراف بالمرض لأنها ترتجف من اليوم الذى لا تقدر فيه على العمل.

قالت لي ذلك في اليوم الذى رأيتها فيه متورمة العين مع هالات سوداء كأنها حيوان (الراكون) الذى نراه في الموسوعات المصورة قالت لي إن زوجها أوسعها ضرباً لأنها لم تعطه المال الذى كسبته

ـ « كل مرة يصرف القرشين على الطينة والمية .. »

بسذاجة بدا لى تصرف هذا الرجل شعرياً إنه مولع بالزراعة إذن وهو اهتمام راقٍ ، لكنها ضحكت كاشفة عن فم لم تبق فيه سوى سن

واحدة وأخبرتني في صبر أن المية هي (البوظة) والطينة هي (الحشيش) هكذا رزقت هذه المرأة بالذات بزوج يحق كل مميم تكسبه على الكيف ، ولا يعمل على الإطلاق ، لتصدق عليه مقولة (سوفوكليس) في مسرحية أوديب) عن رجال مصر التي أثارت غيظي عندما قرأتها يوماً ما.

وبهذا فهمت سر سعادتها البالغة يوم رأيتها تمارس عملها برغم أن وجهها كله كان متورماً قالت لي في مرح حميمة كالعصفور

ـ « بالك ايه ؟.. مش أبو آية طلقني ؟ »

أبو آية يمكن الخلاص منه . لكن كيف يمكن الخلاص من الفقر ؟ ، كيف تعيش اليوم وحصار الحياة يزداد ضيقاً يوماً بعد يوم ؟ الله أعلم لكنك تراها بسهولة وهي تحوم حول محل الجزار القريب من دارنا تقف على بعد خطوات وتنظر للحم في اشتهاء ، وتكرر من دون مناسبة

ـ « كل سنة وانتو طيبين .. »

فتجهد ذهنك محاولاً تذكر أية مناسبة هذه ، لا توجد أية مناسبة دينية أو وطنية ، ربما هو عيد ميلاد الجزار ؟ تكرر (كل سنة وانتوا طيبين) مئة مرة وتحوم من جديد ، حتى تأتى اللحظة المصيرية التي يمد فيها الجزار يده لي قطعة لحم ترن خمسة جرامات ولا تقبل أن تأكلها قطعة محترمة ، فيضعها في كيس ويدسونه لها في استمرار تنطلق في منتهى السعادة عائدة بها لن تذوق ذرة من هذا اللحم . لكن أولادها سيفعلون لقد شفت هذه المرأة حتى لم تعد تريد أى شيء لنفسها من نعود تتعب لدس جاءت بهم للعالم

في وقفتها عند الجرار شيء يذكرني بالقطط الضالة .. القطط حتى تقف حول المحل مهمومة قلقة بدورها .. هكذا الفقر عندما يذيب الحدود لا بين الطبقات بل بين الأنواع نفسها ، حتى لنوشك أن نسمع ذلك القط الأجرب يقول لذلك القط الأعور : « لا ح ملقاط والا هحم ٣ » وتوشك ام آية أن تموء ..

تنصرف أم (آية) ، فقط ليحتل مكانها أمام الجرار ابو (عماد) و ابو (صلاح) .. معدل التقاطر قد صار عالي جداً .. متوسط كل ثلاث دقائق ..

من نهاية الشارع يرى (رضا) الصغير ذو ستة الأعوام قادماً والمكواة تحت ابطه على قطعة خشب كانت مسند مقعد ، وهو يرفع ذراعه عالياً بشجاعة عليها سروال مكوى .. مغامرة من يتمكن الا يمسح طرف السروال بالقذر برغم قامته القصيرة . وهو يدق جرس الباب ثم يستعيد من وقته بأن يشوط قطعة طوب صغيرة الى أن تفتح الباب .. (رضا) يتمنى ان يلعب طيلة اليوم ، لكن أباه يريد فعلا المبلغ البسيط الذي يحصل عليه من هذا العمل ، فعلك من أن الاسطى (بيومي) ليس سيء ولا يضربه كثيراً .. تفتح له الباب ربة البيت وسأله عن الثمن ، لكنه مهتم اولاً بأن يستعرد الشجاعة .. هذا اهم ما في الموضوع والسبب الأول لتلقيه الضربات .. صوت البيم بام طاخ طوخ يلفت نظره بشدة فيطل من فرجة الباب ليرى طفلين بثياب حسنة يلعبان (بلاي ستيشن) ، فينسى نفسه ويزحف بضع خطوات ويندمج تماماً مع الشاشة حيث دراجة نارية تطارد سيارة وتطلق عليها النار

يتمنى أن تتأخر ربة البيت قليلاً لكنها تعود سريعاً وتعطيه المال وتفاحة فاسدة وجدت أنه من الأفضل أن تعطيه له بدلا من رميها .. بهذا تجمع

بين الإحسان والتخلص من التفاح الفاسد .. وينصرف رضا الصغير .. يعنيه أنه صغير السن جداً .. لا يعنيه الأسئلة الكثيرة عن الغد وكيف سيتعلم ويتزوج ويسكن .. لا تعنيه حقيقة أن هذه الأسرة التي تبدو ثرية قد بدأت تئن بدورها من الغلاء .. كل هذا لا يعنيه .. ما يعنيه هو أنه سيعرج على الحارة الغربية ليلعب الكرة لشرب مدة عشر دقائق مع الأولاد ثم يعود .. وسوف يرغم للاسطى أن صاحبة البيت هي التي أخرته .. إن المستقبل رائع .. رائع لدرجة لا توصف ..

مخلوقات كانت رجالاً (4)

موكب الزفاف الفاخر يتقدم نحو مدخل قاعة الأفراح الكبرى، والعريس والعروس يتظاهران بالسعادة، يحيط بهما أفراد الأسرة والأصدقاء، وقد خرج الجميع لاقتناص الفرص.. ابن فلان بيه وابنة علان بيه.. إنه حدث مهم حقًا.. هناك تلك الفرقة التي تقوم بالزفة، وهم كالعادة مجموعة من العتبة يحملون الدفوف وفي وجه كل منهم أثر من مشاجرة قديمة بالمطاوي. ولا تفهم أي حرف من أي شيء يشدونه سوى أن كل مقطع ينتهي بكلمة (الليلة).. يضغطون عليها لتعطي إيحاءات بذيئة غامضة.. من مكان ما تدوي زغروده ويقذف أحدهم بقطع الشيكولاتة الفاخرة فوق العريسين فتتساقط على الأرض.. هنا من مكان ما وبطريقة ما ظهر هؤلاء الصبية الثلاثة بثيابهم القذرة المرقعة.. وثبوا كالقرود من وراء الأشجار ليقبضوا على قطع الشيكولاتة على الأرض.. فما إن استعاد القوم رشدهم حتى انهالوا بالركلات على هؤلاء الثلاثة.. هؤلاء الأوغاد الذين شوهوا صورة الفيديو وطابع الرقي العام..

ـ « وله يا ابن الـ.... وسع يا له ! »

للركلات ميزة مهمة هي أنها تبقيك بعيدًا عن هذه القذارة.. لا تتسخ بدلتك ولا يداك.

لكن الصبية تلقوا الضربات وهربوا وهم مفعمون بالسعادة.. لقد امتلأت الأيدي بالشيكولاتة وهذا هو ما يهم في الوقت الحالي.. صديقي الأديب كان واقفًا ضمن الواقفين فنظرت له ونظر لي وعرفنا أننا نفكر في الشيء نفسه.. قلت له هامسًا: « (جوركي) ينادي؟ » أي أنني

تخيلت ما كان (مكسيم جوركي) سيكتبه لو رأى هذا الموقف.. هؤلاء الصبية آتون من عالمه بلا شك.

من أين يأتون فعلاً؟ إلى أين يذهبون؟ لا أحد يعرف.. بعد أن يأكلوا الشيكولاتة سوف يبحثون عن شيء آخر يسرقونه، ثم يعدون في الشارع إلى أن يظفر بهم (توربيني) آخر يغتصبهم فوق سقف القطار التوربيني ثم يلقي بهم من فوقه ليموتوا.. هذا بالنسبة لسعداء الحظ منهم.

بالطبع كل هذه القصص واقعية تمامًا ولا دور للخيال فيها، لكني قمت بتغيير الأسماء.. لم أنس بعد قصة (عادل) مريض الصدر الذي كان مصابًا بعدة كوارث في الرئتين، وقمت في حصة علمية بعرض صورة الأشعة الخاصة به وعليها اسمه الكامل.. يومها قالت لي د. (وفاء شيمي) أستاذ الأمراض الصدرية: "كان يجب أن تحذف الاسم.. هو مش كفاية اللي هو فيه؟".. لم أنس عبارة اللوم هذه قط، وتذكرت أننا أحيانًا نعامل هؤلاء التعساء كأشياء حتى إن لم نتعمد القسوة.

عم (حسن) واحد آخر من تلك المخلوقات التي كانت رجالاً..

بواب البناية العجوز الطيب.. إنه واحد آخر ممن يعملون كل شيء في كل وقت لأي شخص.. يعيش مع زوجته وابنه في المدينة بينما يترك بناته مع عمتهن في قريته.. إنه لا يستطيع أن يطمئن لوجود بناته المليحات مكتملات الأنوثة في هذه المدينة المليئة بالشباب الرقيع.. الشباب الذي يحلق شعره ويركب سيارات فاخرة (مه حاياها نبه) يصدر منها صوت غرملة عالية.. هذا دليل كاف على رقاعتهم.. وعندما يمسح سيارة واحد من هؤلاء بالمشقة فإنه يعرف يقينًا أن هذا غني ذاهب لممارسة تكبر

بأنواعها .. لا ، لن تصمد أية بنت من بناته أمام وعد من هذا النوع

فقط يسمح لابنه بأن يوجد هنا معه ، وقد لمحت الطفل ذات مرة فأدركت أنه مصاب بمرض عضال .. لا أعرف ما هو بالضبط لأنني لست خبيرًا في أمراض الوراثة لكنه كارثة .. ولهذا أرسلته مع عديد من التوصيات إلى أحد أساتذة طب الأطفال من أصدقائي .. افعل كل شيء ولا تأخذ منه مليمًا .. أرجوك ..

يتصل بي أستاذ الأطفال مذعورًا بعد ما رأى الطفل ، هذه حالة لابد من دخولها المستشفى حالا . إنها حالة متقدمة من المرض النادر العلاني ، ولابد من أن تكون في المستشفى هنا والآن ، وإلا فهو غير مسئول عما سيحدث ..

لكن عم (حسن) يرفض .. يرفض بإصرار .. يقول لي :

ـ « سعادتك أنا مش عايز له دخول .. أنا عاوز شوية برشام وبس »

أؤكد له أننا تجاوزنا هذه المرحلة منذ زمن ، وأنه لن يدفع مليمًا لأن المستشفى مجاني ، أستاذ الأطفال وعد بألا يدفع الرجل شيئًا . لكن عم (حسن) مصرٌّ .

هنا فقط أفهم الحقيقة .. قدر الحياة سريع لا يسمح له بالتقهقر أمام مرضه أو مرض أحد من أسرته .. معنى دخول المستشفى هو أن يستغني عن زوجته عدة أيام لأنها ستكون مع الطفل .. حياته لا تسمح بهذا الترف هناك أفواه جائعة في القرية تحتاج إلى من يطعمها . وهناك فتيات لابد من تزويجهن وتجهيزهن . وهو لن يقدر على ذلك في غياب زوجته .. إنه

النقطة الثانية الأهم فهي أن الطفل بحالته الحالية يتيح له الظفر ببعض ذوي القلوب الرحيمة ، أما دخول المستشفى فهو الخراب التام .. لم أصدق هذا التصور حتى أكده لي عدد من سكان العمارة .. الرجل ليس راغبًا في علاج بل هو راغب في التسول فقط ، لو أردت أن تخدمه فلتعطه ما تيسر من مال من جيبك . لكن لا تتفلسف بعقلك المترف الذي أتلفته الكتب ، ولا تزد متاعبه وتشعره بأنه أب مقصر ..

من الغريب أن أعترف أن الرجل صار يتحاشاني .. كالطاعون .. لقد كانت حياته تسير على وتيرة منتظمة قاسية لكن يمكن التنبؤ بها ، فجئت أنا لأشعره بأنه مقصر وأن هناك الكثير مما يقدر على عمله .. هكذا لم يعد يطيق رؤيتي ، ولم أر طفله مريضًا وحيًّا بحجرة ما

المخلوقات التي كنت أحكي عنها .. هذه المخلوقات يرغمها القهر أحيانًا على أن تفقد بعض آدميتها . من ثم تصير أكثر قسوة .. هذه القصة لم أمر بها لكن أحد الأطباء من أصدقائي الموثوق بكلامهم تمامًا عاشها كاملة بما تطرحه من علامات استفهام .. الصغير (جمعة) مصاب بالتهاب رئوي متقدم وهبوط في القلب .. أمه فلاحة تعسة ضئيلة مذعورة يبدو أنها تعيش بمعجزة ما .. تم دخول الرضيع إلى قسم الأطفال وقلبه يكافح كي يسعف كل نبضة . وتم وضع قناع الأكسجين على أنفه الصغير لأنه الشيء الواهي الذي يبقيه حيًّا .. جوار فراش (جمعة) أم أخرى محنكة أكثر فقرًا تجلس ورضيعها في حجرها وكان قد شفي تقريبًا .. إنها تراقب جارتها المذعورة أم (جمعة) ، وتمصمص بشفتيها و[illegible] بكلمة (يا شابة) أو (يا دلعدي) ..

صديقي الطبيب يجلس في مكتبه ، وأم (جمعة) تترك رضيعها على الفراش إلى أن تجد دورة المياه في تلك الممرات المظلمة ، وتطلب من جارتها المحنكة أن تعنى به . ينهض الطبيب ليدخل العنبر فيفجأ عشهد لا يفارق كوابيسه . (جمعة) الصغير مقلوب على ظهره كسلحفاة أزرق اللون يجاهد طلبًا للهواء وصدره يعلو ويهبط بطريقة مثيرة للشفقة . أما قناع الأكسجين فقد انتزعته الأم المحنكة ووضعته على أنف ابنها هي ! لقد اعتقدت أن الأكسجين شيء ثمين ومفيد للجميع ، لهذا قررت أن تسرق بضعة أنفاس منه لرضيعها في غياب أمه . لم تكن تنوي ترك (جمعة) حتى الموت . بالتأكيد كانت ستعيد القناع في الوقت المناسب ، لكن الفقر يولد غريزة (الاستحواذ) حتى لو لم يكن رضيعها بحاجة لهذا .

وما زلنا مع المخلوقات التي كانت رجالاً

مخلوقات كانت رجالاً (5)

خبر شديد الروعة نشرته جريدة الأهرام في 16 سبتمبر 2007 ، وهو يحكي التالي بالحرف :

« تعرض أحد تجار الصاغة بالعريش لسرقة منزله أثناء خروجه لشراء بعض الاحتياجات ، هذا على الرغم من إحكام وإغلاق النوافذ والأبواب لأنه يحتفظ بالمجوهرات داخل منزله . وبعد ساعة ونصف فقط عاد فوجد جميع المصوغات وتقدر بـ 250 ألف جنيه قد سرقت . أمر اللواء منتصر شعيب مدير أمن شمال سيناء والعميد علي أبوزيد مدير إدارة البحث الجنائي بتشكيل فريق بحث برئاسة الرائد أحمد رمضان رئيس مباحث قسم ثاني العريش ، وتبين أن أحد الطلاب وصديقًا له يقيمان بجوار منزل الصائغ شوهدا بعد السرقة مع مجموعة من أصدقائهم »

حتى هذا . هذا ما اعتدناه في الحوادث المماثلة . طبعًا شوهد السارق وصاحبه في أحد الملاهي الليلية يشربان أغلى الخمور ويغدقان سخاء على الراقصات والليالي الحمراء . لكن الخبر يقول :

« شوهدوا بأحد المطاعم الكبرى بالعريش يتناولون شاورمة ويشربون مياه غازية عالية الثمن ، وبسؤالهم عن مصدر النقود التي بحوزتهما انهارا واعترفا . ولطرافة أن أحد اللصين وجه العتاب لزميله أثناء التحقيق : قلت لك بلاش شاورمة البوليس هيشتبه فيك . وأنت صممت عليها . هم قبضوا علينا »

يا نهار أسود ! حتى اللصوص تدنى حالهم إلى هذه الدرجة ؟ لم

يقبض عليهم وهم يعبثون القمار في فندق فاخر . ولكن قبض عليهم وهم هذان الوغدان الشرهان يأكلان الشاورمة ويشربان المياه الغازية عالية الثمن . ثم ما هي مياه الغازية (عالية الثمن) هذه ؟ (كبر) يعني ؟ وهل أكل الشاورمة صار مصدر اشتباه يدفع مخبري الشرطة للشك في مصدر هذا الثراء ؟.

هذان اللصان أكثر غباء وبؤسًا من أية صحيفة محترمة ، والدليل أنهما جائعان . سرقا ربع مليون فكان أول شيء فعلاه هو شراء ساندوتشي شاورمة . والمفتش الفطين يعرف جيدًا أنه قد جرعه شيئًا من كل الشاورمة ، حتى أنه يوجه اللوم لصاحبه على هذا الاستعراض الأحمق الذي قام به . ليس عندي تفسير لغرابة هذا الخبر سوى أن يكون ساندوتش الشاورمة في العريش ثمنه خمسة آلاف جنيه ..

تذكرت صديقًا يعد نفسه أنه لو رزق بمليون جنيه . فلسوف يكون أول شيء يفعله هو شراء كيلو من الكفتة والهمهمة وحده ، دون أن يشعر بتأنيب الضمير الذي يلازم المصري من الطبقة المتوسطة عند التهام اللحوم

تغير أنماط اللصوصية ، والاهتمامات غير العادية لدى اللصوص شر دهشتي وتعطي فكرة أفضل عن التغيرات الاجتماعية في الفترات الأخيرة حكيت عن سرقة الخبز من الطابور بطريقة (خطف واجري) ، وبعد هذا قرأت عن عصابة متخصصة في السطو على الخبز . هناك تنظيمات عصابية كاملة مهتمة بسرقة أغطية البلاعات . السؤال المنطقي هنا هو مدى الاستفادة من غطاء بلاعة . لكن الإجابة هي أنها ثروة ثقيلة من الحديد الزهر يسهل بيعها . وهكذا تتحول الشوارع ببطء إلى غربال مليء

بالثقوب ، ونسمع عن السيدة الوقور التي مشت في شارعها ليلا فسقطت في بالوعة . لا تنس أن هناك من يسرق اللمبات من أعمدة النور كذلك . هكذا وجدت هذه السيدة الوقور نفسها في موقف لا تحسد عليه . بينما سائق سيارة نصف نقل ابن حلال يربطها بحبل غليظ (سلبه) ويعدون مع أولاد حلال آخرين على إنقاذها

هناك تلك القرية قرب مدينتي التي استيقظت على رائحة عطنة تجتاح المكان . وبالتدقيق والبحث اتضح أن هناك عصابة تخصصت في سرقة بوابات المقابر الحديدية . يعني تصحو القرية لتجد أن كل مقابر أعزائها مفتوحة . ومن عن المطب الصناعي الذي اضطروا لإزالته لأن هناك من يسرق في كل مرة اللافتة التي تنذر بوجوده . هكذا تكررت حوادث كلما اندفعت سيارة على الطريق السريع ستكتشف المطب فجأة . فيضغط سائقها الفرامل وينقلب . ماذا يمكن عمله بلافتة كتب عليها (احترس أمامك مطب صناعي) ؟ هناك بالتأكيد جهة ما تشتري هذه اللافتات ومعها كل أغطية البلاعات وبوابات المقابر ..

يعود ابني من الدرس الخصوصي مذعورًا ليخبرني أن صديقين له كانا يغادران البناية التي يقطن فيها المدرس ، عندما فوجئ أحدهما بمن يضع نصلا حادًا تحت عنقه من الخلف ويأمره بأن يعطيه هاتفه المحمول وما معه من مال . ثم يفر هاربًا ليكرر نفس ذاته بعد يومين . يحدث هذا في شقة بعد الظهر في أحد أهم شوارع مدينتي وأكثرها زحامًا ، وتم حدث في شارع مهجور مقفر ليلا . تخبرني أمي أنهم جيرانو (المستر) لدى كل مدرس (يخيب) حسن الحظ . هذا أحد الفرحين بعشاق الذي يدرسون به ولدي يصبح كرمح . وينبثق في الشارع سحب من

اللص طبعًا لم يجده أحد . لابد أن هذا اللص مخلوق كان رجلاً يومًا ما ، ولابد أن العجز أودى بعقله حتى يفعل هذا كله في الزمان والمكان الخطأ

في كارثة تسرب أسئلة امتحان الثانوية العامة في المنيا ومصر كلها على الأرجح نكتشف أن المتهم الأول وهو رئيس لجنة ، قد حصل على رشوة من أربعة متهمين مقابل تسريب أسئلة امتحانات الثانوية العامة هذه جريمة شديدة الخطر فلابد أنه تقاضى مليون جنيه على الأقل مقابل هذا .. لكنك تكتشف أنه فعلها مقابل 3600 جنيه كما ورد في جريدة الدستور عدد 27 يونيو صفحة 3 . هذا نموذج فريد للسرقات الرخيصة كما كانوا يقولون .. الشرف عال يجلب ثروة حقيقية لمن يبيعه .. لكننا في هذه الحالة نقابل من يبيع الشرف بأرخص الأثمان أو بلا ثمن تقريبا

ألا ترى معي أن هذه مخلوقات كانت رجالاً فعلاً ؟

وماذا عن ذلك الشاب الذي يقف على باب دورة المياه العمومية ليناولك قطعة صابون ومنديلاً ورقيًا مع ابتسامة متملقة ؟ طبعًا من أجل ما سوف تلقى به في علبة المناديل الفارغة جنيه .. باختصار هذا شاب مفعم بالطاقة والنشاط صارت مهنته في الحياة أن يتأكد من أنك قضيت حاجتك جيدًا .. الشاب الآخر الغارق في العرق والغبار الذي يدق نافذة سيارتك ليعدك بأنك لو اشتريت زجاجتين من منظف الأرضيات الفلاني فلك زجاجة ثالثة هدية .. وماذا عن الشاب الذي يستوقفك وأنت متعجل ليسألك وهو يسد الطريق سدًا عن (المتحف الفرعوني الذي شد من أجله تمثال رمسيس) تقول بذكاء : رمسيس يا أخي .. فيصيح في انتصار مبروك .. أنت فزت وسوف تحضر حفلنا غدًا وتنال جوائز قيمة ، لكن

عليك دفع عشرة جنيهات كتأمين .. في الحفل سوف تعرف الكثير عن نظام (التايم شير) الخاص بـ ، وكيف يصير ذلك الشاليه الجميل ملكك للأبد أسبوعًا كل عام ..

ابتلع ريقي وأفتح النافذة طلبًا لنسمة من الهواء النقي .. هذه المخلوقات التي كانت رجالاً تتكاثر وعليك أن تجدها في كل ركن وتحت كل حجر سوف تأخذ حقها في الحياة بأي شكل ممكن عندما تدرك أن الموت لأطفالها محتوم ولا مفر منه .. أكثرها ما زال يقاوم بعناد مثل [illegible]) وبعضها خرج على الناس شاهرًا سيفه فعلاً .. إما أن تجد نفسك بينهم غدًا وإما أنت عدو لهم ..

[illegible] سويسرا ؟.. أرجو من الإخوة الاقتصاديين العباقرة أن يردوا

عصر مراد بيه

يحدث الصبي ذو السنوات العشر صخب في فصل مدرسته الخاصة فتنهره المعلمة، لكنه لا ينتهر ولا تحمر أذناه بل ينظر في عينيها بتحد، ويقول ضاغطًا على كل كلمة من كلماته:

ـ «انت مش عارفة بتكلمي مين... بابا يبقى مين... إن أهلي هم اللي بيدفعوا لك المرتب... وحياة أمي بكره مش حتشوفيني في المدرسة دي».

تصاب المعلمة الشابة حديثة الخبرة بحالة جنون هستيري ممزوج بالدموع، وتقتاد الصبي إلى مدير المدرسة الذي يتصل بأبيه... طبعًا كنت يعرف بقية القصة... الأب (مراد بيه) يأتي للمدرسة ويكيل تقريعه على المدرسة ومدير المدرسة ومن يتيسر من تلاميذ أو عمال، ويكرر ما قاله ابنه من أن كل هؤلاء يتقاضون رواتبهم من جيبه، وأعرف هو أن شيئًا لا يحدث للصبي على الإطلاق... فقط تطلب المعلمة أن تتم نقلها فلا تدرس لهذا الفصل ثانية... أي أن تهديد الطفل قد تحقق بشكل ما لو أردت أن تأخذ الأمور بشكل متشائم..

من هو (مراد بيه)؟... هو شخصية ذات نفوذ وإن كان أحد لا يعرف مصدر نفوذه بالضبط... ترى على ملامحه ذلك المزيج الفريد من الصفاقة والغلظة والغرور الذي يفوق الحد، وقد تعلم تلك النظرة البوليسية الموحية بالدهاء وهي تقول: «انت مش عارف بتكلم مين»... يجيد الدهاء وهو يفتح باب سيارته المرسيدس ليتشاجر مع هذا أو ذاك...

لقد تضخم (مراد بيه) في حياتنا إلى حد غير مسبوق... سيطر على

كل مكان وكل مرفق... إنها الروح القبيحة التي تضخمت في مجتمع والاستهانة بالقانون... ما دمنا نحن من يرتكب الأخطاء ويؤذي فكل شيء على ما يرام والحياة حلوة... الجرم كل الجرم أن نؤذى بفتح الدال

مصر قد تحولت اليوم إلى فصل كبير من فصول هذه المدرسة الخاصة فصل لا يحترم أحدًا ويزرع في عقول أطفاله أن عدم احترام القانون هو جزء من السمو الاجتماعي... نحن أكبر من المدرس... أكبر من القانون الضعفاء والفقراء فقط هم من يحترمون المدرس ورجل الشرطة ويقفون في الصف. بينما نحن سادة (بنو مخزوم) ومن يجرؤ على الاعتراض ميت

الأمثلة على ذلك كثيرة، وفي جعبة كل منا العشرات منها، لكني على سبيل المثال لا الحصر أذكر موضوع تقاطع شارعي (بطرس) و (سعيد) الذي يعرفه كل من يسكن في مدينة طنطا... منذ أعوام وعند التاسعة مساء تعرف ستلقى في هذا الموضع عشرات من سيارات الشباب ... هم يسدون الطريق تمامًا ويقفون خارج سياراتهم وأبوابها لا تزال مفتوحة، والموسيقا تكسير عظام حقًا وهم يتبادلون المزاح... لا يستطيع من يريد المرور عمل ذلك إلا بصعوبة وبعد ضغط آلة التنبيه عشرات المرات إلى أن يتنازل أحدهم ويتحرك بها في قرف شديد. أما بعد فقد علمت أن يحصل هذا التقاطع بأي ثمن... الملحوظة المهمة هي أن أغلب لوحات السيارات تحمل رقمين أو ثلاثة لا أكثر. وهناك عدد من النسور واللوحات السود والزرقاء الفيميه... بينما يقف شرطي مرور ريفي بائس من طراز (بابا سوحة) على بعد ثلاثة أمتار منهم عاجزًا عن عمل شيء، فيكتفي بالتعرض لمن لا يخرج... لا يريد أن يحترق. ولابد أنه يذكر أمثلة كثيرة... لهذا فضلنا على ... هذه

المظاهرة أو عوقبوا وكل سائق أجرة يعرف أنه من المستحيل تفرقة هؤلاء لأن كل واحد فيهم ابن اللواء (مراد بيه) أو ابن المستشار (مراد بيه) ونحن نعرف كيف ينهي كل كمين شرطة ببضع مكالمات بالموبايل و(كلم مراد بيه على التليفون) فإذا رفض الضابط أن يضع الموبايل على أذنه ، صاح الفتى في السماعة يا مراد بيه الضابط مش عاوز يكلمك هكذا يتلقى الضابط المغتاظ المكالمة واللوم ويعيد الرخصة للفتى حكاية جديدة تضاف مسبحة غرور الفتى وثقته بنفسه فوق أي قانون ، وقصة جديدة يتفاخر بها في قعدات الباتيو ..

سيارة تتوقف في مكان ممنوع وحيث [illegible] ، فيعترض رجل الشرطة [illegible] من سيارة رجل ضخم فخم [illegible] وينزع [illegible] الأسود [illegible] الخروج . ويقول [illegible] تهديد [illegible] المستشار [illegible] زعم أن كلمة مستشار [illegible] عليه كي [illegible] في احترام القانون [illegible] الشرطي [illegible] هو [illegible] هو [illegible] من دهشة [illegible] الوردية لما عرف كيف يعود ولمات حوعًا

وفي [illegible] قدف [illegible] سيارته [illegible] ، فبقي [illegible] في ربع ساعات لأن أحدًا لم يجرؤ على [illegible] قد فعل هذا ، فهو على الأرجح [illegible] مراد بيه [illegible] قد يكون وزيرًا أو عضو مجلس شورى أو لواء كبير في الداخلية [illegible] هو صاحب مارينا نفسه

المستوى الآخر الذي بلغته المشكلة هو الادعاء كل الناس تعلمت كيف تتصنع أنها تمت بصلة لـ (مراد بيه) لي صديق متأنق يجيد التمثيل ، ويعرف في كل كمين مروري كيف يدعي أنه المستشار (مراد كذا) وقد ساعده الملصق الموضوع على زجاج سيارته والذي لا ينوي أن ينزعه أبدًا صارحته بأنها مخاطرة وأنه لو طلب منه رجل الشرطة هويته لوجد نفسه في مأزق ، فقال في ثقة إن هذا مستحيل لا أحد يجرؤ على طلب هوية (مراد بيه) دعك من تلك النظرة الأمنية الغامضة التي تعلمها من أفلام (مراكز القوى)..

إنه ذلك الإحساس بعدم فعالية القانون ، وأن هناك طبقة فوقه ، وأن إجراءات التقاضي بطيئة . فإن تمت صار لديك حكم لا جدوى منه وعليك أن (تبله وتشرب ميته) وكما يقول الغربيون إن لم تستطع هزيمتهم فانضم لهم لا جدوى من هزيمة هؤلاء الذين صاروا يملكون مصر فعلا . فلا مناص من الانضمام لهم بشكل ما عن طريق النسب عن طريق المصاهرة عن طريق لوحة سيارة عليها رقمان أو ثلاثة لا تقبل أن تبيعها مهما عرض عليك من مال

هناك حل آخر هو البلطجة بعض الناس سيأخذون حقهم بأيديهم ما دام القانون لن يعيده لهم منذ أيام استعمل أحد رؤساء الأحزاب أستاذ قانون مجموعة من البلطجية يقتحم بهم مقر الحزب ، لأنه امتلك حكمًا لا يستطيع تنفيذه وهو مؤشر خطير جدًا على تراجع سلطة القانون واحترامه أعتقد أن حوادث العنف سوف تتزايد باستمرار مع نمو هذه الطبقة وتنامي سلطة (مراد بيه) من لا يملكون مراد بيه سوف يلجئون إلى (شوكة) و(سيد سوابق)

لماذا تتسابق الأسر على أن يدخل أبناؤها كلية الشرطة؟ هناك أسباب كثيرة لكن أهمها أنها تريد أن تملك (مراد بيه) خاصًا بها والذي تخيف به الفواسين.. ولتحقيق هذا تتصل بـ (مراد بيه) حتى ليسهل لها أن يصير ابنها (مراد بيه).. كل أسرة تريد أن يكون عندها وكيل النيابة والمستشار فإن لم تجد واحدًا ناسبته أو تحككت في قريب بعيد.. هكذا تستطيع أن تخالف القانون كما تشاء.. وترى السيدة تحدثك في فخر عن قرابتها لـ (مراد بيه) في الجمارك و(مراد بيه) في أمن الدولة و(مراد بيه) في دار القضاء العالي و(مراد بيه) في قسم (الساحل).. حتى كأنها من هواة جمع الطوابع تحدثك عن مجموعتها الخاصة من الـ (مراد بيهات).

والمشكلة في مصر أن الأمر تجاوز مجرد ظاهرة الخبراء.. إن النجاح الاجتماعي صار يعني قربك من القدرة على خرق القوانين.. مثل: أحيانًا لقد تعبت كثيرًا حتى أبلغ مكانة تسمح لي بمخالفة القانون ولن أسمح لواحد من العامة بأن يحاسبني..

لقد وصل الدرس كاملاً إلى ابني (مراد بيه) وإلى كل طفل في ذات الصف معه.. لأنه سيصير هذا يومًا؟ والآن سيصير زملاؤه ... مواجهة بين ... واحترام ... من يقدر؟ الآن سيصير الجميع بعد عشر سنوات.. لا أتمنى أن أكون موجودًا لأعرف..

على سبيل التفويل

لأسباب تتعلق بالعمل، اضطررت ذات مرة إلى العودة من القاهرة إلى طنطا في ساعة متأخرة بعد رحيل آخر القطارات.. وهكذا ركبت إحدى سيارات الميكروباص الواقفة في ميدان رمسيس والتي يعتبر رجال المرور على أنه لا وجود لها.. منذ البداية لاحظت أن السائق محمر العينين يتكلم بانضباط على طريقة (اللمبي).. نموذج فريد جدًا يصلح لشرح الإدمان لطلبة الطب.. شاب عجن شعره لأعلى بالفازلين، وارتدى سروالاً جينز ويبدو حوله هالة متقدمة من الإحساس بالفتونة والعافية والفخر بشخصيته.

وانطلق الميكروباص في تلك الرحلة السوداء التي تمكنت أن تتخيلها.. بسرعة جهنمية حتى شعرت أن الميكروباص لا وزن له تقريبًا.. ... حيث لا يعني أن تعرض.. الأضواء كلها مصفاة على سبيل الزخرفة.. كل قاعدة مرور في الكتاب خرقها هذا الفتى.. بسرعة في المنحنيات برغم أن أول قاعدة قيادة سمعتها في حياتي هي التهدئة في المنحنيات.. من ثم يتحول الميكروباص إلى درجة ... يجري على عجلتين.. وعند مدخل أحد الكباري كانت أمامنا مقطورة لا تكف عن ... هكذا صارت قصة حياته أن يمر من جهة اليمين.. وإلا فقد رجولته وكرامته.. اقترب جدًا وأوشك على المرور إلا أنه أدرك في آخر لحظة أن الثغرة لا تكفي وأن معنى المحاولة هو ... هكذا داس على الفرامل.. لكن الأمر لا ينتهي عند هذا الحد.. إنه كأي شخصية نفسية يعتقد أنه على حق.. يخرج رأسه من النافذة ويسب سائق المقطورة بشتائم لا يمكن أن نسمح بها.. ولكن ... قرر أن ... ويبدأ قبل أن يفعل بخمس دقائق.

من حديد اندفع للأمام ليضغط على سيارة ملاكي تمشي أمامنا ضغط عليها جدًا إلى درجة أنه اضطر للفرملة بعنف بعد ما أوشكت الكارثة على الحدوث .. من ثم أخرج رأسه من النافذة يسب سائق الملاكي وكيف أن (أمه حاياها له) وإنه بالتأكيد رجل مترف رائق البال ذاهب لممارسة الزنا أو عائد منه .

أين الرادار الليلي الذي صدعونا بالكلام عنه ؟ ولماذا أرى كمين مرور للتفتيش على الأحزمة كل دقيقة في الصباح بينما معظم الحوادث تقع ليلاً ؟ بهذه الطريقة في القيادة ليس الغريب أن يقع حادث من وقت لآخر .. المعجزة الحقيقية ألا يحدث حادث كل دقيقة .. المعجزة ألا تكون لدى كل سائق ميكروباص مرة واحدة يقود فيها في حياته لم يموت ويميت غيره ، وكلهم يتوق إلى أن يرى خطأ هذه !

(خلص) و (خطفها) .. كلمتان هما السبب الدائم لمشكلة المرور في بلدنا .. كل حادث لابد أن سببه واحد أراد أن (يخلص) أو وجد فرصة وأراد أن (يخطفها) .. حتى هذه اللحظة كنت أرى الركاب هادئين مستسلمين كالخراف . وقد قال لي أحد الجالسين جواري :

« هو دايمًا يسوق كده .. ما تركزش وبإذن الله نوصل بالسلامة »

لكن صبري كان قد نفد . فلو كان هذا المخبول يتوق إلى تدمير الميكروباص والانتحار فهذا شأنه ، أما أنا فليس ضمن برنامجي أن يصير أطفالي يتامى بسبب مدمن أفرط في شرب (التوسيفان) أو تلك الخلطة اللعينة التي يطلقون عليها (مزاج العربجي) ..

صارحته برأيي في قيادته وكيف أن الميكروباص كاد ينقلب سبع مرات على الأقل .. فقال في غلظة وتحد :

ـ « مش انت اللي سايق يا أستاذ .. أنا اللي واخد الدركسيون وعارف أنا بعمل إيه بالضبط .. يعني أنا عاوز أقلب عربيتي ؟ »

أخبرته بحقيقة حسبتها مفهومة ، هي أن كل من انقلبت به السيارة كان يدير عجلة القيادة ويعتقد أنه يعرف ما يفعله .. وبالتأكيد لا أحد منهم تمنى أن يحطم سيارته ..

كل هذا مألوف للقارئ ولا يبرر كتابة هذا المقال . لكن ما ليس مفهومًا هو تلك الثورة العامة التي عمت السيارة . وكيف هبت كل تلك الخراف النائمة تصيح بي غريبًا من الغضب الحقيقي ومداهنة السائق

ـ « يا عم ما تقولش .. اتف من نفسك .. بشروا ولا تنفروا ! »

كان رأسي يوشك على الانفجار من الغيظ .. تأمل معي هذا المنطق المتحدير هو الذي سيقلب السيارة ويرسلك إلى الجحيم ، بينما كل هذا الذي يمارسه السائق شيء طبيعي والرجل يعرف ما يفعله .. الحوادث لا تقع لأن هناك مستهترين ، وإنما لأن أمثالي من الأفندية كغربان البين يصرون على (التقويل) ..

طبعًا تمت الرحلة على خير بدليل أني أكتب هذه السطور ، وإن حققت رقمًا قياسيًا جديدًا هو ساعة إلا الثلث من القاهرة لطنطا . لكن هذه القصة ذكرتني بقصة للراحل العظيم (يوسف إدريس) اسمها (سوبرمان) ، عن أستاذ ... الذي اعتاد ركوب الأتوبيس المزدحم ، وفي يوم راقب مشهدًا ... رجل يتحرش بامرأة إلى درجة مخوسة ... ثوبها .. هنا استغاثت ... ركاب الحافلة كلهم على من ... سيارة في أول فرصة .. هذا السلوك الجماعي ... يصنعون

عالم الأنثروبولوجي، فسأل الناس بصوت جهير عن سبب هذا التصرف
كانت النتيجة أنه تلقى علقة ساخنة وألقي من الأتوبيس بنفس الطريقة

السلوك الجمعي يتخذ مناحي غريبة أحيانًا، وهو في قصتي يكشف
الكثير عن مفهوم القدر في عقولنا. في هذا المفهوم يعتبر الحذر من
الحوادث هو سبب الحوادث، ولا يوجد ما يمكن منعه على الإطلاق و(لو
مكتوب لنا نعمل حادثة حنعمل حتى لو العربية واقفة) بالسلام
على كل هذا الإيمان والزهد الجديرين بالدخول في تراث التصوف
يقود الرجل سيارته بسرعة تسعين في الساعة وطفله السعيد على حجره
خلف المقود، معرضًا الطفل لتهشيم جمجمته مع أول فرملة عنيفة. فلو
أنه ارتكب هذه الفعلة في الخارج لشنقوه. يترك الرجل طفله يتسلق
سور الشرفة ويتدلى منه. يناول الرجل صديقه كوب الشاي الساخن
فوق رأس طفله. فإن تكلمت قال لك في حكمة إن الحذر لا يمنع القدر
و(ربنا يستر). فإذا وقعت الواقعة وهلك الطفل جلس في سرادق
العزاء يبكي ويتحدث عن (الوديعة التي استردها الله منا) و(هذا هو
عمره). نعم. كان مكتوبًا أن يتسلق الطفل سور الشرفة وتنزلق قدمه
فيسقط في الشارع. كان مكتوبًا أن ينفجر إطار الميكروباص وينقلب
وهو يرمح بسرعة 120 كيلومتر في الساعة. كل هذا مكتوب كما
كتب أنك أحمق مستهتر، ورعونتك سوف تقودك إلى المهالك

سبعون بالمائة من الحوادث تمكن منعه. هذا ما يقوله الغربيون. كم
من حريق ينتظر أن يحدث بسبب عقب سيجارة أو ماس كهربي. كم
من كوب مليء بالبوتاسا الكاوية التي تبدو كالماء ينتظر الطفل البائس
الذي سيشربه. حادث السيارة المروع الذي سيحدث فجر غد بسبب

رعونة. كل هذا يمكن منعه. حتى الأوبئة يمكن منعها لأن هناك فرعًا
مهمًا من الطب اسمه الطب الوقائي، فلا تبقى إلا نسبة 30٪ يستحيل أن
نمنع حدوثها بأي شيء، وهي قائمة البراكين والفيضانات والزلازل،
وحتى بهذا كان ينبغي أن تكون مصر أكثر بلدان العالم أمنًا، فقد حفظها
الله من الكوارث الطبيعية لكن ملأناها بالكوارث البشرية

أحيانًا تبلغ القدرية درجة تثير الجنون. أذكر أن شابًا في العشرين من
معارفي أجرى جراحة تافهة، وبسبب خطأ اعترف به طبيب التخدير توفي
الفتى على مائدة الجراحة. قلت لأقربائه إن من حقهم وربما واجبهم أن
يتخذوا إجراءً قانونيًا. كان ردهم المتوقع هو أن التقصي لن يعيد لهم
من مات، ثم إن هذا عمره. لقد كان مكتوبًا له أن يموت في هذه
الساعة. قلت لهم إنه لو أخرج طبيب التخدير سكينًا وأغمده حتى
النصل في صدر الفتى، فهذا عمره أيضًا. ولو عممت القاعدة فلا
جدوى من معاقبة القاتل في أية جريمة. بالطبع لم يكونوا مستعدين
لسماع هذا الهراء، وخبرات آلاف السنين لا تمكن تغييرها لمجرد أنك
تريد هذا. أعتقد أن هذه القدرية سوف تكتسب بلا شك. ما دام لا يمكن
منع الحوادث. وما دامت فكرة الاحتياط اعتراضًا على القدر

واجب علماء الدين أن يثبتوا مفهوم (اعقلها وتوكل) في الأذهان
منذ الصغر، وأن ينمو نوع من الوعي الضروري ذي الطابع الديني
في الأذهان. إذا كان الناس فعلًا متدينين إلى القدر الذي يحبون أن يروا
أنفسهم به.

الخاطر الأخير لدي حال يدهشني بعد مغامرة الميكروباص تلك هو

صوره وطن كامل وطن كامل يدفع إلى الهاوية ، بيمما الناس نيام مستسلمون لقدرهم ، و(ما تركزش ويإذن الله نوصل بالسلامة) ، فإذا فتح أحمق فمه للاعتراض هبوا غاضبين يخرسونه السائق يؤكد أنه يسيطر على عجلة القيادة تمامًا لكن الشواهد تكذبه ثم إنى استبعدت هذا الخاطر حتى لا يتهمنى أحد بـ (التهويل) ، فلعلى إذا أسرفت فى الحديث عن ضياع الوطن ضاع الوطن فعلا !

لماذا لم يشم عادل الورد ؟

امتحانات اليوم الأول للصف الثانى الابتدائى اشق طريقى وسط زحام نحو اللجنة ممسكًا بكف (مريم) ابنتى الصغيرة إلى أن أصل للبوابة ، فأدفع هذا وذاك من أولياء الأمور الذين يصرون على الوقوف أمام البوابة ليسدوها كأن هذا يجعل أطفالهم أذكى وفى النهاية أترك (مريم) لصف من العاملات مخيفات الشكل يدونها لبعضهن يدا بيد حتى تغيب فى قدس الأقداس بالداخل . الأمر الذى يذكرنى بمشهد الأب الذى ترك ابنته رهنا لدى عصابة مخدرات فى فيلم (الباطنية) إلى أن يجلب ثمن الحشيش الذى أخذه .

عدت فى موعد الانصراف لأجده بذات الصعوبة ، خاصة مع احتجاج الأمهات المرعبة كأنها حروب الديناصورات فى العصر الطباشيرى هنا لاحظت ظواهر عجيبة معظم الأمهات لم يعدن لبيوتهن قط وإنما ظللن طيلة فترة الامتحان على الباب يقرأن القرآن بعض الأمهات دامعات العيون ، وثمة أم ترتجف وتتنفس بسرعة لتزيد قلوية دمها موشكة على الإصابة بحالة هستيرية بينما يخرج الأطفال مظفرين وقد بدا عليهم الغرور لأهميتهم المستجدة اكتشفت أن الأمهات يحملن جميعًا أسئلة الامتحان ويراجعنها مع الأطفال جاوبت السؤال ده إزاى ؟ قلت إيه هو لون القطة ؟.. الحتة دى مش فى الكتاب..

ثم يتقلص وجه الأم من صعوبة الأسئلة وتردد بلا انقطاع ولاد الكلب رب ينتقم منهم ! ربنا ينتقم منهم !

سألتهن عن كيفية الحصول على هذه الأسئلة . فدللنني على صاحب مكتبة (شطر) حصل على ورقة الامتحان وقام بتصويرها . وهو يبيع الورقة بعشرين قرشا .. رغم يقيني بعبثية الموقف فقد وقفت في الطابور لأبتاع نسخة .. لن أكون الأب الوحيد الذي لم يشتر نسخة من الأسئلة ويكون علي أن أخبر ابنتي العبيطة بهذا .. فقط رحت أتساءل عن الكيفية التي حصل بها هذا الأخ على أسئلة الامتحان . فلابد أنه يقتسم الأرباح مع أحد الإداريين بالداخل .. عشرون قرشا في ألف ورقة خلال ساعة ليس مبلغا سيئا .. دعك من أنه حصل عليها بالتأكيد قبل مرور نصف الوقت كي يتمكن من تصوير كل هذه النسخ .

عندما عدت للبيت راجعت ابنتي الأسئلة مع أمها ، ثم تفرغت للاتصالات الهاتفية مع صاحباتها .. لماذا لم يشم عادل الورد ؟ أنا قلت لأن عنده زكام .. مس هناء عدت علينا وقالت هي دي الإجابة الصح . هكذا ظل الهاتف مشغولا لمدة ساعتين

عندما تمعنت في الموقف بعد أن هدأت الأمور وجدت شيئا غير طبيعي وغير مبرر .. نحن نتكلم عن امتحان نصف العام بالصف الثاني الابتدائي .. نصف الثاني الابتدائي ؟ هل يستحق الأمر كل هذا الانفعال والتوتر ؟ .. كل هؤلاء الصغار سينجحون بلا شك ولن يؤثر في مسار حياتهم . وإن لم يكن محطة من عمرهم دخول كلية بعينها فماذا يصنعون في الثانوية العامة إذن ؟.. عندما لا يتناسب الانفعال مع المناسبة فإن ما تشعر به هو إحساس عارم بالسخف .. رجل يلطم خديه في الشارع لأنه لا يجد علبة الثقاب في جيبه

دموع وبكاء ومراجعات في الهاتف .. كل هذا من أجل (لماذا لم يشم عادل الورد ؟) و (من نوم القطة ؟) .. هل هذا سلوك فسيولوجي ؟ هل هذا سلوك عقلاني ؟.. هل هذا طبيعي ؟

في طفولتي وأزعم أنني نشأت في أسرة مترابطة تهتم بأطفالها لم يكن أحد يعلق أية أهمية على امتحانات من هذا النوع وبهذا الحجم .. في هذا الوقت كنت في مدرسة حكومية . ولم تكن (الغابة) قد أصيبت بذلك المرض المريع السائد حولها في (مصر) . ولم تكن أعراض التحول إلى مصر ، قد أصابت الأساتذة .. كان المعلمون قوما بارعين في مهنتهم ذوي ضمير حي وثياب رثة بالمناسبة ، لأنهم لم يكونوا يحصدون الآلاف من الدروس الخصوصية .. فقط كنت أخبر أهلي أن لدي امتحانا غدا فكانوا يعطونني الورق والأقلام اللازمة وينسون الأمر . ولم تبدأ هذه الهستيريا إلا مع دخولي شهادة الابتدائية .. بدأت مع كثير من الحفظ

ما سبب هذا الذعر العام ؟

حين أضع الحروف على الصور .. إنه الفزع الروحي .. المصريون يفتقرون إلى مشروع قومي يضمهم ويوحد مشاعرهم لهذا يختلقون أي مشروع حتى لو كان (لماذا لم يشم عادل الورد ؟) .. إنها الضغوط النفسية والاقتصادية والعاطفية والدينية تحاصر المصري الذي لا يجد طريقة لإخراجها إلا على باب اللجان .. فلابد من شماعة .. لابد من قناة خروج لكل هذا الضغط .. هكذا لا يجد المصري هدفا إلا ذلك الطفل البائس ذا السبع السنوات الذي تقع على كتفيه تبعات مسئولية كل شيء يحدث للأبوين .. وبما أن العصاب معد .. فإن هذا يترسب للطفل

مع الوقت سوف يذهب إلى الامتحان شاعراً أنه مسئول عن آمال أمة وأحلام وطن وسوف يرتجف ويتوتر ويقضي الساعات على الهاتف يناقش لون القطة مع أصحابه اثنتا عشرة سنة من التوتر ، ثم ينهي وقوده في الثانوية العامة فلا يظفر إلا بخمسة وثمانين في المائة بعد كل هذه الصراخ .

الشخصية المصرية تعاني درجة عالية من التوتر العاطفي الذي يبحث عن مخرج مثلاً قد يجد هذا المخرج شكل توتر لا مبرر له كالذي رأيته على باب الملحمة هناك هواية صنع أبطال حتى لو كانوا من عينة شعبان عبد الرحيم لمجرد أنه قال (أنا باكره إسرائيل) نبه ذلك الجوع إلى بطل يحمل عنا العبء النفسي ويدفع ثمن أرواحنا ..

الغضبة العارمة في قضية الرسوم الكاريكاتورية الدانمركية عظيمة ومفهومة . ولكن أين عصباتكم على نهب مصر وتزوير الانتخابات وتعرية الصحفيات وعلى احتلال العراق الذي يهين المصحف في دورات المياه ؟ يحتاج الأمر إلى عالم اجتماع يفسر لنا هذا التناقض السلوكي عندما يهان الدين بيد الولايات المتحدة وعندما يهان بيد الدانمرك

اتصلت بصديقي لأخبره بهذه الخواطر فوجدت الخط مشغولاً طلبته عدة مرات على مدى ساعة . وفي النهاية عرفت أن زوجته كانت تجري مكالمة طويلة مع أم (ندى) زميلة ابنته الطفلة في الصف الأول الابتدائي السبب هو أنهم أولئك الأوغاد في المدرسة قد انقصوا درجتين من نتيجة الفتاة لأنها قالت إن لون القطة أسود بينما كتاب الوزارة يؤكد أنها بيضاء ! الأم مصرة على تقديم شكوى وإعادة تصحيح الأوراق ، بينما زوجة

صديقي تفهمها أن كتاب الوزارة هو الحجة الأخيرة ما دام قال بيضاء فهي بيضاء ثم إن هؤلاء لن ينصفوك أبداً لأن التعليمات تقضي بأن يقللوا عدد من يدخلون الجامعات !

هكذا أنهت أم (ندى) المكالمة ، ولن أندهش لو عرفت أنها ابتلعت أقراص الأسبرين لتقتل نفسها بعد ما فقدت كل أمل في الغد

مصر تتحول يوما بعد يوم إلى مستشفى مجانين كبير هل يدرك أحد هذه الحقيقة قبل فوات الأوان ؟



دماغى كده

فى الذكريات الحميمة

ياسر وبطاطة وأشياء أخرى

كانت الحالة محيرة فتاة تعاني تجمعًا صديديًا في الحوض استغلقت معرفة سببه على الجراحين . وقد خطر لي ونحن نقف هنالك في العنبر أن السبب قد يكون متعلقًا بالتهاب المبيضين أو داء ما من أدواء النساء العديدة التي نجهلها نحن الأطباء الباطنيين . هنا قال ثلاثة منا في ذكاء وبصوت واحد : « نسأل ياسر الجندى ! »

ثم تذكرنا ونظرنا للأرض ، وغلبت ابتسامة تجمع بين الخجل والحرج والمرارة ولوعة الفراق . فقد نسينا جميعًا أن د. ياسر الجندى مدرس أمراض النساء قد توفي منذ ستة أشهر لكن الموقف كان معدًا بعناية ليكون هو بيننا وكي يتهمنا بالإهمال والحمق ، وكي يداعب المريضة ، ويأتينا بالخبر اليقين

عندما أتذكر ياسر الجندى فإنني أتذكر ذلك الوجه الشاحب المرهق ، ولفافات التبغ التي لا تنتهي ، والسهر في عنبر النساء البارد ، وأكواب القهوة والحلبة الحصى ، و لممرضات الساهرات بالقوة يلعن (الآن) يرجحن الدواء الفارغة بانتظار الولادة التالية أتذكر القفازات الملوثة بالدم والقساطر ، وياسر الذي يركض في طرقات المستشفى في الظلام باحثًا عن فصيلة (و سالب) من أجل عطيات أو النصف التي تنزف في عنبر الولادة بعد أن اختفى أهلها وهجرها زوجها لو قابلته وقتها وكنت من ذات الفصيلة فلن ينقذك من براثنه شيء مهما قلت أو فعلت

ياسر الجندى ما زلت أتذكره كلما حدثت حدثهم عن إهمال الأطباء وجهلهم الأطباء الذين هم دائمًا غير موجودين في

المستشفيات ، فإذا تواجدوا كانت هذه نهايتك لأنهم يرتكبون الأغلاط القاتلة بالجملة . المشكلة أن الأمثلة الإيجابية كثيرة جدًا لكنها غير مسلية ولا تروق للصحافة ولا المرضى . لا أحد يكتب مقالاً عن طبيب تبرع بدمه من أجل مريضة ، لكن الجميع يكتب للصحف عن طبيب سرق كلية . هذه هي طبائع الأشياء .

أتذكر فاطمة .. الأم شبه الطفلة التي انحشرت رأس الجنين في مهبلها أثناء الولادة ، مما أدى إلى تكوين ناصور بين المثانة والمهبل .. النتيجة هي أنها كانت تبول بلا أي تحكم إرادي ، وبالطبع طلقها زوجها على سبيل الامتنان والمودة ، ثم اكتشف أطباء قسم النساء أنها مصابة بالاستسقاء وأنه من المستحيل إصلاح هذا الناصور الآن . دخلت فاطمة قسم أمراض الكبد لعلاج هذه الاستسقاء وسط عاصفة من ولولة أمها العجوز ولطمها . أسأل فاطمة عن لون بولها فتنفجر في البكاء وتقول : « وأنا حشوفه ازاي ؟.. هو أنا باعمل زي باقي البنات ؟ »

اعتاد ياسر الجندي أن يزورها في العنبر عدة يوميًا ، وأتذكر السيرك الذي أقامه ليسليها ويضحكها .. كيف كان يتكلم بطريقته (الريفية الأنثوية) التي كان يحسن اصطناعها كأنه امرأة ريفية عجوز ، والتي اكتسبها من تعامله مع المريضات ، وكانت تضحكهن دائمًا : « يا بت يا بطاطة يخرب مطنك .. يبلك .. دانتي دراعك راح قد صباعي .. » ثم يداعب أمها بسلسلة المفاتيح : « حاكلفي يا بطاطه وتيجي القسم عندنا . ونعمل لك العملية .. لكن أمك .. أمك !! » ويتقمص وجهه في توحش يجعل فاطمة تنفجر ضاحكة دامعة العينين كالأطفال : « أملك الولية الحيزبونة

الولية القرشانة دي لو عتبت القسم عندي قسمًا عظمًا لاخلي العمال يرموها في الترعة .. »

كنت أعرف جيدًا أن الاستسقاء لن يزول وأن الجراحة مستحيلة ، لكني أخفيت الحقيقة عن بطاطة وعن ياسر الجندي معًا .. بالذات أخفيتها عنه ..

كنا نتهمه بالمبالغة كثيرًا ، وبأنه يعاني خليطًا من لذة الاستشهاد والوسواس القهري .. بعد انتهاء أعوام الطبيب المقيم صار من حقه أن يستريح وأن تكون نوبتجياته أقل ، لكنه ظل يعيش بذات التوتر وذات الإرهاق كما كان وهو طبيب مقيم .. نوبتجية قد تمتد لثلاثة أيام لكنه لا يغمض عينيه فيها لحظة .. من الطبيعي جدًا أن يضع يده الشيشة في فمي مريضة ، وتراه هو والعامل يحملان أسطوانة أكسجين لأنه لا وقت لترف انتظار العامل الآخر .

التبرع بالدم كان هوايته لدرجة أنه تبرع بدمه خمس عشرة مرة في عام واحد وهذا رقم قاتل ، لكنه كان يعرف أن تخصصه هو تخصص النزف حيث ثمن الدم أغلى من الذهب ، حتى صار ضيفًا غير مرغوب فيه في بنك الدم ، وحتى تلقى الموظفون هناك أمرًا غير مكتوب من المدير يقضي بمنع د. ياسر الجندي من التبرع بأي شكل .. يستطيع سرق هو بعض أكياس التبرع الفارغة لتكون متاحة تحت يده في الظروف القصوى .

يعبر الطريق أمام المستشفى فتسقط منه أشعة مريضة كان يحملها .. ينسى واجب الحذر ويعود ليلتقط الأشعة قبل أن تدهمها السيارات .. فتضربه ميكروباص مجنون .. غارقًا في الدم حملوه إلى قسم الطوارئ بيحث

مشكلته الوحيدة هي ثرثرة سائق الميكروباص الذي لا ذنب له ، ثم اكتشاف لأن غيابه عن القسم يعني توقف عشرات الأمور التي لن يقوم بها واحد آخر . إنه بحاجة إلى مائة ياسر حمدي آخر ليفعلوا بالضبط ما يريده كما يريده .

هل يبدو كلامي مبالغة كمن يتحدث عن كرامات واحد من الأولياء ؟ يمكنك أن تسأل أي شخص من مستشفى طنطا الجامعي عن د. ياسر الجندي ليخبرك بأن ما أقوله يبخس الرجل حقه .

لم يكن يؤمن بأي شكل بما يستحق رتبه . وهكذا أنفقه كله على المريضات وجعل عنبره أمجاني في قسم أمراض النساء أقرب إلى فنادق الخمسة النجوم . ستائر . ثلاجة . أزهار . بالطبع لم يتزوج وقد ساعده هذا على أن يحتفظ بتعاليه على المال وهذه الرهبنة التي اختارها

ظل يرفض أن يدخل امتحان الدكتوراه برغم أنه تلقى وعدًا بالنجاح لأنه يؤمن بأنه لم يحقق المستوى العلمي الذي يريده بعد . وقام بتحصيل كل ما يقابله في علم أمراض النساء على شرائط كاسيت يسمعها في الظلام في أي مكان يكون فيه وحده . كان يريد أن يتحول العلم إلى طبيعة ثانية له وفي النهاية دخل الامتحان ونجح لكنه لم يفتح عيادة قط

جاءت النهاية سريعًا في نهار رمضان منذ أعوام عندما تأخر في الاستيقاظ من النوم ، وقد اعتبر ذووه هذا تصرفًا معتادًا في شهر الصيام فتحوا غرفته أخيرًا ليجدوه ساقطًا على الأرض وفي غيبوبة عميقة . لقد قتله الإنهاك والجهد والسهر وارتفاع ضغط دم لم يعالجه قط . فأصيب بنزف مخي . أسبوع كامل مر والجميع يصلي من أجله لكن الموت دوامة

يجيد الانتقاء كما تعرفون . عروس فاتنة لا تختار سوى الفرسان . وبعد وفاته جمعت مريضاته ريفيات الفقيرات المال من بعضهن وصنعن له صورة عملاقة علقنها في عنبره ..

من دهبت بطنطة وماذا كان مصيره وسط هذا كله ؟ لا أعرف طبعًا

ياسر الجندي كان نسيجًا . والفق تمت على أنه مثال نادر لا يقاس عليه . لكني أدعوك إلى أن تتذكره وأنت تزور عيادة هذا الطبيب أو ذاك من المهرة لصف الذين لا تختفي صورهم من المصابيح وبرامج التلفزيون والصحف والمجلات . تذكره وأنت تكتشف أن موعد الكشف في شتاء صباح وقيمته مئات الجنيهات . وعندما يطلب الطبيب لتطيم بيان بعد الأحداث كلها في مختبر (مدام) ، وعندما يكتب لك في النهاية علاجًا لا جدوى منه جربته ألف مرة من قبل . وعندما تكتشف أن تحاليل مخطط لثمن الذي طلبه منك لا قيمة له إلا ستكمل ورقة علمية يريد أن يقدمها (على حسابك) في مؤتمر كوبنهاجن القادم

عندما تتعامل مع هذا الطبيب أو ذاك من آلهة الأوليمب تذكر أن هناك من يدعى ياسر الجندي ومثله مئات من الأطباء الذين يختلفون بالتأكيد عن تلك الصورة التي تهوى وسائل الإعلام رسمها . من الحرام أن تخلط بين هذا وذاك ، ومن القسوة أن تعامل هذا بعيران ذاك . تذكره عندما ترى شرطي المرور الفقير الذي يساعد الأطفال على عبور الطريق ، ومدرس الابتدائي الذي ما زال يصر على أن يبح صوته في الشرح مقابل ملاليم . وموظف السجل المدني الذي يرفض الرشوة وهو أحوج ما يكون لها . تذكر مصر الطيبة السمراء التي لم تمت وتصر على الحياة باستمرار عجيب برغم كل ما يحدث لها

حيث الكل في واحد

شارع (سعيد) الهادئ في هذه الساعة من نهار رمضان . وأنا أحمل الحقيبة التي امتلأت بأرغفة الخبز الساخن ، راضيًا عن نفسي لأن الفرن كان خاليًا تقريبًا في هذا الوقت . كنت أنا المكلف بهذا الكابوس اليومي شراء الخبز ، ويكفي لأصف لك عذابي أن أقول إن طابور الخبز في ذلك الوقت كان يشبه الطوابير الحالية تمامًا ! .

هناك كان واقفًا تحت شرفة في بناية بالشارع ، شاب يبدو أنه جامعي ومن طبقة متوسطة يلبس ثياب الميدان الكاملة التي لم أرها من قبل إلا في الصور الخوذة والجرسدية على ظهره ، وكان يرفع رأسه إلى الشرفة بالطابق الثالث وينادي :

ـ « صلااااح ! »

و(صلاح) لا يرد لا أعرف إلى أين كان الفتى ذاهبًا ولا لماذا كان هنا والحرب نشبت منذ خمسة أيام ، لكن كل شيء يقول إنه ذاهب إلى وحدته مع (صلاح) صديقه الذي لا يرد ذاهب للقتال طبعًا لا للتدريس

إن هي إلا بضع ثوان حتى وقف فلاح وزوجته جوار الفتى ، وراحا يناديان بأعلى صوتهما :

ـ « صلاااح ! »

ثم ظهر ميكانيكي على دراجته وراح ينادي بعد دقيقة صار هناك عشرة ينادون (صلاح) وتطوع أحدهم بأن يقذف طوبًا على الشرفة ، بينما تطوع آخر بأن يصعد ليدق الباب . والمظاهرة تحت شرفة صلاح تتزايد ، والجندي الشاب ينظر حوله فيبدو عليه الضيق والحرج من هذه الفضيحة

ـ « صلاااح ! »

بعد لحظة ظهر (صلاح) من الشرفة وهو يكامل ثيابه ، هنا تعالى الهتاف والتصفيق والفلاح العجوز وثب ليعانق الفتى ويلثمه على خديه

ـ « مع السلامة هات لنا رمل من سينا وانت جاي يا دفعة ! »

وابتعدت حاملاً الخبز وأنا أفكر في مغزى هذا المشهد الذي ظل محفورًا في ذاكرتي خمسة وثلاثين عامًا هؤلاء قوم يريدون عمل أي شيء أي شيء من أجل هذا الذاهب إلى الجبهة ليتلقى الرصاص وربما يموت كي يظلوا هم أحياء أحرارًا أبسط شيء استطاعوا عمله هو مناداة صلاح ، ولو طلب منهم الجندي الشاب أن يلثموا قدميه أو يحملوه إلى الجبهة حملاً عملوا بلا تردد ..

كان مأمور قسم أول في طنطا صديق أبي ، وقد زرته مع أبي أيامها فقال لنا وهو يشير إلى التخشيبة الخالية :

ـ « تصوروا أننا لا نجد لصوصًا نقبض عليهم منذ نشبت الحرب ؟ حتى اللصوص (اختشوا على دمهم) .. »

هذه كما لاحظت بعض ذكرياتي عن حرب أكتوبر عام 1973 أما كيف بدأ كل شيء فلذلك قصة هل تسمعها ؟ إذن تعال وأعد لنا كوبين من الشاي الثقيل كي يحلو الكلام ..

هذا أن الصبي الذي دخل السنة الأولى الإعدادية ، ولا يهتم بالسياسة على الإطلاق فقط يعرف أن إسرائيل دولة شريرة تقتل أطفال المدارس (بحر البقر) وتذبح الفلسطينيين وأسقطت طائرة مات فيها سميرة ، مذيعة الأطفال التي كنت أعشقها ..

يوم السبت 6 أكتوبر هو ثاني يوم سبت لي منذ بداية العام الدراسي رمضان بدأ منذ عشرة أيام ، وفي ذلك الوقت كان أكتوبر يعني جوا معتدلاً لهذا لم يكن الصيام صعبًا علي أعود لداري بعد الواجبات الضرورية من ركل عصام وخطف حقيبة مصطفى ولكم عادل

هناك شيء غريب كل الناس يلتفون حول أجهزة الراديو الكل قلق ماذا حدث ؟ لم أر هذا المشهد إلا وأنا في الصف الثالث الابتدائي يوم وفاة جمال عبد الناصر ، لكن لا أحد يبكي

في البيت تخبرني أن الحرب نشبت جيشنا عبر قناة السويس حتى طالبة الطب عادت للبيت بسرعة وأخبرتهم أنها ستكون في المستشفى لساعة متأخرة لأن المستشفيات كلها معدة لاستقبال الجرحى الراديو لا يهمد لحظة بيان رقم كذا من القيادة العليا للقوات المسلحة بيان رقم ثلاثة

تحول أمي المؤشر إلى الإذاعة لندن التي كانوا يشوشون عليها بصفارة كئيبة عالية ، فلا نفهم شيئًا نحول المؤشر إلى إسرائيل فنسمع مذيعها الحنق يقول في حسرة مصطنعة إن السادات ارتكب خطأ عمره باستعراض أقوى جيش في المنطقة مسكين أنت أيها الجيش المصري مسكين أنت أيها الشعب المصري تتقلص أمعائي رعبًا أبي يشخط في أمي ويطالبها بتغيير المحطة .

عرفت بعد هذا أن إسرائيل كلها كانت في أتعس لحظاتها . ولم يصدق قادتها ما يحدث لهم موشي ديان بكى أمام الصحفيين العالميين . وجولدا مائير طلبت تركيب الرءوس النووية على الصواريخ . وهو سيناريو النهاية (ميكرع هاكول) لدى إسرائيل ..

عندما جاء المساء عرفت خبرًا سرني بطبيعة الحال هو أن المدرسة مغلقة لأجل غير مسمى (لقد عادت إجازة الصيف) ، وخبرًا ساءني هو أن فوازير (ثلاثي أضواء المسرح) وكل الطقوس التلفزيونية إياها قد تم وقفها من المستحيل أن يموت أبناؤنا هناك فوق الرمال ونحن نسمع الفوازير طبعًا

في الليل أصحو في ساعة متأخرة لأسمع النافذة كيف تترجرج رائحة البرود في هواء الليل ، ويخبرني أبي أنها بطاريات المدفع الجوي في مطار محلة مرحوم تطلق القذائف على غارة ..

من تساءل عن كل هؤلاء الذين يحاربون الآن في الرمل والظلام ولم يفطروا بعد كمدي ـ بساعة راحة منذ ظهر السبت فجأة صرت أم هؤلاء جميعًا

في اليومين التاليين تتضح الأمور أكثر ، ونعرف أننا حققنا معجزة فعلاً ، وأن البيانات التي نسمعها تختلف كثيرًا عن بيانات 1967 (المضروبة) الأخبار السارة تتوالى تقدّم تقدّم السوريون يجتاحون الجولان وقوات تسحق نوعًا مدرعًا بالكامل وتأسر قائده لم أنس الاسم بعد كل هذه السنوات : عساف ياجوري ، وهو شيء تحول لدي يدخل بإفراط وله لغد

شارع البحر كله ينظر للسماء وقد خيل لنا كأن المعركة تدور فوق سنترال المدينة في الحقيقة كانت بعيدة جدًا هناك طائرات إسرائيلية تحلق ، بينما تطاردها طائرات تعلمت شكل الميج والفانتوم من على هذه المسافة طائرة إسرائيلية تهوي .. لم تبتعد طائرات يتبعهم خيط من الدخان من مكان ما إنه الاختراع السوفييتي ذو شهرة سام 7 سري

الطائرة الإسرائيلية تعلو وتهبط بينما خيط الدخان يقتفي أثرها في إصرار وعناد . وفي النهاية يلتقي خيطا الدخان ليصيرا خيطًا واحدًا يهوى بعيدًا بعيدًا باى باى يا حاييم أو يا ليفي أو يا أموناى فلتكن ميتتك أبطأ وأبشع من ميتة سلوى حجازى ..

في هذه المرة جعلت بطاريات الصواريخ المصرية سماءنا منطقة موت للطائرات الإسرائيلية . وأصدر قائد الطيران الإسرائيلي أمرًا بالابتعاد أكثر من عشرة كيلومترات شرق القناة وكانت الصحف تظهر مليئة بصور الأسرى الإسرائيليين الذين وصفهم أحمد رجب بـ (الذئاب الجريحة التي تحتاج لمحضر اشتباه وتحرى) . كما أذكر صورة رهيبة بعض الشيء لجثة متفحمة لطيار إسرائيلي مقيد بالسلاسل قال الخبر إن الإسرائيليين يقيدون طياريهم في الطائرات كي لا يبادروا بالقفز منها بمجرد رؤية الصاروخ سام 7 ..

قائد المدرعات الإسرائيلي أعتقد أنه موردخاى هود يجرى اتصالاً مدته ثوان مع قاعدته يلتقط سلاح إشارتنا المكالمة . وهنا تنطلق طائرة قاذفة مصرية بسرعة البرق نحو مصدر المكالمة في سيناء وتطلق صاروخها ينسف الرجل وسيارته وتعود ! حرى به يا جدعان ؟ هل نحن نتكلم عن مصر أم بريطانيا العظمى ؟ وفي كتابه المهم عن الحرب يقول (عبد الستار طويلة) « كانت هذه أول حرب تعرفها مصر يقول فيها الضابط لجنوده (اتبعوني) بدلاً من (تقدموا) ! »

سمع اسم (عبد العاطي) صائد الدبابات الذى نسف 25 دبابة وحده عندما رأيت الدبابة عن كثب في معرض الغنائم ، بدت لى عجيبة رهيبة

كثير غرائب من الصور ، وقد تساءلنا عن نوعية الأعصاب ومدى الشجاعة التي يجب أن يملكها المرء كي يواجه هذا الديناصور وهو على قدميه .. هؤلاء لم يكونوا رجالاً .. كانوا أساطير حية ..

في كل مكان كنا نملين عن تحقق . وندعو الله أن يحفظه لنا

صحيح أن الحماسة اعمت ولم ندرك أن مسار الحرب يتغير . وأنه عندما وقف السادات ليحيى الجماهير في أول خطاب له بعد نشوب الحرب . وعندما التهبت كفنا بالتصفيق وكانت الشوارع خالية تمامًا . كانت الدبابات الإسرائيلية قد دخلت السويس ضمن عملية (الغزالة) التي خطط لها شارون . ولم نعرف الكثير عن حصار الجيش الثالث قد نصدق الإسرائيليين الذين يعتبرون أنهم أحالوا نصرنا هزيمة . وقد نصدق كيسنجر الذى قال لجولدا مائير أنت انتصرت عسكريًا وخسرت استراتيجيًا . لأن أسطورة الجيش الذى لا يقهر انتهت للأبد . وقد نصدق خبير الاستراتيجي العالمي (أندريه بوفر) الذى زار المنطقة وقال إن الثغرة عملية تلفزيونية لا قيمة لها من أى نوع

فقط كانت الشعلة متوقدة . ولن نستطيع وقتها أن نحارب العالم كله حرب عمل كريه مقيت لكنه شر لابد منه كي يجدد دماء الأمم ويقوى عزتها ويوحدها ، وكما قال هيكل لا يوجد طرف في العالم أعلن أن السلام خيار استراتيجي . لأنه عندما يستجدى طرف فإنه يدعو الطرف الآخر تلقائيًا لأن يستقوى .

هذا هو بعض ما أذكره عن تلك الحرب ، وقد تعمدت أن أحكى ذكرياتي كطفل في الصف الأول الإعدادى لأنني قرأت الكثير جدًا عن

تمت الحرب بعد ذلك لم يبتعد بالمقال عن هدفه يكفي أنني أعددت عنها سيناريو قصص مصورة دقيقًا جدًا يعتمد على عشرة كتب ، وقد أردت به ألا تُنسى هذه الحرب أو أن يتساءل أبنى كما فعل يومًا هل كانت فعلا حربًا عظيمة أم أن هذا ما يجب أن أحفظه وأكتبه في ورقة الإجابة ؟ هذا السيناريو قدمته لعدة ناشرين ، لكن مشاغل الحياة منعتهم من البدء ، وفي النهاية ضاع ..!

أتذكر هذه الحرب اليوم وتساءل عما فعله لكن هؤلاء العظام ؟ أين هم ؟ أين ذهب (نفس) و(صلاح) صديقه ؟ ومن أسدى جميلاً من زرعوه ؟ هل كانوا يموتون فوق الرمال كي يتاح مليارديرات اليوم أن يصطافوا في (شرم) لم تعد (شرم الشيخ) على فكرة ولن تذهب لشباب هناك لتظفر بتيمة مع سائحة سويدية أو روسية ؟ هل خطر لعبد العاطي وهو يصوب صاروخه الساحر ، نحو الدبابة أنه سيدوح بعد الحرب بحثًا عن شقة ؟ وأنه سيموت فلا تهتز الدنيا ؟ وأن الإسرائيليين سيوغلون في كل شيء حتى يسد العلى نفسه ؟ وأن العبارة ستغرق والدويقة ستنهار والمسرح سيحترق وكتلو الملحم ستحترق الأربعين حيًا ؟ لحسن الحظ أنه لم يفكر وقتها في ذلك كله فقط أحكم التصويب وضغط الزناد .

حكايات الأستاذ حسن

في العام 1987 كنت أحمل هذا اللقب الفخم (مدير الوحدة الصحية) بقرية (..) القريبة من كفر الزيات ، وهو لقب كنت أشعر بأنه واسع فضفاض علي في هذه السن المبكرة لم أدرك مدى أهميتي إلا حينما سمعت الموظفين يتكلمون في غرفتهم الداخلية :

- « بيقولوا الراجل حمشي في أكتوبر حيروح جامعة »

عرفت الهلع لأن الرجل سيمشي ثم فهمت أنني هذا الرجل نفسه !.. إذن أنا كبرت وصرت خطرًا كالآخرين !..

عرفت المزيد عن خطورتي عندما كنت أركب سيارة نصف نقل مع أحد موظفي الوحدة قاصدين الإدارة الصحية في كفر الزيات لتسلم شحنة دوية ... القصة حقيقية فإن سائق اسمه (حسن) قصير القامة أسمر لامع العينين ضيقهما وقد قرر على الفور أن يريني أهميته وسألني أنه لا غنى عنه ... سيارة كانت الوحدة في الكلام . فقال لي بلهجة من لا يريد أن يقول أكثر .

- « رجل طيب لكن والله أعلم .. والله أعلم .. شخصيته ضعيفة أمام زوجته .. »

... معلومة تافهة لا أهمية ولا جوهرية لعملي . وعدت أتكلم ... سيارة تم شراؤها في الوحدة . فقال لي بلهجة من يكره فضح الناس

...

ـ « كنت سأتزوجها .. لكن لابد من تصديق العاملين بهذه الأمور .. أخلاقها سيئة .. إذن فليكن الأمر كذلك .. أخلاقها سيئة .. »

فيم يفيدني أن أعرف هذا ؟ .. وما دخلي بأخلاقها؟ .. هل سمع أنني أرغب في الزواج منها ؟ .. بعد قليل كان قد حكى لي أسرار كل واحد من زملائه بالوحدة ، ومنهم الديوث ومدمن المخدرات وضعيف الشخصية وخريج السجون والمختلس ، حتى كأنه سجن القناطر وليس وحدة صحية .. سعدت في سري .. الرجل يعرف أنني غير مهتم بهذه الأمور ، وأنني راحل أصلاً عما قريب .. الأمر لا يزيد إذن على كونها عادة يريد تدريبها فلا تذبل ، كما يجب عازف الكمان أن يعزف قليلاً قبل النوم .. يريد أن يكون الأذن السرية للمدير أي مدير ..

أبطأت السيارة عند كوم سماد عال ، وفلاح عجوز متهالك ممزق الثياب مال على النافذة يسأل :

ـ « الجحف يا مصطفى ؟ »

أطلق السائق (مصطفى) سبة مليئة بالكبرياء .. نحن في مهمة حكومية حساسة يا بهائم ، وأنتم تعتبرونها سيارة أجرة .. نسيت أن أقول إن الجحف هو (القحف) ، وهو محطة مهمة جداً في المشاوير الريفية .. كل مشوار ريفي في أي مكان لابد من أن تتمس محطاته (الجحف الخطرة الجبسة ـ المشروع) .. هناك مشروع دائماً .. هذا ؟ لا تعرف معنى (القحف) أيضاً ؟ .. حرام عليك .. القحف هو جذع شجرة غليظ نائم على الترعة بالعرض ويُستعمل كجسر مرتجل ..

يعود الأستاذ (حسن) لحكاياته .. هذه المرة يصمم أن يطلعني على ثقافته الدينية ، بعد ما أظهر براعته في الاغتياب وأكل لحم أخوته موتى

ـ « الإيمان قدوة .. »

يعني إيه ؟ .. تركيب لغوي غريب جداً .. مثلاً (المؤمن قدوة) مفهومة أكثر ، لكنه يردد وهو يهز رأسه في خشوع :

ـ « الإيمان قدوة .. »

حتى شعرت أنه مغني شعبي من مطربي الموالد الذين سمعت ملايين من أغانيهم في هذه السيارات .. ذلك الخلط الفريد بين القصص الديني والخيال وأغاني أم كلثوم .. وبالفعل عرفت أنني محق عندما بدأ يحكي قصته .. كان يقول ...

لحظة حتى نسمع ما تقوله هذه المرأة البدينة التي تنحني على النافذة :

ـ « المشروع يا مصطفى ؟ »

سبّها السائق .. مشروع إيه يا وليه يا مجنونة ؟ .. العربية دي تبع الحكومة .. وانطلق بالسيارة بينما المرأة تسبنا جميعاً من بعيد .

القصة كما حكاها لي الأخ حسن تدور حول طالب في كلية آداب طنطا .. الطالب من قريتهم وهو يعرفه جيداً .. يسهر الطالب ليلة الامتحان يدرس على لمبة الجاز حتى الثانية بعد منتصف الليل .

لا تسألني عن سبب استعمال لمبة الجاز بينما القرية فيها كهرباء .. القصة دائماً هكذا .. من دون سبة حر لا كفاح .. لسبب ما كان الطالب وحيداً في داره عندما دق الباب ..

فتح الباب ليجد ست الحسن والجمال .. فتاة رائعة البهاء مذعورة باكية . قالت له إنها ضلت طريقها وما من [illegible]

هكذا قال لها الفتى : تعالي يا ست الناس [illegible]

نامت الفتاة ولسبب ما ـ أيضا ـ لا يوجد مكان تنام فيه سوى أمام الفتى هكذا قضى الليل يغالب شهوته كلما أوشك الشيطان أن يهزمه مد يده ليلسع أنامله بالشمعة الملتهبة من ثم يتذكر عذاب النار وجاء الصبح

عادت الفتاة إلى طنطا لتخبر أباها بالقصة كلها يبدو أن الخبيثة لم تكن نائمة بل تتظاهر بذلك وتلعب بأعصاب الفتى هرع أبوها إلى القرية يبحث عن هذا الفتى الشهم سأله عن الفتاة التي باتت عنده أمس فحكى له كل شيء تفحص الأب أنامل الفتى فوجد آثار الحروق واضحة جلية ..

تصور يتضح أن أبا الفتاة هو نفسه عميد كلية الآداب الكلية التي يدرس الطالب فيها وهكذا عمل على أن ينجح الفتى ويصير معيدا بالكلية ، ثم زوجه ابنته لأنه عرف كم هو رائع

وهتف حسن والدمع يبلل عينيه :

ـ « قلت لك يا دكتور إن الإيمان قدوة ! »

وسمعت مصمصة شفاه فنظرت لأجد أن السائق موشك على البكاء تأثرا بدوره لم يطق تأثره لأنه أخرج رأسه من النافذة ليسب طفلا عبر الصف السفلي يلعب أمام سيارته [illegible]

هنا قال حسن وهو يتمخط خارج النافذة :

ـ « الإيمان قدوة .. »

نعم فقط أريد أن أعرف الإجابة عن بعض الأسئلة كنت أعرف عميد كلية الآداب ، فماذا تفعل ابنته بالضبط في قرية جوار كفر الزيات

بعد منتصف الليل ؟ وكيف وجد عميد كلية الآداب سيارة تقله إلى الزحف ؟ كما ترى القصة كلها تدور في فلك حكايات الشعبية من طراز (تزوج بنت السلطان وعاش في تبات ونبات) ثم إن كان الإيمان قدوة فعلا فلماذا لا يعلمه الإيمان أن النميمة حرام وأن الاغتياب نوع من أكل لحم الموتى ؟ ألا توجد لديه حجرة أخرى تسعه كلما أوشك على اتهام واحد من زملائه في الوحدة ؟

رفعت رأسي فرأيت لافتة (الإدارة الصحية بكفر الزيات) ، ففتحت الباب في المرة القادمة ذكروني ألا أصطحب معي (حسن) فجهازي العصبي لم يعد يحتمل أكثر .

شاب لطيف جدًا

د. أحمد خالد توفيق

في فترة مبكرة من حياتي قرأت الكثير جدًا من الأدب البريطاني، وهكذا كونت عن البريطانيين فكرة رومانسية مليئة بالرقي والتحضر، وهي فكرة يستطيع أي واحد عاش من قبل الجلاء أن يدحضها بلا عناء لكن لو كنت تعتقد أنني عاصرت الاستعمار الإنجليزي لمصر أو حرب 1956 فأنت مخطئ على الأرجح. لم أكن قد قابلت بريطانيًا في حياتي في ذلك الوقت. ثم ساعد هذه الفكرة على أن تزدهر وتنمو حتى تلقيت صدمتي الحضارية الأولى

دخلت السينما ليلة الخميس مع مجموعة من أصدقائي حديثي التخرج لمشاهدة فيلم (انديانا جونز والمعبد الملعون). كان هذا قبل عصر سينما المول والملتيبلكس، لذا كانت السينما تجربة فريدة من نوعها. هناك فئران تجري على الأرض وتثب فوق قدمك، والتدخين مسموح به بكثافة، مع باعة ساندوتشات ومثلجات يمرون أمامك كل خمس دقائق. وهناك أشياء تتواثب داخل ثيابك تكبر من أن تكون براغيث وأصغر من أن تكون ضفادع .. هل الصراصير تثب ؟..

على كل حال يستمر العرض إلى أن يقرر أحد رواد الصالة أن وقت الحرب العظمة قد بدأ، فيشتم رواد الترسو (الدرجة الثالثة) بصيحة مشهورة عالية، من ثمّ يبدأ الجحيم لأن كل الترسو ينطلق في الشتائم في وقت واحد. الأسوأ أن يقذف أحدهم بعقب سيجارة مشتعلة على الترسو وهكذا تنطلق المدفعية من مائتي عقب سيجارة مشتعلة يقذف في وجهك

من الترسو. يستمر الجحيم إلى أن يظهر أحد فتوات السينما ملوحًا بعصاه ويقف بين الصالة والترسو متوعدًا بتحطيم دماغ أول من يخرق وقف إطلاق النار.

في هذا الجو الصاخب - الممتع برغم كل شيء - جلست نشاهد الأخ (انديانا جونز) يبحث عن جوهرة ما في معبد هندي، هنا فوجئنا بذلك الشاب الأجنبي يتقدم في الظلام منا ليقول لنا بلهجة بريطانية لا شك فيها

- « هل لي في سيجارة ؟ »

يا سلام ؟ هكذا قدمت له سيجارة وأشعلتها له، ثم دعوته إلى الجلوس جوارنا ليسحب كما يريد. جلس جواري فسألته من أين هو. قال

- « بريطاني .. من (شيفلد) .. »

وماذا جاء بهذا الأخ البريطاني من (شيفلد) إلى هذا الوكر ؟ وماذا يعمله في طنطا بالضبط ؟

قال لي إنه يدرس اللغة العربية في كلية الآداب هنا (فوسها) هكذا قال قاصدًا اللغة الفصحى طبعًا. كان مدمنًا لسلسلة أفلام (انديانا جونز) وهذه فرصته الأخيرة لرؤية الفيلم المذكور. ملت على صديقي أنقل له ما قيل وأضفت :

- « هذه تجربة مفيدة جدًا .. إنه إنسان راق وصداقته كنز . »

- « ش ش ش ش ! »

كانت هذه من الأخ البريطاني من (شيفلد). فاستدرت نحوه لأجد أنه ينظر لي وعيناه تطلقان شررًا في ظلام السينما. ووضع إصبعه على شفته كي أخرس، وقال في قسوة :

- « تذكر إنني لا أقرأ الترجمة مثلكم .. »

شعرت بالخجل من نفسي فعلا هؤلاء القوم متحضرون ولا يقضون سخافات يراها عادية مثل الكلام أثناء الأفلام ثم قال في لاطه وقرف وهو يلقي عقب السيجارة على الأرض :

- « سيجارة ؟ »

[illegible] يتكلم الآن [illegible] دولته واحدة أخرى من علبتي ورحت نتابع الأحداث على الشاشة حيث أسأله عن هذه النقطة أو هذا التعبير العامي فلا أظفر منه إلا بـ (ش ش ش ش !) ..

كان يدخن كمحرقة خشب الهندية بعد الطوفان ، وسرعان ما نفدت سجائري فكرمشت العلبة وطلبت من صديق [illegible] بعض [illegible] ليس لي ولكن لهذه المدخنة البريطانية بجواري ..

[illegible] وهو يطلق صفحته [illegible]

فسأل البريطاني [illegible] عربية لأن ما معه [illegible] يكفي فقط للعودة لداره هكذا فعلت وقلت لنفسي أن هذا البريطاني يجب أن يعود لبلاده ليتكلم عن كرم [illegible] الامبراطورية عرضت عليه [illegible] ساندوتش طعمية كذلك ليحس به ، لكنه قال باسمًا :

- « نو نو .. قذر جدًا ! »

ثم أردفها بـ (ش ش ش !) [illegible] بعد قليل [illegible]

[illegible] بين الصمت [illegible]

هنا هز رأسه وأغمض عينيه وقال في أسى

- « المصريون !.. لن يتغيروا أبدًا ! »

قلت لنفسي إن تصرف هؤلاء وقح على كل حال فمن حقه أن ينتقده ، لكن - بيني وبينك - صعد الدم إلى رأسي ليس من حقه أن ينتقدنا في بيتنا ، والمثل العامي يقول « ادعي على ابني وأكره اللي يقول آمين » لكني قلت لنفسي من جديد إن هذا الفتى قادم من حضارة أخرى وعالم آخر عالم أنجب موم وديكنز وجيمس جويس وبرنارد شو وويلز وبرام ستوكر وأوسكار وايلد فلابد أن صداقته مفيدة . وعلي أن أتحمل أكثر

بعد قليل قال صديقي المصري في الظلام :

- « نفدت سجائري ! هل أنت متأكد من أن هذا البريطاني يسحب الدخان ؟ لعله يمضغ في السجائر لتنتهي بسرعة ؟ »

- « ش ش ش ش ! »

قالها صديقي البريطاني من جهة المقعد الأخرى ومن جديد عاد يكرر

- « المصريون !! »

خرب الأخ ([illegible]) بيت كل أعدائه وألقى بهم للتماسيح ، وبدا أن عقدة الفيلم موشكة على الحل خلال دقائق هنا نهض البريطاني الذي لم أعرف اسمه وقال بسرعة ودون أن ينظر لنا :

- « تشيرز (تحية) .. »

وسرعان ما كان قد غاب في الظلام للأبد !..

تبادلت النظرات مع صديقي على الضوء المنعكس من الشاشة [illegible] تجربة حضارية مثمرة فعلا [illegible] هذا الأخ البريطاني [illegible] طيلة الفيلم ونسف سجائرنا نسفًا ، وجعلنا [illegible]

وسخر من المصريين أمامنا . وفي النهاية هو رجل عملي جدًا لا مجال للصداقة هنا . ونحن مخطئون لو حسبنا أنه سينتظرنا بعد عرض الفيلم ليمشي معنا ويحكي عن بريطانيا لقد استخدمنا بالقدر الذي أراده بالضبط ولم نكن نمثل له سوى مصدر متجدد للسجائر

قال صديقي الذي زار الدول الأوروبية مرارًا :

ـ « لا تعجب هم بهذا التفكير العملي حكموا العالم وامتصوا دمه بينما نحن لا نكف عن الانبهار بهم وملاحقتهم مدفوعين بعقدة الخواجة أو النوايا الحسنة والمشكلة أننا لا نتعلم الدرس أبدًا »

في هذه اللحظة هوت سيجارة مشتعلة قادمة من الترسو على ذراعي ، فالتقطتها أرضًا وأطفأتها بحذائي برغم هذا أشعر بأني أحب الترسو ومن فيه فعلاً انهم قومي إنهم المصريون حتى وإن لم يروقوا لهذا الأخ البريطاني من شيفيلد الذي لا أعرف اسمه حتى اليوم

برعم الوردة

يموت رجل الأعمال الملياردير وآخر كلمة يلفظها هي (روزباد) أي برعم الوردة ترسل الصحف الأمريكية مندوبيها في تحقيق مرهق طويل لمعرفة كنه هذا الـ (روزباد) يتحركون في كل اتجاه من الذي مات الملياردير وهو يتمناه ؟ هو الذي أنشأ جنة صناعية كاملة اسمها (زانادو) فيها كل ما يشتهي في نهاية الفيلم نكتشف أن (روزباد) هي الزحافة التي كان يلعب بها في طفولته والتي اضطرت أمه لبيعها هكذا كبر الملياردير وامتلك أمريكا ذاتها لكنه ظل يتحرق شوقًا في عقله الباطن للعب بتلك الزحافة الصغيرة ! هذه هي القصة المؤثرة لفيلم (المواطن كين) تحفة (أورسون ويلز) ، والذي يحكي قصة حياة ملك الصحافة الأمريكي (راندولف هيرست) . . .

عندنا في العامية المصرية نقول « اللي ما شبعش على طبلية أبوه عمره ما يشبع » وهو يفسر حالة الجوع النهم لدى كل هؤلاء المليارديرات الذين يملئون المجتمع المصري اليوم ولا يشبعون من النهب أبدًا السبب ببساطة أنهم لم يشبعوا في طفولتهم ..

ينطبق الكلام على المال ..

ينطبق على الحنان ..

ينطبق على الحب ..

* * *

كان يحبها بحق .. تلك الرائحة الوليدة للعواطف القديمة لتوها من المصنع بعد فك السيلوفان .. هذه أول مرة تستعمل فيها قبلك .. هل يعمل جيدًا ؟ تذكر أننا ما زلنا في فترة الضمان .. رائحة المطر في الهواء والمكاشن التي تنتهي قبل الغروب .. والشعور الأليم بأنه سنعد

السمراء المرهفة الرقيقة ذات عيني الغزال .. كان يملك تلك القدرة السحرية على رؤية الجمال في صديقة البطلة .. الحمقى يطرون بإعجاب للبطلة ، ويفوتهم أن يروا ويفهموا الكنوز التي لدى صديقتها الخجول الصموت .. عندما تقترب أنت وتنحني أمام العرافة المقدسة وتخبرها كم هي رائعة .. كم هي أسطورية .. عندها تسحق وحدك أنهار اللبن والعسل التي ادخرتها لأول من يلاحظ ذلك .. ولا من يدرك أنها أروع من صديقتها المفتعلة الملطخة بالأصباغ

ويقـول رفـاقي : لن تفلح

ويقول رفاقي : هل تنجح ؟

أن ترقى درجـات المذبح

وتبث الكاهنـة العظمى

ترنيمة شجوى لا تبرح ؟

كان يحبها في صمت ثلاثة أعوام ، وفي حفل أسرة تكلية بمناسبة بهذه النعم طلبوا منه أن يلقي قصيدة .. مال على الفتى الذي يعرف لا يرعى الكهربي وطلب منه أن يتابع القصيدة بلحن (راجويه) .. سأله في غيظ:

إنت عاوز تقول قصيدة والا تغني ؟..

لن يفهم ..

وقف وبصوت مرتجف وعلى خلفية اللحن الرهيب ، خرج الصوت متسربًا لأوتار قلوب الجالسين .. لو كان صوتًا واثقًا أو أكثر ثباتًا قليلًا ما حدث هذا التأثير .. كان صادقًا وقد تلقى الجميع الإشارة بذلك .. كانت روحه هي التي تتكلم ..

ومهما كنت أو صرت .. أحبك مثلما أنت

فلا تتغيـــري أبـدًا .. وكـوني دائمًا أنت

بعينيك أنت تنسابين والأنظـــار تفترسك

وداعًا طفلتي السمراء حقًا سوف أفتقدك

بعد الحفل تدنو منه لتقول له في لطف .. كنت رائعًا .. يتراجع للخلف وبصوت الخدر يظهره شعرًا بأنه يذوب في الأبدية .. وفي سره يهمس

جـــاءت لتهمس : قـــــد أجـــدت

فيـــا مـــــلاكي رفـــــرفـي !

لـــو أنهـــــا كانـــــت تعي

أني احترقت كما الذبابة في لهيب تلهفي !

يقول لها وهو يوشك على الإغماء .

ـ « القصيدة دي كانت لك ! »

تقول وهي تنظر في عينيه :

ـ « ما أنا عارفة ! »

ألهذا يطلق الفرنسيون على الحب اسم (الميتة الصغرى) ؟ لست تموت فعلاً ..

تبدأ أيام الحلم

أطفـال تغمرهم النشوة
نتبـادل ألفاظًا خجلى
الـتـذ ببراءة ضحكتها
أجـبر عبير سذاجتها
وتجاهد كي تبدو أنثى
وأكافح كي أبدو رجلاً !

إني أهـواها تهـواني
يكفيها هذا يكفيني

ككل قصة حب أخرى لابـد أن تنتهي تنتهي بالفراق أو الزواج المهم أنها تنتهي كان هو يدري أدرك أن الحب جميل لكن نهايته مستحيلة قاسية حسابه في المصرف بضعة جنيهات إنه طالب لم ينه دراسته بعد والده مدير شركة كبرى لكنه مدير شركة لم يختلس قط ، لذا كان حسابه في المصرف أسوأ من حساب صاحبه لماذا أطلب منك الانتظار من أجل حلم قد لا يكون أبدا ؟ صديقاتك يظفرن بالزيجات الثرية صديقاتك يملكن كل شيء فرسان الأحلام يحلقون في السماء من حولكن أنتن كبيرات أصبحت أما عن بعض أطفال تتلقى المصروف من آبائنا ، ونتشاجر على لفافة تبغ وجدناها في درج أحدنا طيري مع صديقاتك .. طيري . أتركيني هنا في الوحل .. ولا تعودي أبدا

تبكي تدفن عينيها الجميلتين في منديلها فيصرخ فيها طـيري !! طيري !

اليوم يعرف كم كان حكيمًا في قراره هذا عندما لم يستطع أن يتزوج إلا بعد سن الثلاثين

من دونك لن أزعم أبدا أني أتنفس من دونك
من دونك أهذي أتثاءب أكتب أوراق أتعثر
ولصـبـح نـشـوان أتمـادى
ولصبـح فـتـور أتقهقـر
أحيـانا أضـحك أنـاس
أهمـس ألفـاظًا وسـنانة
وأخط عبارات الشكوى من فوق جدار الزنزانة

عبر أمام بيتها في شارع النحاس كما فعل ألف مرة من قبل هذه المرة يرى بوضوح باقة الأزهار في شرفتها بالطابق الخامس رسالة صامتة بليغة

وكانت باقة الأزهار تنظر لي من الشرفة
لقـد كانـت تواسـيني
تفتش في قفار العطف عن لفظ يعزيني
ورغم ضراوة الأشواك قد أحسست بالألفة
لقد كانت تصارحني بما قد كان في أمسي
ولم تجهـل حكايا الوهم والآهات واللهفة

* * *

لماذا يتذكر هذا الآن؟ منذ ذلك الحين كف عن كتابة الشعر
اكتسب هذا الاكتئاب السحر مع تلك اللمسة المتعبة التي عرفها كل من
قابله. إنه يتذكر... كان هناك حب حقيقي حريف في حياته وقد
اكتملت عناصره، لكنه ضاع للأبد... ربما يشعر بدنو النهاية... ربما
يهمس وهو يرى عدوه الموت تطفئ عينيه برغم الوردة... ويردد
عندها لا تسيئوا كثيرًا للسعادة

مهما حقق صاحبه من نجاح أو انتصار... مهما شاب شعره... مهما
اكتسب من حكمة... فهو لم يذق الوجبة الوحيدة التي اشتهاها حقًا.

دماغى كده

فى العلم الزائف

عن طب الأعشاب الذى خرب بيتنا

أطالب بتسجيل مرض جديد اكتشفه لعدد لنه وأطلق عليه اسم (فيلوفوبيا) ، ومعناه كما هو واضح (النفور من العلم) أو (كراهية العلم) . هذا الداء متوطن فى العالم العربى سائداً؛ إذ يبدو أن العقل العربى بينه وبين المنطق العلمى علاقة من الكراهية المتبادلة . وأوضح نموذج لذلك هو ذلك الفتى الذى يقف جوار كل مسجد تقريباً ، وقد نثر على الأرض ملاءة عليها عدة أكياس تحوى أشياء لا تعرف هل هى عيون مقلوعة أم صراصير محدومة ، وقد كتب بخط واضح ببطاقة تحت كل كيس (للبواسير) ، (لارتفاع الضغط) ، (للعجز الجنسى) . أما هذا يقف جوار المسجد فحجته سهلة ، سيوحى بأن نشاطه ذو طابع دينى ، ولن من يعترض عليه عندى علم موحد . أما كيف يعالج كل هذه الأمراض فهى دعوى قديمة قدم شربة الحاج بيومى . أتذكر مشهد كوميدى فى فيلم لسمير غانم ، إذ دخل إلى حانة فطلب من الساقى كأس كونياك صب له الساقى من برميل على المنضدة كأساً . طلب كأس نبيذ ، فتح الساقى نفس الصنبور وصب له كأساً . هنا يدخل الحانة صبى عامل (وابور جاز) ويقول للساقى : أمى بتقولك املالها الوابور ده . هكذا يمد الساقى يده يفتح الصنبور ويملأ الوابور أمام نظرات سمير غانم المذهولة !..

العريب أن هذه الأشياء الغامضة الملفوفة فى أكياس تباع كالكعك الساخن . لا أحد يعرف ما هى ولا اسم المادة الفعالة فيها ، لكنها تباع .

ليست الأعشاب لعبة . هناك فى كل مرجع صيدلة باب اسمه (السموم النباتية) . فطر (أمانيتا فالويدس) يسبب فشلاً حاداً للكبد

ى أن المريض يموت بغيبوبة كبدية خلال ساعات أو أيام . كنا نقرأ عن مرض انسداد أوردة الكبد veno-occlusive disease ونحسبه بعيداً عنا ، ثم تبين أن (الحمصيص) و(الرجلة) تؤدى هذا الدور بنجاح تام . أليست هذه نباتات وبالتالى طبيعية ومفيدة ؟ سيقولون لك إن كل دواء جاء من أصل نباتى . خذ عندك الأتروبين والديجيتالا والأسبرين و... نعم . لكنها أدوية جربت وعرف تركيبها ولم تخرج إلى التسويق إلا بعد حرب علمية بالمعنى الدقيق للكلمة .

ذكرت شبكة BBC التالى عن انتشار العلاج بالأعشاب الصينية فى بريطانيا : « تتمحور المشاكل حول عقاقير وأدوية تتضمن مادة أريستولوتشيا ، وهى مادة عشبية سمية تؤثر بدرجة رئيسية على الكلى ، كما يشتبه فى كونها مادة مسببة للسرطان أيضاً . كما كشفت الوكالة البريطانية وجود مواد سمية ثقيلة مثل الزئبق والزرنيخ فى عدد من الوصفات العشبية ، ويعترف رئيس الجمعية الأوروبية لممارسى طب الأعشاب مايكل ماكنتاير بأن هذا القطاع لا يخضع إلى أى رقابة أو تنظيم ، حتى وإن كان ذاتياً . ويقول إن بإمكان أى شخص الادعاء بأنه يفقه فى طب الأعشاب . ويعرف عن العلاج بالأعشاب أنه لا يخضع لنفس الرقابة والاختبارات الصارمة التى تخضع لها المنتجات الصيدلانية الخارجة من المختبرات العلمية . »

والقصة دائماً هكذا : رجل ذكى ليس طبيباً بالضرورة يتبنى طب الأعشاب ، يفتح لنفسه مركزاً ويتخذ سمت الرجل الورع الذى جاء (ليوقف كل واحد عند حده) ... له صلات خليجية قوية وله علاقات بأكثر من شركة أدوية عملاقة . وهو على استعداد صخم احتشد مستعد فى أية لحظة ليخرس معارضيه ويتهمهم بالكفر ... الأمر ... لمهنة

لا يجرؤ المريض على الاعتراف بأن طب الأعشاب خدله .. يا عم أكيد إحنا إللي ما بنعرفش نعيا ..

تأمل ما يقوله أحد هؤلاء المعالجين عن نفسه على شبكة الانترنت «السكرى : يعالج بتركيبة مكونة من 30 نوعًا من الأعشاب ومدة العلاج 11 يومًا. الضغط : تركيبة مكونة من 3 أنواع من الأعشاب ومدة العلاج أسبوع واحد. الصداع النصفي : نوع واحد من الأعشاب ومدة العلاج أسبوع واحد. الشلل النصفي : بفضل الله تعالى أستطيع أن أعالجه خلال ساعتين فقط بعمل لبخة من الأعشاب توضع على أماكن المشلول. كذلك الإيدز خلال مدة 6 أشهر، وعلاج حمل المرض في حوالي 4 أشهر. أما السرطان المرض الخبيث فهناك عشب ينمو اسمه الخبيث، إذ فالخبيث للخبيث، لمدة 91 يوم لسرطان الدم، 21 يوم لسرطان الرئة و ... ، و10 أشهر لسرطان العظام ..»

شوف الدقة يا أخي .. واحد وتسعون يوم لسرطان الدم .. ليس تسعين يومًا لأننا لا نلعب هنا .. الإيدز يعالج خلال ستة أشهر .. الشلل النصفي خلال ساعتين .. إذن لا تخف يا أخي عندما تصاب بالفالج من الغيظ وأنت تقرأ هذا الكلام .. فعلاجك موجود ولا يستغرق إلا ساعتين

نحن لا نعرف كم من مليارات حققتها الشركات من الترويج منتجاتها التي تعبد تعبئة حبة البركة والثوم (ولماذا لا يستعملهم المرضى مباشرة دون تعبئة؟) كبديل عن الطب المجرب موثق علميًا، مع أصداء هذه ... على الأمر نهدد باتهامك بالكفر لو اعترضت .. ... لثوم رائع بالفعل هو كذلك .. ولكن الأمور ليست لعبة .. لابد من مرور الدواء بمراحل شاقة (أربعة أطوار) قبل أن يقال إنه فعال .. لكن بوضع الخ...

هو أن كل من يسكن في بيت ريفي لديه في أرضه نبتة سحرية لا يعرف اسمها ولا خواصها .. لكنه مؤمن بأنها تشفي القلب أو السكرى أو السرطان لو قام بغليها وشرب النقيع مرتين يوميًا .

المهم أن تهرب من قبضة العلم الصارمة .. المهم ألا تجرب الدواء العلمي الدقيق الذي تم اختياره .. يظل يغلي ورق التين ويشربه (أصله طبيعي مش كيماوي) ليعالج مرض السكرى، برغم أن دواء السكرى معروف ورخيص الثمن نسبيًا .. يظل يفعل هذا إلى أن يموت

هذه النزعة الفيلوفوبيا تتبدى في كل شيء .. هناك دواء اشتهر في علاج التهاب الكبد (سي) .. انقسم الأطباء بصدده إلى فسطاطين على رأي الشيخ ابن لادن .. من يرى أنه كلام فارغ ومن يرى أنه رائع .. إذا اجريت تجربت وبرهنت على أنه كلام فارغ وجدت من يتكرك ويغمز بعينه .. إنه دواء رائع لكن شركات الأدوية العملاقة عابرة القارات يهمها أن يفشل كي تروح لعقار (الانترفيرون) باهظ الثمن .. طيب يا جماعة مش جايز هو فشل لأنه عقار فاشل ؟ عندها يضحكون ولسان حالهم يقول : رب اغفر له فإنه لا يعلم..

أما عن الأساليب البديلة لعلاج الفيروس سي فحدث بلا حرج .. رأيت تجربة علاج هذا الداء بالحمام .. الطريقة التي سببت ارتفاع أسعار الحمام في مصر كلها .. ثم ترى التجربة فتجد أن الرجل يضغط على الحمامة ضغطًا مدروسًا الغرض منه إزهاق روحها وهي تتعذب .. يتم تشريح الحمامة فتجدها ممزقة الأحشاء مهشمة الأضلاع كأن قطارًا مر فوقها .. لكنهم يؤكدون في ثقة إن سبب موتها هو مصاصها للفيروس

عيادات الأوزون وعيادات الأشعة فوق الحمراء وتحت البنفسجية كونت الملايين من الجنيهات .. دعك من أولئك الذين يصعدون المرضى تحت هرم وتفتح فمك لتتكلم فيخرسونك بورقة علمية صربية أو كرواتية تؤكد أن الأوزون رائع . ومن قال إن الصربيين ليسوا نصابين ؟

لكن هل فيروس سي له وجود أصلاً ؟ قرأت ذات مرة للأستاذ أحمد رجب في عموده الفهامة مقالاً ينقل فيه كلمات من وصفه بأنه (صاحب نظرية المناعة العربية) - الله تعالى أعلم بمعنى هذا - والذي يلقي قنبلته « الفيروس سي لا وجود له .. بل هو خرافة أطلقتها الشركات الأمريكية لترويج منتجاتها ! » .. يا سلام ! بعد اكتشاف فيروس التهاب الكبد سي بنحو خمسة عشر عاماً ومعرفة كل شيء عن تركيبه الجيني ، وبعد ما عقد ألف مؤتمر بلا مبالغة تناقش كل شاردة وواردة عن الفيروس وابتكار لقاح له والفصل طرق علاجه . وبعد ما كرس علماء مصريون أجلاء بينهم أسماء ليست أقل من عبد الرحمن الزيادي وياسين عبد الغفار وحلمي أباظة حياتهم من أجله ، يلقي علينا الدكتور بقنبلته المدوية لا يوجد فيروس سي بل هي مؤامرة أمريكية قذرة .. طيب نصدق الذين يؤمنون بأن الحمام والأعشاب تقتل الفيروس سي أم نصدق الذين يؤمنون أنه لا يوجد فيروس أصلاً ؟

المشكلة أن من يشكك اليوم في الفيروس سي هو كمن يشكك في وجود الأفيال ! تخيل أن يأتي اليوم من يقول : الأفيال لا وجود لها يا جدعة بل هي خدعة قذرة ابتكرتها حدائق الحيوان ! بالضبط نفس وزن الفصيحة والخبال والإصرار على الخطأ .. وهذا الطراز من المقولات لا يجد طريقه أبداً إلى المجلات الطبية ، ولكن يجد طريقه إلى الصحافة غير المتخصصة

لأسباب واضحة ، وأنا أنقى باللوم كله على هذا الطراز مما يطلقون عليه (طب مصاطب) حيث لا تجريب ولا توثيق ولا دراسات إحصائية ولا شيء .. مجرد كلام يلقى على عواهنه من عقول أعشتها أبخرة نظريات المؤامرة ، والرغبة في الشهرة بأي شكل.

تذكرت طبيب آخر أفردت له جريدة الشعب صفحة كاملة منذ أعوام يلقي بقنبلته : لا يوجد مرض إيدز .. أمريكا هي التي اخترعت هذا الوهم لتساعد على نشر الشذوذ الجنسي ! وبأمن معي المنطق المختل برغم أننا برغم أن العرب سادة المنطق : أمريكا تريد ترويج الشذوذ الجنسي لهذا لفقت مرضاً وأعلنت أنه ينتقل بالشذوذ الجنسي ! والكارثة أنه يشغل منصباً مهماً في مكافحة الأمراض المعدية بوزارة الصحة !

قبل هذا بأعوام زعم أستاذ شهير أنه ذهب إلى كينشاسا شهرين فقط اكتشف خلالهما علاج الإيدز ثم عاد ! في تلك الفترة نشرت كتب كثيرون .. بعد أعوام رأيت صورة هذا الطبيب في الصحف العالمية الفرنسية ، ليس لتمجيده ولكن كنموذج لأدعياء الطب في العالم الثالث ، وقد كتب إبراهيم سعده مقالاً كاملاً عن هذه الفضيحة .. إنه الفيموفوبيا يا سادة

في بعض الوصفات الطبية الشائعة نجد طريقة فعالة لعلاج العقم عند الرجال عن طريق تجفيف ذكر الذباب ، وابتلاع مقدار حبة منه يومياً ! هل هذا طب ؟ .. إنها من وصفات الأطباء السحرة البدائيين ، وعلاج أحرى يجوء منه أسلوب معروف في ممارسات السحر منذ القدم .. أي أن هذه الوصفة لا تمت للدين بل تمت لخيبة (سحر كدين) .. لكن هناك من لا يقبلون عن هذا الكلام بديلا ..

لقد ظل الناس يؤمنون بمقولة أرسطو قرونًا عديدة: عدد أسنان المرأة أقل من عدد أسنان الرجل.. هكذا أصدر فتواه وهو جالس على مصطبته الإغريقية، ولم يكلف خاطره بأن ينادي الزوجة من المطبخ ليعد أسنانها. وظل الناس يصدقون هذه المعلومة إلى أن جاء رجل وقح اسمه فيساليوس وعد أسنان الرجل وأسنان امرأة ولقي قتلته: العدد واحد في الجنسين. المدهش أننا ما زلنا نعيش جو أرسطو ونقاوم كي نظل فيه.

والنتيجة والصحة الآن: بوسع أي جندي أمريكي أن يجلس مسترخيًا أمام جهاز وفي يده علبة الكوكاكولا، وربما يصغي لموسيقى الروك كذلك، ليضغط زرًا فيزيل مدينة عربية عن الخريطة بكل من فيها من عباقرة يصرون على غلي أوراق البن لعلاج السكر بدلاً من ابتلاع قرصين من (الجليبكلازيد)..

إنهم مستمرون

إنهم مستمرون! أكتب هذه الكلمات في غرفة مغلقة، وبرغم هذا يتسلل دخان قش الأرز للعين في كل ركن. فلو خرجت إلى الشرفة لأصابك الهلع. نعم يا سادة.. محافظة الغربية أيضًا تعاني من حرق قش الأرز لكن أحدًا لا يتكلم عنها. فهي مجرد محطة استعداد وتدريب كي يصير حظها حظ الأخيرة لا أكثر. عندها تبدأ مشاكلها مع تلك المحافظة عالية الصوت. الحمد لله على أنني لست مصابًا بالربو وإلا لقضيت نحبي منذ أسبوع. أما مرضى الربو فلهم الله. إن المستشفيات تعج بهم. في أوائل السبعينات ظهرت تقليعة في طوكيو حيث معدلات التلوث الأعلى هي زجاجة بها أكسجين نقي تشتريها من البائع لتشم الهواء بضع دقائق. أي أنك تقف هناك مع أصدقائك وترشف رشفة أكسجين جريئة. يبدو أن هذه الظاهرة ستبدأ عندنا وعندها تكون مصر أول دولة تبيع الهواء في زجاجات فعلاً. ولسوف يصير شراء الهواء من البقال جزءًا من نشاطك اليومي. في عصر الاهتمام بالبيئة وكل هذه المؤتمرات واللافتات في كل مكان، سيخرب بيتي لو أشعلت لفافة تبغ، يتساءل المرء عما إذا كان دخان حرق الأرز هذا أكثر أمنًا وتحضرًا من سجائري فعلاً.

في الكتب التي تتكلم عن علامات الساعة نجد علامة الضباب الأبيض الذي يتسلل للبيوت فيعمي العيون، ويختنق به الكفار والعصاة أما المؤمنون فلا يلاحظونه. سوف تزعم الحكومة أنه لا يوجد ضباب ولا حاجة، وإنها تشك في بعاس.. لا عجب.. فهؤلاء القوم مستمرون للأبد ولن يعوقهم شيء..

وسط هذا الجو الخانق الكئيب تشعر بأنه لا لزوم للماضي ولا جدوى من الغد، وأن الموت هو الحل الوحيد أمامك. لكنك تعرف أنهم لن يتركوك في سلام.. سيفتحون القبر ويدفنون فوقك واحدًا من قيادات المجالس المحلية أو الحزب الوطني.. لا غرابة فهم مستمرون

مع كل هذه الكآبة والقرف، نجح البريد الإلكتروني في تحدي هذا الخبر العظيم الذي تم توزيعه على 58468 عنوانًا على الأقل: « طبيب سوداني ببريطانيا يكتشف علاج مرض السكري وداء الصرع ! العقار الجديد يقضي على السكري نهائيًا خلال 2 – 6 أشهر فقط !! »

السكري والصرع معًا؟ نهائيًا؟ مش واسعة شوية؟ كان هذا كل ما يقصده.. لم أسمع من قبل عن علاج السكري نهائيًا؟ أفضل الحلول الموجودة قائمة على تعويض الهرمون.. يعني العلاج مدى الحياة.

تقول الخبر بعناية فتحدث عن طبيب سوداني يدعى (طارق أرباب) مستشفى همرسميث التابع لكلية الطب جامعة لندن.. نجح في اختراع أول عقار في العالم لعلاج مرض السكري بصورة نهائية. وحصل على براءة اختراع من كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية التي سجل بهما الاختراع تحت الرقم (4065834). الحوار مع هذا الطبيب الظاهرة يقول إنه اكتشف أن إنزيم الأميلير يحول النشا إلى سكر، وهذا يمكن إثباته عن طريق اليود ! هذه التجربة يعرفها كل طالب ابتدائي على كل حال.. استطاع رباب تحويل الأميلير إلى عقار شاف (نهائي) للسكر.. يقول إن مرضى السكري يعانون من نقص في المادة الكافية التي تهضم السكر والنشا.. لا أريد أن أبدو متعصبًا وعنصريًا. لكني عدت إلى العلامات المؤكدة على العلم الزائف التي وضعها روبرت بارك أستاذ الفيزياء بجامعة ميريلاند صاحب كتاب (علم الفودوو .. الطريق من الحماقة إلى الخديعة) وهو كتاب شهير جدًا.

العلامة الأولى: المكتشف يقدم إدعاءاته لوسائل الإعلام مباشرة: العلم يعتمد على أن يقدم العالم أفكاره الجديدة لتدقيق العلماء الآخرين؛ إذ يتوقع العلماء أن يقدم زملاؤهم الأفكار لهم أولاً.. بالفعل نجد أن الأخ رباب يقدم بحثه لمجلة سودانية شهيرة. لكنك لا تجد شيئًا عن أبحاثه في أية مجلة طبية.. لقد زعم أن المجلة الطبية البريطانية BMJ قبلت بحثه.. لكن هذا لم يحدث كما سنرى حالاً.

العلامة الثانية: المكتشف يقول إن المؤسسات الكبرى تحاول حجب عمله: وهذا الباحث يؤكد أنه سجل اختراعه في الولايات المتحدة خشية من أن تسرقه الشركات الكبرى.

العلامة الثالثة: المكتشف أجرى أبحاثه وحده: صورة العالم العبقري الذي يسهر الليل وحده في قبو هي صورة تناسب أفلام هوليوود للخيال العلمي، لكن لا يمكن أن تتحقق في الواقع

العلامة الرابعة: المكتشف مضطر لأن يصمم قوانين طبيعة جديدة يفسر بها الظاهرة: يلقي العالم سبب انتشار السكري على تخمير المواد الغذائية، وتخزين الغذاء لفترات طويلة في الثلاجات، واستخدام المواد الكيمائية في الحفاظ على المواد الغذائية.. ويقول إن الدقيق صعب الهضم. وإذا لم يهضم يترسب في الأنسجة والشرايين الدقيقة والكبيرة داخل الجسم، فيكون الشخص عرضة لأمراض القلب والفشل الكلوي وأمراض المخ بالإضافة إلى السكري.. وهذا يمكن حله بإضافة بعض كربونات الصوديوم التي تحلل الدقيق في الجسم لأجزاء صغيرة.. ما هذا الكلام ؟.. يبدو مهمًا منطقيًا لكنه ليس كذلك.. أي طالب أي كيميائي حيوي عن هذا الكلام الفارغ

وبنفس المنطق الغريب يقول أرباب: البحوث العلمية الحديثة أثبتت أن هناك علاقة شبه قوية بين ضيق الشرايين الذي يصيب القلب ومرض الصرع الذي يحدث نتيجة ضيق في شرايين الدماغ ، وليس نتيجة شحنات كهربائية في الدماغ كما كان يعتقد في السابق. وبدلت بعد الاكتشاف الجديد حقيقة مرض الصرع ، ابتكرت عملية جراحية جديدة لمعالجة الصرع تعتمد على توسيع شرايين الدم داخل الدماغ ! أي طبيب يعرف أن هذا كلام عجيب ..

هكذا وجدت أن هذا العالم حقق أربعًا من آيات العلم الزائف من سبع وضعها (بارك) .. على أنني قررت أن أبحث عن اسمه أكثر في الإنترنت ، فوجدت موقعًا سودانيًا محترمًا عقلانيًا يذكر هذه الحقائق :

1 ـ اتصلوا بمستشفى همر سميث يسألون عن (أرباب) هذا فكان الرد أنه لا يوجد أحد بهذا الاسم عندهم ! ثم تذكروا في خطاب آخر أن هناك واحدًا لكنه يعمل بعقد شرفي وهو على الأرجح ممارس عام .

2 ـ رقم براءة الاختراع المذكورة هي لـ (استيك ساعة) ! لا أعتقد أنها الطريقة المثلى لعلاج السكري والصرع .

3 ـ المجلة الطبية البريطانية لم تنشر أي بحث لطبيب اسمه أرباب .

أنهيت قراءة هذه المعلومات ، وفتحت النافذة لاستنشق المزيد من السحابة السوداء التي لم تعد بهذا السوء .. هؤلاء القوم مستمرون .. مستمرون في الأكاذيب والادعاءات والتلفيق .. لا ألوم الجهلة حظه ، فمن أين يعرف غير المتخصص الحقيقة وسط هذا الكلام الكبير كله ؟ .. وقد رأيت جريدة الشعب عندما تقع في ذات الخطأ . ورأينا أخبار اليوم وغيرها .. كنت أعتقد أن الإخوة السودانيين أفلتوا من معظم تلك الأمراض المصرية لكن اتضح أن هذا داء عربي أصيل كما يبدو .. لقاءات صحفية وأمل زائف لمرضى الصرع والسكري ومنطق معطوب . وهذا الرجل يعرف أنه يكذب .. ولو لم يكن يعرف أنه يكذب فهو مخبول تمامًا .. إنهم إنما يستحقون ما يحدث لهم .. يستحقون السحابة السوداء ويستحقون حكوماتهم بالتأكيد ، فلا أمل في الخلاص ما لم نتغير أولاً .

هؤلاء النصابون الكبار وابتكاراتهم العبقرية

-1-

أخيرًا شاهدت حلقات البرنامج الأمريكي (هراء) الذي أرسل لي صديقي الكويتي حلقات موسم كامل منه . (هراء) أو (فضلات ثيران) هي الترجمة المهذبة لاسم البرنامج البذيء . والذي يقدمه اثنان من المشعوذين الظرفاء سيئي السمعة هما (بن) و(ستيلر) اللذان قررا أن يكرسا حياتهما لمحاربة الخرافة والسخف والنصب .. نفس الدور الذي لعبه منذ مائة عام مشعوذ آخر هو (هوديني) على أساس أن (حيل على حيل مايخرمش) كما يقولون عندنا ..

الحلقة التي استمتعت بها تدور عن الطب البديل .. يمكنني اليوم أن استعمل الكلمة بحرية بعد أن فضل د . (محمد المخزنجي) استعمال لفظة (الطب المكمل) .. منذ البداية يقول مقدم الحلقة في استمتاع : « نحن نبحث عن الهراء .. وما دمنا نتكلم عن الطب البديل فالمشكلة هي من أين نبدأ ؟ »

ويأخذك البرنامج في رحلة ممتعة بين هذا النصاب الذي يجوب الولايات المتحدة بشاحنة ، ويقوم بتدليك القدمين بجهاز يحدث دندنة معينة تدغدغ القدم ، ويتقاضى 55 دولارًا في الساعة .. يطلقون على هذا النوع من العلاج اسم reflexology ويقضي بأن كل أعضاء الجسم لها جزء تمثلها في القدم .. ثم يأخذك البرنامج إلى المعالجين بالمغناطيس .. هناك مغناطيس لكل عضو من أعضاء جسدك . والفكرة هي تصحيح مغناطيسية جسمك المختلة .. يؤكد الدكتور المتحمس بهذه الطريقة

وكلهم يحملون لقب دكتور على فكرة .. أن رسم المخ الكهربي أظهر انخفاض معدلات التوتر لدى من عولجوا بهذه الطريقة .. هنا يذكرنا البرنامج بأن رسام المخ الكهربي لا دور له في قياس التوتر .. ويعلق أحد أساتذة الأمراض العصبية أن أجسامنا لا تعمل بهذه الكيفية ولا دور للمغناطيس فيها .. هناك جو علمي مهيب حول الموضوع لكن الحقيقة هي أنه مجرد هراء ..

بعد هذا نرى الـ Chiropractor وهو نصاب آخر يعالج بفلسفة تقوم على أن كل الأمراض تنجم عن ربكة الفقرات .. لهذا يمارس هذه العملية التي هي أقرب للتدليك العنيف جدًا .. يعترف الرجل الذي يزعم أنه حصل على الدكتوراه بأنه أجرى هذه العملية العنيفة على طفل عمره شهر واحد ليعالجه من الإكزيما..!

هكذا ينتقل البرنامج من هراء لآخر ، وفي النهاية يلتقي بعالم كتب عن هؤلاء النصابين كتابًا اسمه (الفودوو العلمي) .. يقول هذا العالم إن الأمر كله يعتمد على الإيحاء ورغبة الشفاء لدى المريض .. ثم يصف كل هذا الذي يحدث بعبارة قاسية هي : "إنه مجرد استمناء فكري" .

تركت هذا البرنامج الشائق وشأنه إلى مصر التي تعشش فيها سرطان الطب البديل .. قد تطيب النفس أن تنسى حقيقة أن هذا النصب يجري في أكثر دول العالم تقدمًا . لكننا نقول إن هناك فارقين مهمين بيننا وبينهم : الفرق الأول هو أن طريقتهم العلمية صارمة وثابتة .. يستعملون المقاييس التي وضعها كانط وديكارت وليسوا على استعداد للتخلي عنها .. لن تتكلم مجلة طبية محترمة عن العلاج بالمغناطيس ، ولو تكلمت لقامت بإجراء دراسة مقارنة مع مجموعة ضابطة خضعت لعلاج وهمي لاختبار لدى

لا يكذب . هكذا يظل الخط واضحًا بين ما هو علم وما هو علم زائف . بينما عندنا يطرد العلم الزائف العلم الحقيقي . ولسنا نعد من الغريب أن يطلب ملك المريض ألا يكتب له علاج السكر لأن معالجه نصحه بعدم تعاطيه . هناك أطباء يبيعون الأعشاب في عياداتهم أو خلائط غريبة من مستحضرات ركبوها بأنفسهم . عرفت طبيبًا كان يعالج مرضى المستقيم بأن يسكب فوقه العسل الأبيض يوميًا . وبعد ما مات المريض كان رأيه هو أن العسل (مش قطفة أولى) ..

الفارق الثاني هو أنهم لم يربطوا هذا النوع من الطب بالدين . وبهذا لم يصنعوا درعًا واقيًا حول ادعاءاتهم يصعب أن تخرقه . عندما ابتكر طبيب مصري نوعًا من قطرات العين مستخلصة من العرق . وبرغم أنه يعالج المياه البيضاء لأن قميص سيدنا يوسف أعاد البصر لأبيه . فإنه قد ضمن رواج المنتج أولًا ووضع حوله سياجًا منيعًا يمنع من يخترق هذا السياج بالتشكيك . بدا أمام الناس كأنه يعارض صحيح الدين ، برغم أن ما حدث من عودة البصر كان معجزة إلهية . وإنكار قدرة العرق على شفاء المياه البيضاء لا علاقة له بالدين .

برغم الطابع المحلي القوي للطب الديني ، فإن رأيي الخاص هو أن ما حدث في الأعوام الأخيرة مصري خالص للعولمة . ربما تم هذا شعوريًا أو لا شعوريًا ، لكن هناك من الأذكياء من درس التجارب الغربية وعرف كيف يصنع قرشين منها . هكذا بدأت ظواهر المعالجين الروحيين تتسرب لنا ... تسربت لنا الكثير من الطب البديل ... برامج مريم نور التي تمزج الشامانية بالبوذية باليوجا في خليط واحد خلاب ... ظاهرة الداعية التليفزيوني الوسيم الأنيق ... أليست تكرارًا لظاهرة الواعظ المحترف

التليفزيوني في الغرب ؟ ... ترجمت مكتبة رجل الدين المتعالم (الزهري الذي يعرف ما يتكلم عنه حقًا ... حتى الطريقة الأمريكية) في الوصول للثروة والنجاح في الحياة وجذب من يتلقفهم عنده

ثمة سمة عامة تجمع هؤلاء جميعًا ... من الصعب أن تكون مقنعًا ما لم تكن مقتنعًا ... لهذا هم يجمعون بين الاقتناع والإقناع ، فلا أعتقد أن أحدهم ينفرد بنفسه خلف الستار ليضحك قليلًا قبل أن يعود لمواجهة الجمهور ... بالنسبة لهم ما يقومون به عظيم الفائدة ... حقيقة تتأكد لدى كل منهم وهو يجتاز مدخل البنك ليصرف الشيك الخامس في شهر واحد .. هل هناك شيء أكثر فائدة ؟

هم شرسون جدًا في الدفاع عما يزعمون ، وهذا قد يصل درجة التوحش أحيانًا ... هذا طبيعي لأنك في الواقع تحاربهم في صنعتهم ورزقهم لدى جمهورهم ... وتحرمهم كل هذه الأرباح ... حرب أن بعض الشخصيات على دفع ... لدى ... عند مدخل شارعكم ، وسوف تعرفها ... قدر ... فوق رأسك ... وكم ... سيارة تاكسي ذات مرة ... قوتي يا ... على موتي

خلف هذه الألاعيب ... يأتي علاج الالتهاب ... بالجسم ، ويبقى ... محددة مثل ... العصبية ... دائرة شيطانية ... تدور ... تريد معلومات أكثر عن هذه الألاعيب الجديدة ... لهذه ... يولد المزيد من ... لدى ... هؤلاء ... الجديدة ..

-2-

تعليقًا على مقال الأسبوع الماضي . وصلتني بعض خطابات تدور حول ذات المنطق تقريبًا . ومنها هذا الخطاب لصديق لن أذكر اسمه لأنني لم أطلب إذنه في النشر : « منذ أيام مرض والدي ودخل المستشفى وأجرى قسطرة في القلب . وعرفت أن ثمن قسطرة القلب عشرين ألف جنيه والأشعة الرنين المغناطيسي تكلف 450 جنيه وهناك أدوية وحقن سعرها 100 جنيه أو أكثر . والإقامة ليلة واحدة في المستشفى تكلف أكثر من 200 جنيه هل تعتقد أن من يجرون وراء الأوهام يجرون بخاطرهم ؟! إنهم لم يجدوا شيئًا أفضل وأرخص ليجربوه . أنا مستعد أن أبيع كل أنواع الأعشاب إذا مرضت ولم أجد أي علاج أو كنت لا أملك ثمن العلاج !!!

الناس معذورة في الجري وراء الطب البديل . العلاج والدواء والأشعات والعمليات ثمنها غالٍ جدًا . ولا يقدر عليها أكثر الناس ... من لا يجد العلاج أو من لا يملك ثمن العلاج من حقه أن يجرب كل شيء وأي شيء ما لم يكن حرامًا .. »

الحقيقة أنني لا أستطيع أن أرغم نفسي على ... هذا المنطق . إذا كان هناك أطباء جشعون بلا رحمة ، وإذا كانت هناك أمراض بلا علاج . فليس الحل هو أن نجري في الاتجاه المعاكس لنهوى القليل الذي أمكنه عند أباطرة الطب الزائف الذين لا يملكون ما يقدمون ... كان المال نوع من الطاقة يجب أن تخرج في هذا الاتجاه أو ذاك ... لا تعط الأطباء مالك أعطني إياه وضع ثقتك بي ..

وبرغم هذا فإنني لا أرى شيئًا رخيصًا في هذا كله ... المصابون بداء السكري يدفعون الكثير فعلا على علاجات الأعشاب عديمة النفع ، برغم

أن علاج السكر المحترم العلمي ليس باهظًا إلى هذا الحد ... إنهم ينفقون الكثير على العلاج بالحمام والأوزون والأشعة تحت الحمراء ... لكنهم يدفعون هذه الأموال في رضا تام ويمكن أن يتشاجروا معك لو فتحت فمك معترضًا ... هذا في رأيي يعود إلى سلوك إنساني طبيعي ، هو أن الإنسان لا يقبل أن يعترف بأنه قابل للخداع أو إنه خُدع فعلاً

يتحدث أباطرة الطب البديل عن الإبر الصينية رابطين بينها وبين ما يروجون له من هراء ... قل لهم إن الإبر الصينية درست دراسة مدققة منذ زيارة نيكسون للصين في أوائل السبعينات . وهناك رسائل دكتوراه عنها في كل مكان بالعالم . وسوف تجدها في مجلات مثل (لانست) و(بي إم جي) ، وهي جزء مهم من مقرر علم وظائف الأعضاء لدى أي طالب طب ... فقط عندها يبرز بعض الأساطرة أن يريدوا طيف الكسب ليجعلوها تشفي من سرطان الكبد ومن الالتهاب ... ومن تلف صمامات القلب ، مع الهراء المعتاد الذي لا يمكن إثباته « الإبر الصينية تزيد المناعة عن طريق تنشيط الخلايا المساعدة (ت) وتزيد إفراز مواد معينة منشطة للمقاومة ... » إلخ ... هنا فقط تسمع النغمة المألوفة وتعرف أن العلم قد صمت ، بينما تكلم الدجل

المريض قد يئس من الطب التقليدي ويريد تجربة أي شيء بأي ثمن جليل جدًا ... هذا بالضبط هو القصد الذي خرج هؤلاء القوم ليظفر به هذا هو مصدر رزقهم ، ومن ورائه سيبنون العمارات ويركب أولادهم الـبي إم دابليو ويغزون شاليهات الساحل الشمالي ... سوف يعيش كل منهم على المصابات ، وسوف ينشر كتابًا يبيع مليون نسخة ، وسوف يخصص خطًا هاتفيًا للرد على الاستفسارات ... كل هذا ... ليس هبة ولا تبرعًا ..

يعتمد هؤلاء كذلك على نقطة نفسية مهمة هي ارتفاع نغمة الشك في الأطباء والتحقير ضدهم في وسائل الإعلام .. لا يمر يوم من دون أن نقرأ عن الطبيب الفلاني الذي نسي الفوطة في بطن مريض ، أو سرق كلية مريض ، أو أعطى المريض علاجاً خاطئاً .. هكذا يزداد اليقين لدى المريض أن الأطباء مجموعة من الجهلة الجشعين الذين يسرقون مالك وأعضاءك .. هم دائماً غير موجودين في المستشفيات فإذا تواجدوا ارتكبوا الأخطاء المهنية القاتلة .. إذن من بقي ؟ .. الأمر الوحيد هو ذلك الدجال الذي يظهر على الفضائيات ويعالج السرطان بالأعشاب ..

مثلاً في برنامج تلفزيوني جماهيري منذ عدة أعوام ، ظهر الفنان ... السكندري يحكي قصته مع نوبة ارتفاع ضغط أصابته ، فذهب إلى المستشفى حيث أعطاه الطبيب نوعاً من الكبسولات تحت اللسان ، والنتيجة أنه شعر بصداع مروع مع زغللة عين واحمرار في الوجه .. حكى القصة بطريقة درامية مع الكاريزما الفائقة التي يتمتع بها ، فعبرت حلقة أخرى من مسلسل فشل الأطباء وجهلهم .. كل طبيب يعرف أن هذا أثر جانبي معتاد لعقار (نيفيدين) الذي وضعوه تحت لسانه لإنقاذ الموقف ، وكانت هذه فعلاً سياسة صحية في ذلك الزمن .. الصداع وزغللة العينين لا معنى لهم سوى أن العقار بدأ يعمل .. لكن البرنامج قد أعد أصلاً لاتهام سمعة الأطباء والشك فيهم ، ولا يمكن أن يسمح لطبيب بأن يفسد هذه الوليمة ..

كل طبيب يعرف ذلك المريض الذي يقصده في المستشفى المجاني طالباً استشارته . فيفحصه الطبيب ويقضي معه وقتاً طويلاً ثم يكتب له العلاج .. هنا يبرز المريض روشتة أخرى من جيبه ويسأل : « لقد سألت

زميلك الفلاني منذ قليل وكتب لي هذا .. فما رأيك ؟ » .. هكذا هو يجرب الاستزادة من وقت الأطباء وجهدهم على سبيل (الاستخسار) ، ولأنه لا يثق في كليهما . وفي الوقت ذاته يحاول أن يجعل اللصين يختلفان لتظهر البضاعة المسروقة .. نفس المريض يذهب في سعادة ويجلس في عيادة طبيب يأخذ مائتي جنيه في الكشف ، وينفذ كل ما يطلبه الطبيب عن طيب خاطر ، لأن ما هو مجاني لا قيمة له ..

هل الشفة المنسية في الجرح مسئولية الجراح ؟ .. كل من حضر العمليات الجراحية ورأى كيف تبتل هذه الشفة بالدم فلا تختلف عن الأنسجة البشرية الدامية في شيء .. هنا يأتي دور ممرضة العمليات المسئولة عن عد الشاش .. يقول الجراح للممرضة في نهاية الجراحة وقبل أن يخيط الجرح : « عدي الفوط » .. فتعدها لتتيقن من أن العدد الذي معها هو العدد الذي بدأت به الجراحة .. هنا فقط يبدأ خياطة الجرح .. عدم وجود شفة منسية بعد هذا فهل هي مسئولية الجراح الذي يتحمل مائة مسئولية أخرى ، أم هي مسئولية ممرضة العمليات ؟ .. لماذا نتكلم عن مسلسل إهمال الأطباء ، ولا نتكلم عن داء الاستهتار والإهمال لدى الإنسان المصري ؟

لا أعني بهذا أن الأطباء مجموعة من الملائكة .. هم جزء من المجتمع بكل عيوبه .. جرب أن تتعامل مع موظف في مجلس المدينة أو الكهرباء أو السجل المدني أو التعليم الثانوي ، وسترى كيف يقوم الضمير بواجبه خير قيام أم لا ؟ .. أنت تطلب الطبيب أن يتقاضى مائتي جنيه في الشهر ويعيش ويبحث ، ولا ينشغل بعيادته ، ويتابع أحدث الاكتشافات العلمية ، ويكون موجوداً متى أردته .. بصراحة .. ألا ترى أن الطب مهنة إنسانية طبعاً .. وهل هذا يعني أن الطبيب ليس إنساناً ذا حاجات ؟

برغم هذا هناك أمثلة إيجابية لا تنتهي كلنا يعرفها لكن هذه الأخبار غير مثيرة صحفيًا من منطلق أن خبر (عض الرجل الكلب) يبيع أفضل من (عض الكلب الرجل) . وكما يقول (آثر كلارك) « لابد أن جرائد المدينة الفاضلة مملة جدًا بالتأكيد » لكن مسلسل الشك هذا يؤدي بالضرورة إلى رواج الطب البديل وثراء أباطرته . دعك من أن العلم بطبعه كئيب لا يعد إلا بما يستطيع تحقيقه لا توجد خوارق ولا معجزات في العلم وهذا بالطبع لا يرضي المرضى .

سوف تنتهي هذه الهوجة ويدرك الجميع أنهم كانوا مخدوعين لكنهم لن يعترفوا بهذا في الوقت ذاته سيكون هؤلاء النصابون الكبار قد وجدوا طريقة أخرى للحصول على الرزق رغم المسحوق المطحون أو براز الفئران المرحاض فقط لنجلس أمام الفضائيات وننتظر النصاب القادم

-3-

يحكي صديقي أستاذ جراحة العظام عن قريبه المسن المشلول حبيس الفراش منذ أعوام ، وكيف أن ابن الرجل طلب رأي أحد أصدقائه من طلبة الشريعة بصدد عمل حجامة لأبيه . فقال له ربما يتيسر إن شاء الله . وجاء في اليوم التالي إلى البيت حاملاً موسى وطستًا . وفي الفراش جثم على صدر العجوز المشلول ليجري عدة جروح قطعية سخية على جانبي رأسه ، بينما العجوز يعوي ويطلق ما استطاع من صرخات استغاثة من حنجرته المشلولة بالطبع تدهور أمر الجروح وطلبوا رأي صديقي أستاذ العظام ..

قال لي صديقي وهو غير مصدق إذن في القرن الواحد والعشرين ، ما زال عندنا غير متخصص يمزق عجوزًا مشلولاً بالموسى وهو يجثم على صدره ، بدعوى أن هذا هو الدين الصحيح ..

الحقيقة أن معظم الأطباء لا يستسيغون هذه الأنواع من العلاج بحال ، ولديهم تحفظات قوية عليها . لكنهم يحتفظون بآرائهم سرًا نظرًا للغلالة الكثيفة من التقديس التي تحيط بها من يجادل يهدد بأن يتحول إلى فولتير أو ماركس . بينما لا أحد يرغب في بطولة من هذا النوع أكثر من طبيب قال لي همسًا إن مرضاه تدهوروا لما شربوا بول الإبل ، وأكثر من واحد قال همسًا إن الحجامة لم تأت بنتيجة ..

أصعب شيء في العالم أن تقول ما يستفز الجماهير أو يضايقها والشيخ القرضاوي يقول في أحد حواراته إن نفاق العالم للحاكم كريه لكن خطره محدود ، بينما الخطر الحقيقي هو نفاق العالم للناس بأن يقول لهم ما يشتهون سماعه ..

يمكن للمرء ببعض الجهد أن يفند مزاعم المفتين بالحجامة عندما يتعلق الأمر بالحجامة وبول الإبل سوف يلقى أسئلة علمية ، لكنك تنزلق إلى المصيدة التي أعدوها لك : ماذا تريد أن تجرب سنة هذه أمور ثابتة في الطب النبوي ولا جدوى من التجربة ؟ تقول ... فيقاطعونك "هل تؤمن بالسنة أم لا ؟ " إذن « هل فهمت الورطة التي يقودونك إليها ؟ أنت تؤمن بالسنة لكنك لا تؤمن أن الحجامة من أركان الدين التي لا يكتمل الإيمان إلا بها ... إن هذه الورطة مصيدة محكمة هي ذات المصيدة التي كانت تبيع صكوك الغفران في القرون الوسطى . وأنا أعرف أنك لا تملك الثقافة الشرعية الكافية للرد ، لكنك بالتأكيد تملك الثقافة الطبية . وهذه الثقافة تقول لك إن هناك خطأ ما نحن نتزلق إلى الهاوية بسرعة جنونية

وجدت المخرج المنطقي في مقال للمحترف الشجاع د. خالد منتصر على شبكة الإنترنت . يقول فيه : « لأن صوت الاجتهاد معيب في هذه الأيام فإننا لا نلتفت إلى هذه الآراء الشجاعة . فمثلاً الشيخ الجليل عبد المنعم النمر في كتابه العظيم (الاجتهاد) في صفحتي 38 و 40 يفرق بين السنة التي يجب اتباعها والسنة التي لا تثريب على تركها . فيقول إن ما صدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم في زراعة وتطبيب وتطعيم وما يحبه الرسول وما يكرهه وكيف يمشي ويومه ولبسه إلى غير ذلك من الأمور العادية . كل ذلك من النوع الذي لا يمنع أحد من الاجتهاد فيه إذا وجد أنه لم يعد يحقق المصلحة التي أرادها الرسول بتغير الناس والأمكنة ... ونص المعنى يقوله محمد سليمان الأشقر أستاذ الشريعة بجامعة الكويت ، وينقصني الآن التذكير في ترك العمل بالأحاديث

الطبية ليست في ذلك مخطئة ولا ناقصة لأنها أمور اعتيادية يعرفها من جربها وجعلها همه وشغل بها ... » باختصار (أنتم أعلم بشئون دنياكم)

ثم يقول د. خالد منتصر : « كيف يعالج دواء أو إجراء جراحي المرض ونقيضه في نفس الوقت ؟ ، وكيف تعالج الحجامة السمنة والنحافة ، والنزف وانقطاع الدم .... إلخ ؟ »

في موقع إسلام أون لاين وهو الموقع العقلاني للإخوان نقرأ ما يلي : « فلا يصح إطلاق القول بأن الحجامة علاج كامل ونهائي لكل الأمراض هي فقط وسيلة من وسائل العلاج يوجد بها عند الحاجة ، بل إن تطبيق الحجامة على أيدي غير متخصصين يتيح الفرصة لتعرض المرضى الطب النبوي للدعاية لها بشكل سيء بحيث تظهر على أنها نوع من الدجل والشعوذة ، ويمكن للحجامة أن تنقل العديد من أمراض الدم الخطيرة "

في الحقيقة لا أقول إنني ضد الحجامة وبول الإبل ... أنا ضد الترويج لهما كعلاج قبل عمل دراسة مدققة أمينة بعيدة عن التحيز والتهويل ... لا يهمها أن تكون النتيجة إيجابية ... من مصلحتي أن ترفض علاجاً مجرد أنه غريب أو (مقرف) ، والدليل على هذا ويسمح لي ذوق القارئ ... كل ... في الماضي ... تصبح كل هذه نوعاً من ... كما عرفت يوم أصيب مرضى الكوليرا في الهند ... الصحة ... حتى الآن نعرف أنه يحوي كمية كبيرة من لاقمات البكتريا Bacteriophages التي تلتهم بكتريا الكوليرا ...

لذا أنا لا أرفض ... بول الإبل ... لكني كذلك لا أقبله قبل أن تجرى دراسة مدققة أمينة ، ويتم مقارنة من يتعاطون العلاج مع من لا يتعاطون ، ويتم فصل وتوصيف المادة التي تشفي الفيروس ...

لها وجود . لكن لا ترفض العلاج قبل التجريب ، ولا تقبله قبل التجريب .. في الحالتين أنت تقع في فخ الانغلاق الفكري والأحكام المسبقة Prejudices ..

النقطة الأخرى المهمة هي الحياد العلمي .. هل يمكن أن يُجرى في دولة عربية بحث علمي تكون خلاصته : لم يتبين أن للحجامة دوراً في علاج مرض السكر . أو تبين أن المجموعة التي تعاطت بول الإبل تدهورت ؟ مستحيل .. أنت تجرى التجربة لتثبت كم هي ناجحة . والمجلات الطبية الخليجية تعج بأبحاث من هذا القبيل .. الجهات العلمية الأكثر صدقاً تصمت ولا تعلن نتائجها . وإني لأذكر هوجة الأعشاب التي سادت في التسعينات لعلاج التهاب الكبد سي ، وقيل إن جهات بحثية مهمة تجرى دراسة مدققة تعلن في يونيو القادم .. يومها قال لنا د. (حلمي أباظة) أستاذ أمراض الكبد الشهير : "أراهن أن يونيو بتاعهم ده مش جاي أبداً !" .. والحقيقة أن نتائج الدراسة لم تعلن منذ يونيو 1995 حتى هذه اللحظة فعلاً ..

لكن الصابئين الكبار لا يتطورون كلمة العلم .. ها هو ذا بيزنس الحجامة وبيزنس أبوال الإبل يجتاح كل شيء .. كالعادة لا يوجد شيء مجاني .. هناك كتب عن الحجامة وأفلام فيديو تشرح أساليب الحجامة . وهناك أجهزة للحجامة المنزلية .. و .. و ..

تقرأ عن الحجامة أخباراً مثل أن 38 ولاية في أمريكا تمارس العلاج بالحجامة بشكل رسمي ، وأن مايو كلينيك تبنتها ، وأن هناك مجلات أمريكية وألمانية صدرت مخصصة لها فقط ، وأن الأسرة المالكة في بريطانيا طلبت من فريق طبي سوري معالجة بعض أفرادها من .. الهيموفيليا

الوراثي .. ألا تشم رائحة راسبوتين في هذا الخبر ؟ .. وحتى لو صح فمن قال إن الطب البديل ليس له زبائن في الغرب ؟ .. إنهم يثقون في أي شيء يأتي من الشرق باعتباره منبع الحكمة .. دعك من أن الحجامة فعلاً لها تطبيقات مهمة في بعض فروع الطب ، لكنها ليست علاجاً لكل شيء كما يزعم هؤلاء ، وبالتأكيد هي الطريقة المثلى لقتل مريض الهيموفيليا

من أهم الأخطار استقطاب عدد من الأطباء بل أساتذة الطب الذين لا يهتمون بالطريقة العلمية ، لكنهم يعملون كفقهاء السلطان لتحليل هذه الأنماط غير العلمية من العلاج . وعندما يقول طبيب إن مجلة أمريكية تصدر للحجامة فأنت تجد صعوبة في التكذيب .. لكني جربت البحث المضني في شبكة الإنترنت والمجلات الطبية الكبرى عن رأي الغرب في الحجامة ، فلم أجد لها ذكراً إلا في موسوعة ويكيبيديا .. الموسوعة نشرت المقال بعنوان Hejama لأن هناك من أرسله لها . وصفحته صفحة المقالات الضعيفة التي تحتاج إلى أسانيد ومراجع .. إذن أين مايو كلينيك وأين المجلات المخصصة للحجامة و ..و ... ؟

ينقسم هؤلاء الأطباء المحللين إلى المنتفعين وحسني النية والمرضى النفسيين لكنهم جميعاً تكاتفوا لمحاربة عقل هذه الأمة .. النوع الأخير معروف جداً تعرفه من تعصبه وضيق حلقه والنظرات المحمومة التي يطلقها من وراء نظارته ، واللعاب الذي يتطاير من فمه عندما يناقشه أحد .. هذا مزيج عبقري من التعصب والجنون ، وأفضل أنواع التعصب هو ما جاء من مجنون لأنه يشع طاقة نفسية هائلة تقنع العامة ..

من بين هؤلاء الأطباء الذين يلقون الكلام على عواهنه تجد طبيب

الذى تلقفت به جريدة معروفة مهمة ، وأفردت له صفحتين يلقي فيهما قنبلته .. الإيدز لا وجود له .. أمريكا هي التي اخترعت هذه الأكذوبة لتبرر الشذوذ الجنسي ! ومنهم من تقابل كبار الصحفيين ليؤكد أنه لا وجود لفيروس سي .. هذه مؤامرة من شركات الأدوية . لكنه مستعد ليعبر كلامه على الفور ليروج لأعشاب تعالج ذات الداء الذى لا وجود له .. هل تلوم العامة إذا صدقوا هذا بعد ما قاله طبيب ؟..

هؤلاء القوم جميعا هم أعداء الإسلام وأخطر عليه ألف مرة من جيوش المغول .. لا يحترمون خبرة الأجيال القديمة ، ولا التضليل والشك ولا همهم أن يموت أحد في نفسه .. لقد جربت الطب السوى ففشل .. يقصدون أن يقول الناس هذا .. ما دامت حساباتهم في المصارف تتكوم

وبينما العالم ينهض ويمشي حثيثا ويعدو ويثب ، يجلسون حول [illegible] ويقولون في عند كالأطفال .. وإيه يعني ؟ نحن كنا نعرف هذه الأمور منذ 1400 عام .. .

أمس صارت ماليزيا أفضل منا واليوم صارت إيران أفضل منا .. غدا تصير الكونغو أفضل منا وسندعو الله أن نلحق بها ، ونقيم المؤتمرات لفهم كيف حدث هذا .. اتقوا الله في هذه الأمة قليلا

كليوباترا هى وفاء

بقلم د . أحمد خالد توفيق

aktowfik@hotmail.com

أرسل لي أحد الشباب هذا الإعلان عن كتاب جديد في السوق ، وهو كتاب بصفة الإعلان بأنه (معجزة القرن 21) ، ويؤكد أنه مصرح به من الأزهر ووزارة الإعلام السعودي ورابطة العالم الإسلامي .. يعدنا الكتاب بأن يثبت لنا بالأدلة الشرعية ما يلي :

- الأرض ثابتة لا تدور حول نفسها ولا الشمس .
- السماء تبعد عن الأرض 7 ملايين كيلومتر فقط
- الأرض أكبر من الشمس والقمر معًا
- سرعة الضوء = سرعة الصوت .
- الشمس تجري حول الأرض يوميًا .
- أكذوبة عاش فيها حين من الدهر سمها الجاذبية الأرضية
- الأعرابي الذى كان أعلم من جاجارين أول رائد فضاء
- النجوم عددها محدود وقريبة جدًا من الأرض .
- الشمس تبعد عن الأرض 687272 كيلومترًا فقط
- الأرض ليست كوكبًا .
- الجبال لم تتكون من الأرض بل [illegible] من فوقها

سعر الكتاب ثلاثون جنيهًا في مجلد يمكنني أن أرى غلافه الأنيق المصبوغ بماء الذهب. يقول الإعلان إنها الطبعة التاسعة. طبعًا يمكنني أن أعرف أنه حقق نجاحًا مدويًا هائلًا. إنه لفخر جدًا أن تقرأ كتابًا كهذا، ولو وجدته أمامي لابتعته بلا تردد.

يجب أن يكون المرء عادلًا. بالطبع أنا لم أر الكتاب ولم أقرأه لهذا لن أعتمد على إعلان عنه، وبالتالي لا أضمن أن موافقة الأزهر عليه صحيحة بصورته المذكورة في الإعلان. أحب أن أعتقد هذا. لو صح الكلام المذكور في الإعلان لكانت ضربة قوية لعلمي الفلك والفيزياء ونظرية النسبية وميكانيكا الكم. فهذا المؤلف قد استطاع أن يسحق نيوتن وأينشتاين وكوبرنيكوس وإنريكو فيرمي وأوبنهايمر وجاليليو وهوكنج بضربة ساحقة ماحقة، دون أن يدرس حرفًا من علم الفيزياء.

يصاب المرء طيلة يومه بمثله مشابهة، وليس هذا الكلام غريبًا على مسامعنا على كل حال. لكن الاستمرار يبلغ أحيانًا درجات لا تطاق تجعلك تتساءل: ما جدوى الكتابة إذا طلبت صمتًا الآن؟

مثلًا: اعتدنا سماع ادعاء اليهود أنهم هم بناة الأهرام تحت قهر الفراعنة، ثم غادروا مصر وتركوها لنا هدية. بعد هذا جاء أنيس منصور ليطرح فكرة أن الأهرام جاءت من الفضاء. هناك مشكلة لدى العالم كله هي أن يأخذ الأهرام منا بأي تفسير ممكن. يجب أن نؤمن أن الأهرام لم يبنها الفتى الأسمر مفتول العضلات (حور) الذي هو جد (محمود) وعم (حسن) اللذين يقفان الآن في طابور الخبز في شبرا.

الآن يتطوع باحث مصري بدور مشابه، فيزعم نظرية فريدة من النظريات التي نبهر عليها كل يوم. وقد انطلق من نقطة ذكية هي أن

الأهرام مفرطة في الضخامة. هكذا يصل إلى نظريته التي تؤكد أن الأهرام لم يبنها اليهود ولا الفضائيون ولا الفراعنة! عنوان الكتاب الذي صدر عام 1996 يستحق وقفة: (الفراعنة لصوص حضارة)! وهو يعتمد على منطق بسيط: الأهرام ضخمة ولا نعرف طريقة بنائها. إذن من بناها عمالقة. لهذا كان الأمر سهلًا كأنهم يضعون علب كبريت فوق بعضها. انتهى البحث! تأمل هذه الحجة المنطقية القوية. فمن جهة العقل لا يوجد ما يدل على كون بناة الأهرام هم الفراعنة، بل الأنسب أن يكون بناته قوم عاد الذين أعطاهم الله عز وجل القوة وزادهم في الخلق بسطة. منطق غريب: ما دام البناء ضخمًا فمن صنعه هو الأضخم وقت صنعه. هناك صور كثيرة جدًا ملفقة ببرنامج فوتوشوب لهيكل عمالقة وعامل صعيدي يحفر ليظهر هيكل عملاق تحت الرمال. عندما يكون طول العملاق من قوم عاد 15 مترًا فإن حمل هذه الأحجار سهل جدًا. طبعًا الحكومة المصرية تخفي هذه الحقائق. لا أدري ما المنطق القوي هنا؟ هناك آثار ضخمة ولغز غامضة في الكون كله. وماذا عن أهرام المكسيك العربية يا أخي؟ من بناها؟ ألم نر المنمنمات الدقيقة التي توشك ألا تراها بالعين المجردة في المتحف المصري؟ هل سيتطوع بنظرية أخرى تؤكد أن شعبًا من الأقزام فعل ذلك؟

قوم عاد الأولى في رأي الباحث هم بناة الأهرام. بنى قومهم مدينة إرم ذات العماد بالأحقاف. ويتساءل: لماذا لم نجد مقابر وآثارًا لقوم عاد؟ لأن الأهرام هي آثارهم، وتعبير (إرم ذات العماد) القرآني يقصد به (الأهرام المدببة) لأن القبائل العربية كانت تنطق حرف الهاء همزة .. معلوماتي أن الأحقاف في الجزيرة العربية فما دخل مصر بها؟

الحقيقة الثانية كما تقول هي أن الفراعنة هكسوس جاءوا من شمال الجزيرة العربية ، وهم من العماليق نقيب عصر ثمود والخلاصة أن الحضارة الفرعونية جاءت من الجزيرة العربية ، بينما المصرى العادى كان غلبان جاهلاً نحيلاً مذعورًا يعيش في بيوت من طين .

الكتاب يحوى حقائق لا يتسع المجال لذكرها بالتفصيل ، لكن من بينها أنه لا يوجد شيء اسمه الشيخوخة لا توجد ديناصورات وما هي خدعة كبرى « هي عظام حيوانات قوم عاد العمالقة المدفونة منذ 70 ألف عام ، وحتى لا ينتبه الناس إلى هذه الحقيقة الجليلة قاموا بصورة شكل هكذا في الأصل ، الديناصورات مخيفة على العظام من وجوههم ووضع جبالهم وادعوا أنها عاشت منذ 65 مليون سنة لتلهية الناس » وديناصور الذي لا يدخل بابه هو هل يتصور أحد أن عمر العظام 65 مليون سنة ؟ الفراعنة كانوا يتحدثون باللغة العربية ولكن يكتبونها بحروف الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية وقد أثبت العديد من أساتذة اللغة العربية أن كليوباترا تعني في الأصل وفاء وأن آمون تعني أمين ، ورع تعني رأى وإخفاء تلك الحقيقة عن الناس سببه إخفاء حقيقة أن مصر هي أصل العرب فحسب ، بل لإخفاء حقيقة أن التوراة نزلت باللغة العربية "

منذ البداية هناك حول الموضوع صبغة دينية تهدد كل من تسول له نفسه لو أنكرته قوم عاد ذكروا في القرآن فإذا أنكرت قوم عاد أنكرت القرآن هذا صحيح ، لكن هذه الآية المعروفة هي مرجعية هو مقدس كما هو رأي مؤلف هل لو أنكرت أن قوم عاد بنوا الأهرام أكون قد أنكرت وجودهم ؟ بنفس الطريقة التي تعرف بها أن عيسى ابن مريم جاء من أحفادهم هل أنكر نبي جاء بالإسلام أنكر موجودًا هكذا يمكن أن يمر كل شيء وأي شيء

ثم يلعب على الوتر الذي لا يفشل أبدًا « وأكثر ما يصرّح به الأثريون تتم مصادرته بسبب قبل طرحه إعلاميًا . فعلوم الآثار قد صادرها الغرب مصادرة تامّة واستغلّها سياسيًّا .. »

بوضوح يتهم الباحث مقدمًا من يزعم أن الفراعنة بنوا الأهرام بأنه من عملاء اليهودية في مصر ! راجع المنطق المضطرب من جديد مثل منطق الطبيب الذي قال إن الإيدز لا وجود له وهو خدعة اختلقتها أمريكا لنشر الشذوذ ! كيف يمكن نشر الشذوذ باختراع داء يزعم أنه ينتقل بالشذوذ ؟..

الطريف أن صفحة قوية جدًا على شبكة الإنترنت والناس تقبلها كحقيقة مسلمة مدهشة جدًا ، وهناك قرأته قلب في دهشة « بالضبط مثل خدعة أنت عارف زعموا أنهم ركبوا على القمر ! » والكارثة الأفظع هي هذا الرد في أحد المنتديات « هو بجد الكلام ده حقيقي ؟ أنا أصلاً في كلية آثار بجد الكلام ده مضبوط أنا هتجنن أنا خلاص آخر سنة لي في الجامعة يعني الكلام اللي أنا بدرسه ده مش أي لازمة بالله عليك ترد علي » هذا طالب في آخر سنة بكلية الآثار ، وهو يشك في كل ما درسه من قبل بسبب هذا الكلام .

على موقع بلا توقف هل كان أحد يجرؤ على كتابة هذا الكلام منذ عشرين عامًا ؟ سوف يكتبونه ويصدقونه ويجدون من يقرأه في حماس معتبرًا هذا هو العلم كله ، ليس هذا بالضبط مناخ القرون الوسطى ومحاكم التفتيش وإعدام الكوبرنيكيين والتهديد بحرق جاليليو ؟ الاعتراض على هذا الهراء يهدد بأن تتحول إلى فولتير تكتب

يطالب بالعلمانية وإلغاء الدين كما فعلت أوروبا) يقولونها وهم ذاهبون للمصرف لإيداع حصيلة بيع الكتاب الأخير وصرف شيكات المصنفات بينما صمتت على هذا الكلام هو كتمان شهادة الحق فعلا والآن تصور معي النتيجة بعد عشرين عامًا وماذا نتوقع من شعب لا يقرأ سوى هذا الكلام . وقد عشش الصدأ وخيوط العناكب في رأسه تخيل معي !

عن العلم وشبه العلم

كتاب أنيق هو يحمل ذات الطابع (ابن الناس) الموحي بالثقة لدار المعارف . تلك التي بدأنا القراءة مع سلسلتها (كل شيء عن) سلسلة علمية صدرت في الزمن الجميل كتبها عالم أمريكي محترم وترجمها عالم مصري محترم . والتي لم أندهش عندما وجدت أن عدد طبعات أجزاء منها تجاوز التسع . ثم كبرنا فعرفنا سلسلة (اقرأ) التي قدمت لنا المعلومة والأدب الراقي لهذا كان لي الحق كل الحق أن أتحمس لشراء هذا الكتاب الذي يحمل اسم (أسرار الوحوش الخفية والإنسان العملاق 1999) للدكتور (علي علي السكري) وهو من المهتمين بمفهوم العلم من الناحية الإسلامية كما تدل على ذلك مؤلفاته السابقة

الصورة على الغلاف لديناصورات تتصارع . وهي ممسوحة من غلاف سلسلة أخرى هي (الكتب العلمية المبسطة) . وبرغم هذا هناك اسم لمصمم الغلاف أما عن محتوى الكتاب نفسه فيلخصه المؤلف في المقدمة بقوله (الغرض من هذا الكتاب إثبات وجود الديناصور والرخ والصاحنة والتنين وغيرها) تبدو العبارة غريبة طموحًا لكن لا توجد أحكام مسبقة في العلم المهم هي طريقته العلمية في إثبات ذلك يقول إنه اعتمد على كتابات القدماء مثل القزويني والدمشقي وسواهم ويقول (الواقع أن ما حكاه هؤلاء ليس أساطير لأنها رويت رؤية العين وتم التعرف عليها وقياس أبعادها) .

ثم يحدد الدكتور منهجه العلمي منذ البدء . ه يقول العقاد في كتابه (الإنسان في القرآن) : لعل الكشوف الكبيرة قد افتضحت أكثر ساحتين

بأن الرفض بغير برهان أمر بالبحث من المقبول بغير برهان » طبع العقاد يتكلم عن القرآن الكريم وهو حالة خاصة جداً . وقد استخدم الدكتور هذه العبارة ببراعة ليوحي بأن من يرفض مقولاته العلمية يمكن أن يرفض أشياء أخرى أكثر قداسة لكن ما علاقة كلام العقاد بقصص حكاها القزويني والدمشقي ؟ لقد رسم البحارة في القرون الوسطى رجالاً في الهند لهم قدم واحدة يتواثبون عليها ويرفعونها في المطر لتحميهم . ووصفوا قوماً لهم رءوس كلاب يعيشون حول ذلك الخليج . ووصفوا ناساً بلا رءوس عيونهم في صدورهم يعيشون في الرعب . مع عمالقة لهم آذان عملاقة يمكن أن يغطوا بها كالبطانية عند النوم كل هذا معروف وموثق وهناك خرائط كاملة عليها هذه الرسوم منطق الدكتور يجب علي أن أنفي وجود هذه الكائنات وإلا فهي موجودة منطق غريب جداً المفترض أن البينة على من ادعى وهو ذات منطق الولايات المتحدة في بدء الحرب على العراق على صدام أن يثبت أنه لا يملك أسلحة دمار شامل طيب لماذا لا تثبتون أنتم أنها عنده ؟

ينتقل الدكتور إلى مقدمة علمية رصينة جداً عن الديناصور يختمها بالسؤال هل اندثر الديناصور حقاً ؟ ثم يختمها بمقتطف من كلمات الإمام القزويني يحكي عن ظهور تنين عظيم في حلب عام 1226 ميلادية و426 هجرية ، ويخرج من فمه ناراً تحرق الشجر والنبات فاستغاث الناس بالله تعالى فأرسل سحابة حملته يحلل الدكتور المقطع بدقة ليصل إلى أن هذه الصفات تنطبق على ديناصور هكذا توصل الدكتور إلى وجود ديناصورات حية في حلب عام 1226 م ، ومعنى هذا أن الديناصورات لم تنقرض مع نهاية العصر الطباشيري منذ سبعين مليون

سنة كل هذا التراث العلمي الجيولوجي والباليونتولوجي يهدمه الدكتور بضربة لازب . وأسأل هنا هو ماذا كان هذا الديناصور يعمل طيلة سبعين مليون سنة فلم يظهر إلا في ذلك العصر ؟ لماذا لم يحك عنه مؤرخ آخر ؟ أين آثاره ؟ لكني لست متعصباً يا سيدي لو أتيت لي من (حلب) بعظام ديناصور يثبت الكربون المشع أنها تمت للقرن الثالث عشر فسوف أصدقك وأنحني احتراماً لك وللقزويني معاً

ثم ينتقل الدكتور إلى هدم نظرية فناء الديناصورات مستخدماً كلاماً علمياً موثقاً هكذا تبتدع أنت شبه العلم وسط العلم الحقيقي ، على طريقة فشر البطيخ الذي يضعونه مع السمك في الموائد ، من ثم يأكل الطاعمون هذا الخليط على أنه سمك

لكن وحوش الدكتور لا تكف عن الظهور مما يوحي بأن العالم العربي في العصرين الأموي والعباسي كان حديقة ديناصورات تتحدى حديقة (مايكل كرايتون) تنين آخر يظهر في نابلس يبدو من وصفه أنه فيل عملاق من نوع الماموث وقد كسر الأهالي نابه لذا سموه بلدتهم (نابلس ، أي (ناب بدون) ، على الطريقة الإنجليزية في إلصاق less بنهاية الكلمات بمعنى (بلا)..

ثم يقتطف مقالاً علمياً يحكي عن احتمال وجود أفيال عملاقة في أصقاع سيبيريا هذا ممكن يا دكتور في الأماكن غير المطروقة هناك ألغاز كثيرة على وجه الأرض ، وهناك وحوش عديدة لم نرها من قبل ، بل لا أستبعد وجود ديناصورات لم تنقرض بعد لكن لا نقبل أن هذا الماموث قد ظهر في نابلس فلم يره ويحك عنه إلا القزويني هذا كتب

كاملة عن رجل الثلوج المخيف (الياتي) و(الساسكواتش) لكن العلم لا ينظر لهذه الأمور بجدية ما لم يجد رجل جليد كاملا ويشرحه ويعرف كل شيء عنه ، ولم يتخذها ذريعة لإصدار كتاب يؤكد أن الإنسان أصله قرد مثلا

الآن ننتقل إلى حيوان الصحصحة ، الذي ليس هناك حيوان أكبر منه والذي عاش في أرض التبت ، والذي ما إن ينظر لحيوان آخر حتى يموت الحيوان ، وإذا رآه حيوان آخر مات الصحصحة تصور هذا ! حيوان حياته تتوقف على ألا يراه حيوان آخر ! طيب وعايش إزاي ؟ وكيف يبحث عن رزقه ؟ هل يرى الدكتور أن الكلام دليل قاطع على وجود ديناصور في التبت

هناك قصة أخرى حكاها (ابن الأثير) عن الطائر الضخم الذي ظهر بعمان عام 985 م ووقف على تل وصاح بلسان فصيح قد قرب قد قرب ثم غاص في البحر هذه القصة يأخذها الدكتور كحقيقة لا شك فيها على وجود ديناصورات مجنحة منذ ألف سنة ثم انقرضت طيب من قال إنها انقرضت ؟ ربما هي ما زالت بيننا بمنطقك ؟ أثبت لي أنها غير موجودة .

هناك فصل كامل عن الرخ ، وفصل كامل عن الناس الذين هم مشقوقون إلى نصف إنسان لأنهم من نسل النسناس (ابن أميم بن لاوذ) ، لكنهم يتكلمون ويقولون الشعر وهناك نساء تشدو واحدة في جزر بحر الهند وهي صفة نورث كما هو واضح وبعد كل قصة يقول « هذه القصة تؤكد بما لا يدع مجالا للشك على وجود كذا وكذا »

لم ينتهِ الكتاب بمجموعة هائلة من المراجع ..

لماذا اهتممت بهذا الكتاب ومثله بالآلاف ؟ السبب أنه لا ينتمي لتلك الكتب الصفر الرخيصة ، فناشره دار محترمة أثق بكل ما تنشره ، ومؤلفه رجل علم قد بحث بحثا مرهقا بلا شك من هنا مكمن الخطر لأنه كتاب يجيد التخفي في صورة كتاب علمي لقد بذل المؤلف كل هذا الجهد ليبرهن لك على أن كل حرف قاله الأقدمون صحيح قد أقبل هذا بالنسبة لتفسير ديني أو فقهي ، لكني لا أقبله بالنسبة لحقائق علمية تتعلق بالرخ والتنين الذي ظهر في حلب في القرن الثالث عشر خاصة إذا استخدم مؤلفه كل حجة علمية يملكها لإثبات أن هذا صحيح على طريقة (سرعة الصوت هي ثلث كيلومتر في الثانية وهذا يثبت بما لا يدع مجالا للشك أن أبو رجل مسلوخة وجد في عصور تاريخية معينة) هذا يعطي القارئ ثقة بالكلام من المؤكد أنه كلام محترم مادام يقول (سرعة الصوت) وما إلى ذلك ..

المشكلة أن هذا بالنسبة لأكثرنا هذا هو العلم ولا علم سواه

في فيلم الأب الروحي مشهد يمسك فيه بابا الفاتيكان بقطعة حجر مثله فيهشمها ، ويقول لآل باتشينو « هذا الحجر مثل أوروبا مبتل بالماء من الخارج لكن الماء لم ينفذ فيه هكذا أوروبا لم تبلغ المسيحية منها موضع القلب برغم كل هذه القرون » نحن كذلك عندنا شهادات عالية جدا ولدينا أبحاث تحمل أسماء براقة لكن التفكير العلمي المنطقي الذي أهداه لأوروبا ديكارت وكانط بلل عقولنا من الخارج لكنه لم يبلغها قط من الداخل .

دماغى كـده

فى بعض الآراء الفنية

أيها القارئ العربى   أنت غدائي!

فى كل عام بعد الامتحانات، ولأننى أتظاهر بأننى أب متفهم، يكون على أن أصحب الولد إلى سور الأزبكية لأبتاع له بعض القصص المصورة الأمريكية التى يهواها. والتى تباع وهى طازجة بسعر الذهب وتباع وهى قديمة بثلاثة جنيهات للنسخة. برغم هذا أدفع مبلغا محترما. ثم يدفعنى الفضول على أن أكتشف أنه لا يقرأ وإنما يشاهد الصور. من ثم أجرب بنفسى .. فى كل مرة أجده يقرأ فعلا .. ويبدو أن إنجليزيته ليست سيئة إلى الحد الذى ظننته

لا أعرف سر جاذبية فى هذه القصص ولا من يشد الشباب لها .. كتبت ذات مرة أن هذه القصص تنطلق من فرضية أن كل مواطن أمريكى يخفى ثانيه سرية تحت بدلته .. تتوتر الأمور فيهرع لغرفة سرية يبدل ثيابه ويطير فى الهواء ليمنع الطائرة من السقوط أو الجسر من الانهيار .. ظللت طويلا أحاول فهم كيف أن سوبرمان يخفى بدلة كاملة وفردتى حذاء فى جيبه ويرغم هذا .. هى ترفرف .. يطيران كالعلم .. حشد لعين من سوبرمان و باتمان و جرين لانترن و سبايدرمان وفتى الجحيم والعملاق الأخضر والأربعة المدهشين .. كلهم ضخام كالثيران متفرغ لمحاربة الشر طيلة الوقت .. حتى خطر لصانعى القصص أن يضموهم فى تنظيم واحد سموه JSA أو (رابطة العدل الأمريكية)، وهم يعبرون بعضهم من مجلة لأخرى .. لا تنس أنهم أمريكيون وأنهم السلاح السرى لأمريكا الذى يمكنها أن تحطم به أمثالنا. ولا تنس أن القصص الأخيرة للرجل الحديدى تدور كلها فى العراق، وفيها يوسع المقاومة ...

كانت هذه القصص تترجم بشكل منتظم في الماضي، وهناك حاليًا محاولات غير منتظمة لترجمتها، بل إن بعض المصريين أصدروا صيغتهم الخاصة من تلك القصص (أبطال العرب الخيبرة) نفس الرسم والأفكار والجو. فقط صار اسم الأبطال (آية) و(راكان) .. إلخ

أمسكت بعض هذه المجلات لأقرأها فلم أفهم شيئًا.. إن المجلة التي في يدك دائمًا تتمة حلقة أخرى سابقة لن تجدها أبدًا، والنهاية ليست نهاية لأن هناك حلقة أخرى قادمة لن تجدها أبدًا.. تحاول فهم المجلة التي بين يديك كوحدة مستقلة فلا تفهم شيئًا بسبب طريقة مربعات التعليق القصيرة المتلاحقة في الصفحة الأولى:

« كان الكيس كملا » « بعد انهيار جالاكتيكا » « كل شيء » « لكن الأمر ... » « إنها تتماسك » ... « ولكن »

كل هذه التعليقات الملاحمة على صورة كبيرة للبطلة وهي تبكي فوق جرف صخري ..

تحت قدم البطلة نجد أسماء: قصة فلان.. رسم بالقلم فلان.. تحبير فلان.. تلوين فلان.. حروف فلان.. الناشر فلان.. الموضوع لم يعد لعب إذن إنما هناك خط تجميع كامل كخطوط تجميع السيارات، لأنهم بحاجة إلى كم هائل ولا يحتاجون إلى عمق أو فن.. لكن لماذا يصر الأخ المسئول عن الحروف على استعمال حروف (كابيتال) دقيقة عسيرة القراءة؟ يبدو أن هذا قانون لا يمكن تغييره ..

تقلب الصفحة فترى فتوة مثل فتوات أحمد حلمي هو الرجل الأخضر، ينقض على امرأة تشبه البلدوزر الذي تحول لصاروخ، وهو يصيح: « سأحطم رأسك أيتها المرأة الثعبان » وهي بدورها تنقض

عليه وتقول: « سترى أيها الأخضر .. »

أين ذهبت المرأة الأخرى التي كانت تبكي على الصفحة الأولى؟ لا تعرف ولن تراها ثانية طيلة القصة.. هذه مشكلتك أنت

وهكذا يستمر الضرب والركلات على مدى عشرين صفحة مزدحمة بالتفاصيل والحجارة التي تطير في وجهك.. بذخ رهيب في الألوان والطباعة وخامة الورق والفن يستخدم الصفحات كأنه لا يوجد غد.. يعني يمكن أن تجد قبضة الرجل العنكبوت في صفحة واحدة كلها. هؤلاء لا يعانون مشاكل الفقر التي تعانيها مجلة سمير التي تحشر 16 كادرًا في الصفحة.. ونلاحظ ظاهرة غريبة هي أن قدم أي بلدوزر من هؤلاء لم تمس الأرض طيلة القصة.. كلهم في الهواء منذ أول كادر حتى آخر كادر حتى لو لم يكونوا قادرين على الطيران.. ثم إن هؤلاء الناس عندما يتشاجرون يتبادلون عبارات مزاح سخيفة على غرار: « لقد انتهى أمرك! » فيرد: « وأنت صرت غدائي! » عبارات طويلة جدًا بالنسبة لشخص يسقط من السماء أو يضرب بقبضته.. لكنك تقبل هذا!

لا تعرف متى ولا كيف انتهت القصة، لكنك تكتشف أن (موردو) يراقب هذا كله على شاشته ويضحك في وحشية.. وتعرف أنه ينوي التدخل.. القصة لم تنته إذن.. تابعوا معنا الجزء الثاني (الجميع ضد موردو)

هذه القصص باختصار لا تنتهي أبدًا ومن المستحيل أن تعرف متى وكيف بدأت ..

من حق المواطن الأمريكي أن يقرأ ما يريد ويستمتع به، حتى لو كانت

صفحة الوفيات. وعلى كل حال لقد نجحت السينما مؤخرًا في تحويل فن الستريبس إلى منجم ذهب لصانعيه من أمثال (ستان لي) و(فرانك ميلر) و(مايك ميولا) و(بوب كين).. إن إيمان المنتجين الأمريكيين بفن الستريبس الرديء كمصدر للأفلام بدأ بدينو دي لورنتيس مع فيلم (باربارللا) واستمر حتى اليوم..

لكن ماذا عن نحن؟ ما الذي يروق لنا في هذا الهراء إلى درجة أن نقوم بتقليده وترجمته ومحاكاته الحرفية؟ هناك تجارب كثيرة نجحت في الستريبس الأوروبي تستحق المتابعة بحق لكن لا توجد دور نشر تهتم بها أو تتولى ترجمتها، بينما هناك أكثر من مجلة صدرت في العالم العربي تحاول أن تجعل القارئ العربي يتذوق روعة الرجل العنكبوت والوطواط وسوبرمان وثورمان وأكسمان.. وما الذي نتوقعه من الطفل المصري الذي تكونت ثقافته من (سأحطم رأسك أيها المرأة الضفدع) و(أنت غدائي)؟

قررت أن أبدأ بنفسي فأخبرت ابني أني لن أشتري له هذا الهراء ثانية.. لم يعلق وراح يسلي نفسه برسم قصص مصورة قريبة جدًا من أسلوب تلك المجلات.. أمس وجدت صورة رسمها على مكتبه.. لا أدري لماذا يبدو لي ذلك الرجل ذو النظارة والشعر الأكرت الذي يهشم العملاق الأخضر رأسه مألوفًا؟

رحت وأنا أتخيل رابطة العدل الأمريكية بقواتها البارعة تطير في الهواء لتحطم رءوس كل فناني الستريبس عندنا، ثم تنقض على عقول أطفالنا وهي تصيح: انتهى أمرك أيها القزم العربي.. أنت غدائي!

نظرية الأوتومبيل والفريرة

بقلم د. أحمد خالد توفيق

عادت ابنتي من عند البقال حاملة زجاجة من العصير، قائلة إن عصيرها حامض.. تفحصت الزجاجة بعناية فوجدت أن تاريخ الصلاحية انتهى منذ شهرين.. وهكذا ذهبت بنفسي للبقال متوقعًا أن يعتذر عن هذا الخطأ.. لكن ما أثار دهشتي هو أنه أخذ الزجاجة بلا كلمة واحدة وناولني أخرى حديثة التعبئة.. إذن هو ذلك النصاب كان يعرف منذ البداية! فقط كان الزبون طفلة في التاسعة لن تلاحظ الفرق وسوف تشرب أي شيء.. إنها ظاهرة الغش المعروفة مع الأطفال، فهم يأخذون دومًا العصير الحامض واللحم المنتفخ والخس التالف والجريدة الممزقة والمقعد المكسور في السينما.. لأن الأمر تم على خير في ٩٩٪ من الحالات

كل هذا مفهوم في مصر المحروسة برغم أنه عمل لا أخلاقي لا يختلف عن اغتصاب طفل صغير لمجرد أنه لن يفهم ما حدث له.. لكن منطقهم هو: لو لم نخدع الأطفال فمن نخدع إذن؟ لكن إذا فهمت الأمر مع هؤلاء النصابين فلن أقبله مع ثقافة دولة كاملة.. أو مع مجلة أطفال محترمة تصدر عن دار عريقة

كنت قد وجدت أن مجلة الأطفال الشهيرة تلك نشرت ترجمة مسلسلة لرواية (مفتاح السري للكون) التي كتبها أعجوبة العصر (ستيفن هوكنج)، عالم الفيزياء البريطاني المشلول الذي يتكلم عن طريق جهاز خاص يضغط على أزراره، والذي اكتشف نظرية (الانفجار الكبير)

الذى بدأ الكون. واكتشف أشياء أخرى كثيرة لا أفهمها بالضبط لأسباب ستعرفها حالاً. المهم أن الرجل كتب رواية للأطفال تمنيت أن أقرأها. كثير من كتاب الخيال العلمي علماء أصلاً ومنهم (إسحاق أزيموف) و(آرثر كلارك) و(يوسف عز الدين عيسى) مثلاً، لكن هذا عن رواية خيال علمي للأطفال كتبها عالم؟ هكذا ابتعت المجلة في حماس ممنيًا عقلي بمتعة لا توصف..

يا فرحة ما تمت! الترجمة التي نشرت على ثلاث صفحات مستحيلة الفهم، وسوف أنقل لك مقطعًا منها بالحرف الواحد

« الأولاد يسمونه جريبر الزحاف Greeper the Greeper وذلك لعادته الخفية بالظهور دون إنذار في الأركان القصية بالمدرسة لن يسمع إلا صرير خفت لحذاء سميك النعل ورائحة باهتة لتبغ قديم وقبل أن يدرك أحد يكون جريبر قد نال من أي خطة سرية تدبر للأذى. وهو Creeper تعني الزحاف والكلمتان جريبر وكريبر فيهما سجع يحرك في حدل يديه الخشنتين بندوبهما لا يعرف أحد كيف توصل إلى أن يغطي كلتا يديه بآثار قشور حمراء ذات قشور تبدو أليمة وما من أحد لديه الجرأة ليسأله عن ذلك.. »

قشور حمراء ذات قشور؟.. يا نهار اسود!.. فاهم حاجة؟ إذن أنت عبقري أما العبد لله فمحدود الذكاء، ولا أفهم إلا أن هذه الترجمة تمت بأحد برامج الترجمة مثل (الوافي) وتم لصقها كما هي دون إعادة قراءة النص أو وضع نقطة أو فاصلة يوحد الله. كلنا نعرف عربيه برامج الترجمة هذه. أحدها قام بترجمة USB وهو الموصل المسلسل العام إلى

(الولايات المتحدة ب) وهو ما أثار سخرية مجلة (بي سي) التي حذرتنا من أن الولايات المتحدة (ب) أخطر مراحل من الولايات المتحدة التي نعرفها!

مثال آخر مضحك ذكره الفنان الكبير (محيي الدين اللباد) عندما قرأ في ذهول إعلانًا حكوميًا تعلن فيه وزارة الثقافة عن جائزة لأفضل تصميم لشخصية كرتونية عربية للأطفال (ميكي ماوس). هكذا قال الإعلان ويتساءل الأستاذ: ما معنى هذا؟ هل الحكومة تطلق اسم (ميكي ماوس) على أية شخصية للأطفال باعتبارها جميعًا (ميكي ماوسات)؟ وكيف تكون عربية إذا كان الإعلان يفترض أولاً أن تكون الشخصية (ميكي ماوس)؟ الخلاصة هي أن من كتب الإعلان لا يفقه حرفًا عن ثقافة الطفل..

الاستخفاف بالطفل.. طيلة الوقت. ذات منطق البقال الذى باع العصير الحامض لابنتي..

اعتدت كلما اعتبرني أحد من كتاب الطفل أن أؤكد أنني لم أبلغ بعد درجة الموهبة الكافية للكتابة للأطفال، وهم يعتبرون هذا نوعًا من التواضع الأحمق، لكني موضوعي لا أقيم نفسي بأكثر أو أقل من حقيقتي أبدًا. هذه هي الحقيقة. الأطفال كائنات حساسة ذكية تختلف عنا نحن الذين اعتدنا القبح وانعدام الموهبة وبرنامج (صباح الخير يا مصر) فلم يعد يؤثر فينا شيء. هذه الكائنات يجب أن تنال أفضل وأرقى وأجمل شيء. ولنذهب نحن للجحيم فقد اعتدنا ذلك على كل حال.

عندما رحل الشارع أن يبتاع لابنه أوراقًا (بلاستك و بريسة)

وعصيرًا احمر لا يعلم الا الله ما فيه . وهكذا نعتقد أنه قدم لطفل احتياجاته . وهذا هو ما يفعلونه على نطاق أوسع المطرب الذي فشل يصير مطربا دائما ببرامج الأطفال الملحن معدوم الموهبة يلحن للأطفال الرسام (نص الكم) يجترونه يرسم للأطفال املا ساعات التلفزيونية بأفلام رسوم متحركة يسمونها كرتون ، فهو فقط وقت وبطنه لا يهمهم ما تقول ولا يهمهم ان نقدم ذاته يتكرر في كل يوم . ولا ان مذيعة البرنامج التي اوقعت زجاجة ماء كسحت على شعرها لتبدو شعثاء تقطع التعليم في مسلسل غير مبالية تكون الطفل يتابع القصة ام لا . فهو كائن قل من البشر ولا يرى فيه مجرد ملء ساعات وكل شيء بالكيلو . ومن هذه البرامج والمجلات الا صبغة اخرى من الفريرة والشراب الاحمر أو العصير الحامض الذي أعطاه البقال لابنتي ..

هذه الترجمة الرديئة لقصة هوكنج ليست سوى نموذج ثالث للفريرة والشراب الأحمر ..

ومن ذما مع الفنان الكبير (الـ...) فلابد من ذكر سخريته من مجلة أطفال عربية غير مصرية تنشر على غلافها صورة مدوب وهي تمص صبعها في اغراء . هل هذه ثقافة طفل ؟ والادهى ان ذات المجلة نشرت على غلافها ذات مرة صورة مبهجة رهة الأبوان لاثنين من معارضي النظام معلقين على المشنقة ! وهي رسالة واضحة ان الذي لن يسمع كلام بابا ترعيه يا حبايبي حنعلقه في المشنقة ويصرخ : !! آآآآه !..

على فكرة النقاد من هم الجادين في موضوع ثقافة الطفل . و ذكر ان مجلة سمير قدمت له في أوائل الستينات تجارب مصرية بالغة الأهمية .

منها قصة كاملة حول فيرن رسمها بطريقة (فن البوب ، واسلوب الكولاج الذي كان سائدا وقتها . وبالتالي رتقي بالطفل المصري خطوة وهو يتابع القصة مثيرة المعقدة هل رأيت رسم مصطفى حسين لقصة (حيال الحقل ؟) او المرجع المصري الفاخر الذي قدمته دار الهلال مع قصة (الحصان الأسود) التي اطلقت عليها (مذكرات حصان) ، حيث صمم في كتاب كل لوحة رسمت بمخطاط منذ فجر التاريخ ؟ البعض يصر على ان يكون ... بهدم ... ترقي ، بينما يصر الباقون على ان الأطفال يجب أن يشربوا العصير الحامض ..

النتيجة ؟ يمكنك ان ترى في المشروع هذا المسطحي وهذا المغشي وهذا المتحمس وهذا ... وهذا الخريج ... كلهم ترسوا بطريقة الفريرة .

حتى ان كاتب هذا المقال ... طريقته غير بعيدة جدا عن الفريرة . لقد ... عرفت ان هوكنج اكتشف شيئا مهما جدا لكني لا أفهم ما هو بالضبط

حدثه ... من حديثه في ... انه شيء خطير جدا ... مصدر ... على ... يفهم ما اكتشفه هوكنج ، ... هو قصة من صورة مدوب على الغلاف ... شخصية كرتونية ... مكي ... او ... فشل على الإطلاق لرسم قصص الأطفال ، لعل ... في الأعوام القادمة

عن العصر الذهبي لمجلة سمير

د . أحمد خالد توفيق

أولاً دعني أؤكد لك إني لست من جيل مجلة (السندباد) حتى لو كنت تعتقد أنني عجوز لهذه الدرجة .. هناك جيل كامل تربى على رسوم بيكار في هذه المجلة لكنه ليس جيلي .. إنما أنا من جيل (سمير) و (ميكي) توءما دار الهلال اللذان صنعا ثقافتنا الأولى .. الأول كان شخصية فرنسية مترجمة اسمها (سيرو) ثم صار عربيًا جدًا ، والثاني قادم من عالم ديزني الساحر .. ثمة وحش مترجم كان يأتي من بيروت يتكلم بلغة (السنورة والعلكة والبوظة) هو مجلات سوبرمان والوطواط ولولو الصغيرة . وقد أوقفت هذه المجلات على كل حال لأن وزير الثقافة وقتها أدرك مدى ما تحمله من قيم أمريكية بعضها مغرض (المجلة المنحوسة التي وقعت في يد الوزير كانت تمثل سوبرمان ينقذ أبويه دون سبب ..) كان هذا قبل أن تأتي الضربة القاصمة من [illegible] في صورة عملاق فرانكفوني لا يمكن منافسته اسمه مجلة (تان تان) .. هنا اجتمع أفضل المؤلفين البلجيكيين مع أفضل الرسامين ليصنعوا هذا الحلم الجميل الذي استمر عشرة أعوام ، قبل أن تتوقف .

كما قلت من قبل كانت مجلة سمير تقدم شخصية فرنسية اسمها (سيرو) يرسمها فنان اسمه (بربي) ، ومع الوقت صار (سمير) عربيًا أكثر فأكثر .. اسمر لونه وتجعد شعره وصار يشتري الفول ويأكل الكنافة في رمضان ، ورسمه عدة فنانين مثل التهامي وحجازي وسيم جرجس

وسط كل الإبهار والإتقان الحرفي لدى سحرة ديزني ومارفل ودي سي كوميكس ، استطاعت مجلة (سمير) ان تعيش وأن يصير لها قراؤها والسبب هو كتيبة المؤلفين والفنانين التي استطاعت دار الهلال أن تحشدهم في ذلك العصر الذهبي ..

لم تعد عندي مجلات (سمير) ، لكني أتذكر كل حرف نشر فيها (ليس شيئا هينا بعد ثلاثين عامًا) . والطبيعي هو أن هؤلاء الفنانين كانوا يحبون ما يقومون به فعلا ، ومقتنعون به جدًا .. بالتأكيد لم يتقاضوا إلا ملاليم بالنسبة لما يناله فنانو اليوم إذا تعاملوا مع صحافة الطفل الخليجية .. النقطة الأكثر أهمية هي أنهم ظلوا في قوقعة تعزلهم عن أساليب السرد الغربية ، كأنهم هم مكتشفو هذا الفن ، وهكذا لا يمكن أن تجد فيهم استنساخا لرسامي (دي سي كوميكس) أو رسامي (ماد) كما تجد في أكثر رسامي اليوم .. لو تأملت رسوم (عدلي رزق الله) لشخصية (أشعب) لوجدت أسلوبا طفوليًا أقرب إلى المنمنمات الفارسية ، وبالتأكيد لم يستعمله أحد في القصص المصورة قبله ولا بعده .. وماذا عن رسوم (محمد نجيب) و (كنعان) و (مأمون) التشكيلية المتوهجة ؟ .. لقد تخصص نجيب الأول في قصص المقاومة الفلسطينية وكان يرسم الإسرائيليين أقرب إلى الوطاويط مصاصة الدماء . وما زلت أذكر رسمه لقصة كفاح (مارتن لوثر كنج) .. أما رسم (مأمون) لقصة (سبرتاكوس) فهو مجموعة من اللوحات التشكيلية التي زودت ببالونات الحوار .. بالطبع يصعب كراهية الصهاينة من هذه القصص لأن من رسموها كانوا يكرهون الصهاينة فعلاً قبل أن

كل مسرحيات شكسبير قرأتها للمرة الأولى على شكل قصص مصورة في مجلة سمير .. عرفت أديسون وبيتهوفن وباستير هنا .. هل حقًا لا تعرف (بيمون) و(أليس هاو) ؟ .. بالطبع لأنك لم تكن من قراء سمير ..

ثم يأتي (محيي الدين اللباد) .. اللباد العظيم لدى قرار أن يدلق الطفل المصري أساليب فنية أكثر غرابة وحداثة .. إنه يقدم لنا قصة كاملة من أدب (جول فيرن) مستعملًا أسلوب نيكولاس وفن البوب . لا تنس أن هذا كان عصر البوب و(آندي وارهول) على كل حال . فتستعمل ذات العالم (المشجر) الدافع للألوان الذي تراه في فيلم البيتلز (الغواصة الصفراء) .. تخيل قصة لا ترى فيها وجهًا بل وجهًا وقبعات ! .. وقد قدم لنا اللباد شخصيات طريفة جدًا مثل بواب السكندري (فرفورة) الذي يثير رعب الإسرائيليين ، وزغلول أفندي بشاربه الأحمر .

الخبث من عمل في المجلة كان عمنا الكبير (حجازي) .. بعد قدم لهذه المجلة أضعاف ما قدم لروز اليوسف وصباح الخير معًا . لكن الكبار كعادتهم ينظرون لما يطالعه أطفالهم على أنه (شغل عيال) .. من هذه الثغرة تسلل حجازي وألف ورسم حزمة قصص يمكن تصورها .. لابد أن رجال المخابرات كانوا يقضون يومهم في تعذيب الإخوان والشيوعيين ، ويمسكون بالميكروسكوب في كل مطبوعة وجريدة . ثم يشترون مجلة سمير في طريق العودة ليقرأها أطفالهم .. غير عالمين أنها تحوي قصص (تنابلة الصبيان) لحجازي ..

ما كل هذا الإلهام ؟ لقد كان الانفتاح في علم الغيب .. ولم تكن

هوجة الأطعمة الفاسدة ولا الغش الصناعي قد بدأت . وما أذكره على قدر علمي أن الشرطة كانت في خدمة الشعب وقتها قبل أن يصير الشعب في خدمة الشرطة .. لكن عمنا حجازي يقدم لنا ثلاثة أطفال كسولين شديدي البدانة والخبث هم تنابلة الصبيان .. هؤلاء الأطفال القادمون من بلاد السلطان يعبثون بالاقتصاد المصري لعبًا .. لقد استعملوا علب البولوبيف المصنع في الغرب وغيروا الورقة الملصقة عليه ليبيعوه على أنه منتج مصري مائة في المائة ! .. وزارة الصناعة تهمل والإعلام يصفق والمدائح للمهرجان تجري مجرى الماء .. لقد صاروا من أقطاب الصناعة في مصر وهم يسعون للأكثر .. الأدهى أنهم يتفقون مع نشال مشهور هو (علي عليوة) ليسرح رجاله بسرقة رواتب موظفي شركتهم أول الشهر ! .. وهكذا يدور المال دورته ويتمكنون من دفع الرواتب أول كل شهر .. يقرر الموظفون ركوب سيارات أجرة لتفادي النشل ، هنا تبدي شخصية حجازي عندما نكتشف أن قوانين الشركة تحتم على الموظفين العودة بالأوتوبيس ! .. واحد فقط يكتشف اللعبة هو سمير نفسه .. يحاول فضح اللعبة ويوزع منشورات ضدهم فيعتقل ويحاكمه محكمة أمن الدولة ويلقي به في السجن .. لاحظ أننا نعرض قصة أطفال نشرت عام 1969 ! .. وفي النهاية يفر التنابلة بما سرقوه إلى الخارج ! (هذه النهاية اضطرت دار الهلال لتغييرها في الألبوم الذي أصدرته للقصة في عهد السادات) ..

هناك قصة أخرى لتنابلة الصبيان تحكي كيف تقمص أحدهم دور ضابط والآخر دور وكيل نيابة والآخر دور طبيب .. وهبطوا على قرية مصرية بريئة ليحتلوا مع العمدة والبقال [illegible] مواشي

الفلاحين مع أغنية تتردد باستمرار هي (الهش كده . كل ولاد العر كده
أم ولاد الفلاحين سود ومش قد كده !) لاحظ أننا لا نتكلم عن
مسرحية لـ (نعمان عاشور) بل قصة أطفال مصورة ي للرسام
العبقري الخبيث ! كل هذا قبل الانفتاح بثمانية أعوام !

لكن السبب الذي جعل هذه الأعمال تمر تحت أنف الرقابة هو نفس
السبب الذي جعلها تتبختر كأنها لم تكن إنها قصص أطفال فقط
أردت أن أقول لعم حجازي نحن تلقينا الرسالة وفهمنا ولو كنا قد
صرنا مخترمين وهي فرضية قابلة للمناقشة فلك فضل عظيم في هذا

كانت مجلة سمير تحمل طابعا عاما من كراهية إسرائيل والولايات
المتحدة ، و لتفرقة العنصرية ، ومساندة حركات التحرر وفيتنام
والفلسطينيين . وهي نغمة قد تبدو يسارية بعض الشيء اليوم لكنها كانت
النغمة السائدة في مصر وقتها وقد قدمتها المجلة بلا إسفاف فليس
غريبا أن يكون عصر السادات هو بداية انهيار مجلة سمير لم يعد هذا
عصر الكلام عن (جيفارا) و (مارتن لوثر كنج) بل هو عصر شراء
(السولتيانات) من بور سعيد ..

هؤلاء الناس كانوا مؤمنين بأن الطفل يمكن أن يستوعب أي شيء وأية
معلومة ، ما دامت تقدم له مبسطة . والتجربة العربية المماثلة التي تحضرني
الآن هي مجلة (أسامة) السورية ..

كانت مجلة سمير من إبداعات دار الهلال في ذلك العصر الذهبي ،
وهو العصر الذي شهد تجارب هائلة قدمتها (نبيلة راشد) مثلا رواية
(الحصان الأسود) صدرت للأطفال في اليوم التي اسمه مذكرات

حصان) يحوي كل لوحة أو نقش جداري أو تمثال للحصان عبر التاريخ
(بنت الشمس والقمر) أساطير أفريقية يحكيها مين ؟ فؤاد حداد
شخصيًا ! هناك مجموعة قصص أطفال عالمية يرسم كل قصة فنان من
وزن (حلمي التوني) و (مصطفى حسين) و (محمد حاكم) و (إيهاب
شاكر) هكذا يدخلون في استعراض عضلات لا يمكن نسيانه
(البوابة المسحورة) قصة ورسم (يوري تربكا) أعظم أديب ورسام
أطفال من الذي يشرف على ترجمة الكتاب وإخراجه ؟ اللباد !

ما زالت مجلة سمير تصدر عن دار الهلال لا أريد أن أكون سمجا
لكني أشعر بأنها فقدت كل روح ، وأنها تصدر لأنه يجب أن تصدر
كل العاملين فيها (مالهمش مزاج) وعلى كل حال لم يبق شيء كما
كان في الماضي . فلماذا تختلف مجلة سمير عن أي شيء آخر في مصرنا
الحبيبة ؟

عن النعناع وقناوى والفوضى

بائع النعناع المحور يدفع سيارته فى احد الشوارع قرب مديرية الأمن ، فتستوقفه سيارة بيجو يقفز منها بعض الرجال ويلقى ركابها بعربة السائق لتتحطم ربطات عديدة مكسورة من النعناع الأخضر طيب الرائحة ، ويشتمون البائع [illegible] كيف يفعلون فيه ما أحدثوه . ثم بلا كلمة أخرى تنطلق السيارة حتى تعلو منها الضحكات . ليقف البائع وحده وقد احتفى نصف بضاعته [illegible] قرب دموع القهر والغيظ فى عينيه ، وهو يردد لنفسه :

— « عاملين لى فيها بهوات .. ده قوت عيالى يا كفرة .. »

تأمل معى الموقف . لا أعتقد أن وزارة الداخلية تأمر ضباطها بسرقة النعناع ، ولكنه لعب [illegible] على هذه العربة لمن يريد تسلية على حساب [illegible] لن يرهق هؤلاء ، لكن حساب الجهات هذه تمثل [illegible] بالفعل . هكذا ببساطة شديدة صار هذا البائع من أعداء الداخلية ، وبسبب تصرف غير مسئول من بعض [illegible] ، ورغبة فى فرض القهر والسيطرة على رجل لا خطر منه .

بالفعل هناك تجاوزات كثيرة من رجال الشرطة بعضها بسيط مثل عدم دفع ثمن النعناع وبعضها يصل لدرجة [illegible] من بعض [illegible] . وقد كنت أجلس فى ميكروباص [illegible] قسم شرطة شهير جداً فى القاهرة فسمعت السائق يقول لأمين الشرطة المحتج على وقوفه هنا : « الميكروباص ده بتاع فلان بيه [illegible]

الأمين أية دهشة فقط تساءل : « مش ده بتاع فلان بيه ؟ » فاتضح من كلامهما أن كل واحد من البهوات يشمل برعايته مجموعة خاصة به من الميكروباصات معروفة ولا يسمح لأحد بأن يتصدى لها ، والمقابل معروف طبعاً . هذا كلام يعرفه الجميع لكنك لا تستطيع إثباته ، وأية محاولة لذلك سوف تنتهى بك فى السجن .

كان كل هذا فى ذهنى عندما ذهبت لرؤية (هى فوضى) فيلم يوسف شاهين وخالد يوسف . وكما قال الأستاذ (رمزى عبد الرازق) فى (كادر ثابت) عن حق : « هو شىء مرحلى مخيف لا قبل لأحد بالوقوف أمام مدخلاته » . وكنت أعرف أن الفيلم سينجح وسيمدحه الجميع مهما كان مستواه ؛ لأنه صار من المكفر ألا يعجب أحد بفيلم ليوسف شاهين ، وحتى الكومبارس الذى يقدم للبطلة كوب ماء فى أحد الأفلام يعتبر نفسه [illegible] من أساتذة السينما ، ويتكلم فى وقار وغموض : « فضلت أن أرى أسس العمل لتحكموا بدلاً من أن تكلمكم عنه » . وعدد من النقاد [illegible] فى كلام [illegible] يحكى عن تجربة التطهير أو الميلاد الجديد التى احترقها بالعمل مع شاهين

منذ اللحظات الأولى عرفت أن الفيلم حقق نجاحين : النجاح الأول هو [illegible] كثير من [illegible] الحمراء بصدد هذه التجاوزات ، والنجاح الثانى هو إعطاء دور بطولة شبه مطلقة لخالد صالح أفضل ممثل عرفته مصر منذ عشر سنوات بلا مبالغة

[illegible] يوسف شاهين . هذا هو فيلم خالد يوسف بالكامل [illegible] يوسف شاهين إلا فى مشاهد محدودة مثل المولد ، [illegible]

وكيل النيابة وأمه ، واسم بهية ، وطبعا الخلط الاجتماعي الطبعي العجيب ، والهتافات السياسية المفتعلة مثل (عمر السجن ما غير فكرة) التي تذكرك بهتاف شاهيني آخر (مصر حتفضل غالية عليّ) الذي يتصور شاهين أنه قادر على قهر بونابرت وكل حرسه الأرمني الشرس (برطملين) ..

السيناريست (ناصر عبد الرحمن) وضع على مكتبه لافتة تقول (الداخلية تعصب المصريين) ، وقرر أن يبني عليها سيناريو كاملا مدته ساعتان حمل فيها هذه المقولة حرفية يسهل أن تتصور أن خالد صالح يمثل الداخلية ، بينما شمي هي مصر التي لا يحميها إلا القانون

هكذا تم بناء الكبير لابد من حبكات فرعية كثيرة ، ومنها مثلا وكيل النيابة الذي يحب فتاة تدمن مخدرات وترسم الوشم على ظهرها ، وهي ابنة عضو في حزب سياسي ، وهي حامل من وكيل النيابة كذلك ، وإن كانت أمه هالة صدقي ، لا تندهش من ذلك لحظة بل هي فقط قلقة على صحة الطفل لدى سبونه لأم مدمنة جاءت الاستراحة فهضت لأدخن سيجارة . تأخرت ربع دقيقة وعدت فوجدت أن وكيل النيابة صار متيما بحب شمي فجأة . وكانت الفتاة ليست بالضبط نوعية الفتاة التي يمكن أن تروق لوكيل نيابة .

هناك مشاهد عجيبة طويلة جدًا ولا لزوم لها مثل مشهد زيارة الحريم مجاورة هنا حيط واضح من قصة (الهمس المسحوق) الرائعة ليوسف إدريس . لكن بصراحة لو كان عنبر الحريم أقرب الحريم يبدو لبيئة بهذا الشكل فمن واجب جميع أن نسحب في الواقع كان الأجمل أن يكون

هذا عالما خياليًا لا وجود له يتناقض مع واقع العنابر والمدمنات الفعلي القذر القبيح أي أن يكون وليد أحلام المساجين المحرومة كما فعل إدريس العبقري في قصته آنفة الذكر .

الفيلم جريء حسيًا ، لكن كما قلت في مقال سابق هناك ميزانين في الرقابة ميزان للعامة وميزان لشاهين هكذا تصفح الرقابة في تسامح سطوري عن مشهد لو قدمه سوى شاهين لعلقوه مشنوقا نظرة هيبة العبقرية وضعت على عين الرقيب فلم يعد يرى ...

في أفلام شاهين يتكرر ذلك الخلط الساذج بين المتصوفين والموالدية والأصوليين . فهو - كالحواة تمامًا - يضع كل هؤلاء في سلة واحدة تمسك بالدف وتتطوح ذات اليمين واليسار . برغم أنه لا يمكن الجمع بين المتصوفين والأصوليين أبدا ثم المشهد الكوميدي في مكتب مرشح الإخوان في مجلس الشعب الإخوان لا يتكلمون هكذا سواء اختلفت أو اتفقت معهم ، لكنك تسمع كلاما غريبا مثل « طبعا إحنا الحل المهم تدونا أصواتكوا وتسمعوا كلامنا » لو كانوا يتكلمون بهذه السذاجة لما صار لشارع الحوت تصوره للشاب السلفي في السجن هو شخص ممسح بجلباب يقف طيلة الوقت ووجهه للحائط يقرأ المصحف ويهتز ، كأنه يهودي عند حائط المبكى هل السلفيون لا يجلسون على الأرض أو ينامون أو يهمدون قليلاً ؟

مظاهرة العاطفية في نهاية الفيلم والتي صممت بعناية لإثارة حماسة المشاهدين وقشعريرتهم ، والتي تبدو فيها الدحمة عبثية جدًا ومثيرة للشفقة ، لدرجة أن هناك آخر يدفع أربعة جنود فيسقطون هذا الفتح بنفسه كان في الواقع سوف يؤدي لفتح النار عليه على الفور

الشابة الذي صار يجري في ممرات السجن ويطلق الرصاص في الهواء وعلى الأقفال ويهدد ضباط القسم .

الفيلم يتلخص في عبارة واحدة (خالد صالح) ومعه الكثير من خالد صالح مع لمسة من خالد صالح . وبعض خالد صالح ، ثم خالد صالح على الوش . هذا الممثل العبقري هو الذي رد للمشاهدين ثمن تذاكرهم وزيادة ، وكنت تشعر بأن أي وقت لا يظهر فيه على الشاشة هو وقت ضائع . السيناريست رسم شخصيته وفي ذهنه خيوط كثيرة جدًا من قناوي باب الحديد : العشق المهم في الحب بحرارة حرقة و [illegible] والشهواني . وكما كان قناوي يرسم دلو (الأرورة) بدلًا من [illegible] الصور العارية لتذكره بهند رستم ، فإن أمين الشرطة في هذا العصر يطبع بالكمبيوتر صورة منة شلبي بالبكيني . ومثل قناوي يغتصب حبيبته كخطوة أخيرة قبل نهايته ، لكنه لا يلبس قميص الأكمام [illegible] يقتل نفسه . هذه الشخصية مرسومة ببراعة . ويمكنك بسهولة أن تدرك أن يوسف شاهين يتعاطف معها ويحبها . لكن هناك الكثير من المبالغة الفجة فيها مثل أن يجلس ليلتهم عشرين رغيف حواوشي ببلاش وفي الوقت ذاته تنهال أمامه الرشاوى .. الأمور لا تحدث هكذا ..

لا ننكر أن الفيلم ممتع ، و [illegible] خطي [illegible] للمرة الأولى [illegible] يوسف شاهين بارتياح ، لكن هذه الهنات تقف في حلقك فلا تستطيع ابتلاعها . دهشت من تحميل كل خطايا الكون على عاتق أمين شرطة واحد . وأعتقد أن السبب طبعًا هو أن الرقابة حذفت مقطعه فابتلاعه بعد هذا مستحيل .

Making of ...

حماتي مشاهدة مدمنة للأفلام ، فهي لا تحاول أبدًا أن تسأل عن كيفية تصوير هذا وذاك [illegible] الأفلام بالنسبة لها لقطات تسجيلية صورت بكاميرا خفية لمجموعة من البشر يمارسون حياتهم ، وعندما يتصرف بطل الفيلم بحماقة فإنها تلومه ولا تلوم كاتب السيناريو [illegible] طبعًا هي تعرف أن هناك كاميرا ومخرجًا ومصورًا وموسيقى وموسيقى تصويرية . لكنها تفضل أن تندمج في الفيلم ولا تفسده بتخيل طريقة صنعه .

عندما بدأ التلفزيون المصري يعرض برنامجًا يوميًا عن تصوير making of فيلم ([illegible] في أمستردام) ، كنت أتابع الحلقات . وفي رأيي الخاص أن [illegible] مكون من ثلاثين [illegible] للتلفزيون المصري . إذ يظهر في بداية الحلقة مثلًا محمد هنيدي ليكلمنا عن يوم تصوير الصعب ، أو عن الشطة التي وضعوها في الكشري فكاد الممثل الفلاني يختنق ، أو عن [illegible] في شعر لاعبة [illegible] العربي . كأنه يتكلم عن تصوير (الأب الروحي) . ثم تشاهد لقطات التصوير فلا تجد شيئًا من هذا كله . لقد [illegible] ربع ثانية مع اللاعبة [illegible] (شيء جميلًا) ، وسعل صديقه مع [illegible] فوجدوا في هذا ما يغري بتقديم حلقة مدتها ربع ساعة . [illegible] هذا البرنامج كان لدي اعتقاد [illegible] أن هؤلاء [illegible] لكني لم [illegible] سوى مجموعة من الشباب يهرجون ويمزحون ! »

هذه هي المشكلة مع انتشار تلك الأفلام التسجيلية التي تظهر ما يدور في كواليس السينما المصرية [illegible] لا تشعر [illegible] مجموعة

من الشاب عصى وقتا طيبا ويحصل على أجور ممتازة . ولا شك في أنه تثير إحباط أي شاب مصري مثل (مصطفى) المحروم من كل شيء ، الذي يجلس أمام الشاشة وهو لا يجد وظيفة ولا يحوي جيبه سوى خمسة عشر جنيها سوف ينفقها على مشاهدة الفيلم الذي يرى لقطات منه الآن ذنبه الوحيد هو أن مخرجًا لم يكتشفه بعد .

لا أعرف متى بدأ هذا الفن بقدم على (تصوير التصوير) السينمائي في تصوير فيلم تسجيلي يرصد ما يحدث في كواليس الأفلام الروائية السينمائية . رغم أقدم مثال في ذهني هو (سيسيل ب دي ميل) وهو يرتب الخدعة السينمائية الشهيرة لانشقاق البحر الأحمر كي يخرج اليهود فارين من فرعون في فيلم (الوصايا العشر 1956) لم يكن هناك كمبيوتر في ذلك الوقت . وقد اعتمد الرجل على حيلة شديدة البراعة عمل على حركات عملاقة تسرعه ويفصل لتغرق المياه المحجوزة بينهما ، ثم يتم عرض اللقطة بالعكس فتبدو المياه كأنها تنشق وتتراجع هذا شيء جدير بتسجيله بالتأكيد ..

بعد هذا صار مصطلح Making of شهير جدًا وعلى لسان الجميع في البداية كان يعرض بشكل محدود ولم يكن له قنوات سوى الأفلام للعربوية التسجيلية بعد ظهور الـ (دي في دي) وضرورة احتواء كل قرص على أشياء إضافية extras غير القصة ذاتها ، صار بطريقة صنع الفيلم موقع متميز وثابت . وصار من المهم أن يوجد مصور مهمته متابعة كواليس التصوير باستمرار أحيانا لا يبقى من الفيلم سوى ما تم تصويره لعملية صنعه ، ومن هذه الأفلام مشروع (تيري جيليام) المنحوس الرجل الذي قتل دون كيشوت 2000) هذا نموذج لفيلم تخيف ك

الحظوظ ضده حتى إنهم عدلوا عن تصويره تماما فلم يبق منه سوى فيلم تسجيلي قصير

إن التصوير في الكواليس له دور دعائي مهم . وفي الوقت نفسه يرضي فضول المشاهدين الراغبين في معرفة (كيف تم هذا ؟ كيف صنعوا هذا السحر ؟) بالنسبة للناس هذا عالم أسطوري غامض ومن يعملون فيه كائنات نورانية خيالية ، لذا يرحبون بأية لمحة تظهر لهم هذا العالم بل إن هناك أفلاما تصور كيف تم تصوير الـ making of ! أي إنها تصور عملية تصوير التصوير..

لم ينتشر الدي في دي (القرصنة) في مصر ، لكن الفضائيات تعددت تقدم لقطات صنع الأفلام هذه ، وهناك قناة فضائية شهيرة لديها حلقة واحدة تكررها يوميًا تعتبرها مجموعة من العاجزين عن الوعي الذين لا يلاحظون أي شيء هذه اللقطات عتقد أنها سيء للأفلام والممثلين أكثر مما تفيدهم . عندما ترى فيلما ضخما مثل (سيد الخواتم) أو (هاري بوتر) أو (ماتريكس) فإن أفلام making of تعد متعة حقيقية لأنها تكشف لك عن أجوبة الكثير من الأسئلة . وتطلعك على الآفاق التي يمكن أن يرتادها العقل البشري حيث يمرح مع الرقي بالتقنيات الحديثة . عندما يقدمون فيلم (همام في أمستردام) يوميًا على مدى ثلاثين حلقة رمضانية ، فماذا يجعله صنع (سيد الخواتم) إذن ؟

في الأفلام المصرية لا ترى سوى الأبطال يمرحون . وهناك من يخطئ عمدا في مقطع حوار على سبيل الظرف . والمخرجة التي تبدو أنها الصفعة تصفع بينما الكف لم تلمس وجهها ، وهكذا . سرعان ما تتضح لك أن أغلب الممثلين يتعاملون باستخفاف حقيقي مع مهنتهم . ليس هناك من

هو على استعداد لدراسة الشخصية ودوافعها وعلى الارجح لم يسمع حرف عن ستوديو الممثل ليس بينهم روبرت دى نيرو الذى يحضر تصوير لقطات الفيلم كلها حتى تلك التى لا يمثل فيها ليعيش الاحداث . واقع هى قوالب جاهزة تقال للصحفيين؛ مثل ذلك الممثل الوسيم شريف الذى يقول للصحافة انه عمل مع بعض القهوجية كى يعرف كيف يتصرف القهوجى والان تخيل معى الموقف بعينيه الممثل الوسيم يوقف سيارته الفاخرة امام مقهى شعبى . وينزل بنظارته السوداء وسط عدد ... المتجمهرين ... احد القهوجية ويقول له ... دوق كنت عاوز شغل معاك عشان اعرف ازاى ... فى تقديم ...
فيصيح القهوجي : تحت أمرك يا باشا !

طبعا كلام فارغ مخصص للاستهلاك الصحفي ثم ترى دوره فى الفيلم فتجد كل ده قهوجي ... يضع طاقية ... على راسه وسيجارة خلف اذنه ويهمف فى ... اسود ... وهو ... لا يمكن القهوجى ... القهوجية لدى ... فى الفلام ... وهناك ذلك الممثل المصرى الذى كان يؤدى دور مريض صرع فلا نصحت كلام عن انه كان يحوم ... مرضى الصرع ... من مستشفى ... كيف يتصرفون ... فى الفيلم ... ومن عرف ... فى حياتى مريض صرع يجرى ... وهو يصرع ... على شكل ... مريض صرع فقد

... فى ... لكن مشكلة الـ making of ... هذه حقيقة بوضوح ... يقومون به ليس ...

ولا هذا التعقيد كما يزعمون لا اعمم كلامي طبعًا والا لكنت أتهم ممثلا مثل (خالد صالح) وممثلة مثل عبلة كامل) و مخرج فى حجم (داود عبد السيد) و (محمد خان) بالسطحية لكن مقياسي الاخير هو الفيلم نفسه ... الذى ... فى النهاية هل يستحق كل هذا الصخب ؟ بالاسف الاجابة (لا) فى ... بالمائة من الحالات . وان كان هذا لن يؤثر لان (مصطفى) سوف يذهب للسينما وينفق آخر خمسة عشر جنيها فى جيبه ، مهما قلت أنا !



هـــو ده !

لم آخذ الأمر بجدية إلا عندما فوجئت بمجموعة من زهرات المدارس الإعدادية يمشين في شارع وراء كهل وقور . فتمد واحدة منهن يدها كأنها تقرصه مع ذلك الصوت الشبيه بصوت البورص . فلما انتفض الرجل مذعورًا صاحت في مرح :

- « هو ده ! »

قلت لنفسي على طريقة جودي تشكوف العجوز « شيء شيء .. شباب يمرح .. بارك الله فيهم » وتعجبت .. إلى أن فوجئت بأن أولاد الأسرة كلهم يكررون هذا الفعل الذي لم أسمع عنه إلا في الكباريهات نفس القرصة وصوت البورص من الشفتين ثم (هو ده !)

سألت عن مصدر هذه الحركة فقال لي مراهقو الأسرة في ضجر لأسى عجوز ثقيل الظل متحجر :

- « فيلم عمر وسلمى .. »

وأكد لي أحدهم أنه فيلم رائع ، وأنه على استعداد أن يراه أن أحضر معي علبة مناديل كاملة لأجفف دمعي ، بينما قال لي أن الشباب يخرجون من السينما ينعموا في طابور قطع التذاكر للحفل الجديد .. عن ذلك تتحدث عن (سفر الرؤيا الآن) ، أو (كوفادس) و (الأب الروحي) أو على الأقل (الأرض) .

طبعًا مرت على الفيلم فترة طويلة جدًا فلم تعد شبيهة لدعاية له بهذا المقال ، دعك من أنني لم أره إلا مؤخرًا على تلك القناة الفضائية

التي تذيع الفيلم 5879680 مرة .. هكذا رأيت الفيلم وأصبت بحيرة بالغة في شبابي كان الكبار يسخرون من اهتمامي الزائد بأفلام من طراز (بوباتين) و (حتى مساء السبت) ، لكن لا أذكر أن أيًا من تلك الأفلام كان يحوي مشهدًا مثل (هو ده !) ..

لا أنكر أنني مولع جدًا بصوت (تامر حسني) وأعتقد أنه ذو كاريزما واضحة .. السيناريو (محمد عبد الفتاح) لا بأس به والإخراج (أكرم فريد) متماسك .. لكن ما الشيء الخارق في هذا الفيلم (لدرجة البكاء) ؟

أولًا الفيلم يخاطب الشباب فعلًا .. يناقش أولوياته واهتماماته . هذا صحيح . لكن أية عينة من الشباب ؟ .. عمر المنفصل عن حبيبته التي ترغب في أن تكون ممثلة ، ثم يقابل الفتاة الرقيقة سلمى التي انفصلت عن خطيبها بسبب خلافه مع مهنتها .. تنشأ قصة حب مليئة بالتشبث والهجر والجفاء والشجار والصلح .. وهو يشك فيها عندما يجد رقم هاتف خطيبها السابق على الموبايل . فيتركها ثم تعود له وتشك هي فيه .. هناك سيارات ومشاجرات (على ستات) وبعض موبايلات .. إلخ .. هذه مشاكل شبابية معتادة فعلًا ونسمع عنها كل يوم ، لكنها ليست بالضبط مشاكل الشباب الحقيقية .. إنها مشاكل الشباب الذي يعاني فراغًا قاتلًا ، والذي يجده في الكافتيريا وقت المحاضرات يخلق مشاكل ويخلق حلولًا طبقًا للوقت .. وهو ذات الشاب الذي سيدخل المول برؤية فلم يشبه حياته اسمه (عمر وسلمى)

السينما المصرية الشابة الحديثة و سينما المولات ، مصرة على أن النمط الطبيعي للشاب هو شارب الخمر مدمن الحشيش ، وهي مصرة كذلك على أن مدمن الحشيش شخص ظريف جدًا يبعث الضحك من

حوله ولا يمكن الاستغناء عنه. هناك دنت الفنى الحلل كبير الأذنين عظيم الموهبة لا أعرف اسمه للأسف الذى يصرون على أن يحبسوه فى نمط واحد هو نمط المدمن الذى ذهبت المخدرات بعقله. وهو يظهر هنا فى مشهد ظريف فى حد ذاته حيث جلس يشرب البيرة متربعا على كبود سيارة ولم يلحظ أنها تحركت ولا أنها غادرت.. لكن قبل أن نضحك تذكر أن هذا المشهد يدور على أبواب جامعة..

إذن الشاب المصرى المعاصر لابد أن يشرب الخمر والحشيش سقبل هذه المعلومة، لكن هل يجب أن يقضي وقته فى علاقات آثمة كذلك؟ السينما المصرية الشبابية تحاول تنميط هذا. وهناك مشهد مشين فعلا تتوج فيه الصديقة هالة صدقي أمام الكاميرا بقطعة حميمة جدا من ثياب فتاة، بينما تامر حسني يتظاهر بأنه لا يعرف أي شيء عن الموضوع

هل اكتفيت من المشاهد المشينة؟ لا وحياتك.. هذا فيلم عبقرى نجح فى أن يصور عزت أبو عوف الوقور الراقي وهو جالس على التواليت والجريدة فى يده. هناك مشهد لا لزوم له عن فيه حسني مراهق أمام تامر حسني الجالس فى كافتيريا فيدور الحوار العميق التالي

- « مش ده اللي بيبان ياله .. »

فيرد المراهق بكل قلة أدب :

- « خليك أنت فى شعر صدرك .. »

فيشد تامر حسني سراويله للأسف ويهتف فى انتصار

- « حبيب قلبي ! »

تعبت كثيرا جدًا كي أقنع أولادى أن هذا الحوار ليس من كلاسيكيات شكسبير، وأنه من الممكن ألا يردده امرء ليلاً نهارًا ومع هذا تستمر الحياة ..

أما عن موضوع القرصنة و« هو ده » فيتكرر فى الفيلم ألف مرة تقريبا حتى تصاب بالاختناق. وعزت أبو عوف يلعب دور الأب المتفهم. لذا هو يتستر على فضائح ابنه ويتستر ابنه عليه. لكن كليهما يقرص ويقول « هو ده » فى النهاية ..

السبكي شخصٌ يظهر فى مشهد كامل باعتباره منتج الفيلم. فو عد الظهور الشرفي Cameo تقتضي أن تختار دورًا قصيرا طريفًا لا يُمحى من الذاكرة. وأفضل من اختار هذه الأدوار بذكاء شديد هو يوسف شاهين من الممكن أن نكتفي بالظهور كما فعل هتشكوك مرارا لدرجة أنه كاد يلعب دور حنة عارفة طاقية على المدء فى فيلم (قارئ الحالة). لكن السبكي اختار دورا أقرب للقسوة والسماجة ولا يضيف له شيئا

ينتهي الفيلم فعلا لكن منتج لا ينسى أنه بحاجة للمزيد من التمويل، لذا يضيف مشهدا لا داعي له فى أحد مطاعم البيك وى الشهيرة يغني فيه تامر حسني وكل العاملين فى المطعم (يا برنسيسة.. يا برنسيسة) حرب أن تدخل مع خطيبتك هذا المطعم الشهير وعن لها أغنية عاطفية أمام (الكشير) ولسوف تكتب سنخرج من هنا حتى المشهد كله مفضوح وواضح تماما أنه مجرد وسيلة تمويل.. لكن لا أحد يهتم

الآن وقد رأيت الفيلم. يجب أن أقف مع حسني وقفة حسابية لأعرف ما حل بي.. هناك ثلاثة احتمالات

1 ـ الفيلم تافه وقد جن الجميع بينما احتفظت أنا بعقلي

2 ـ الفيلم قطعة من الفن الرفيع من عينة (ساتيريكون) و(الختم السابع) ، لكني صرت عجوزًا متحجر الذوق لا يفهم هذه الأمور

3 ـ الفيلم رديء وتافه لكن الناس تحب تامر حسني فعلاً ، ولهذا أحب الفيلم كما أحب الجمهور من قبل أفلام البيتلز بدعاباتهم البريطانية ثقيلة الظل ، وأفلام عبد الوهاب البدائية ، وأفلام ألفيس بريسلي شديدة التفاهة .

أعتقد أنني من الاحتمال الثالث ، فهل يساعدني أحد برأي موضوعي ؟

الخواجة بيقول

بقلم د . أحمد خالد توفيق

في مقال ساخر للناقد السينمائي الراحل (سامي السلاموني) نتخيل مشهدًا سينمائيًا تجلس فيه البطلة في الكافيتريا وتفتح حقيبتها لتخرج عود قش تدسه بين شفتيها . لا تعرف معنى هذه الحركة ولا جدواها ، لكنها رأت هذا المشهد في فيلم إيطالي يدور في إسطبل خيول ، وراق لها جدًا !

هذا هو موضوع مقالي باختصار شديد . نحن لا نعمل شيئًا من دماغنا أبدًا ، وإنما نفعل ما يفعله الخواجة طيلة الوقت

لم أكن قد رأيت فيلم (الرقصة الخاطفة Flash dance) ـ أبدى كل ظاهرة في الثمانينات ـ إلا مؤخرًا ، لهذا انبهرت جدًا بكيف مطربة شابة ترتدي ثياب الإيروبكس وتلف الشريط اللاصق حول قدميها ، ثم ترقص أمام لجنة تحكيم صارمة غير مبالية ، حتى تنجح في النهاية في انتزاع التصفيق منهم . عندما رأيت الفيلم أدركت أن المشهد مأخوذ بالمسطرة منه ، حتى أن اللجنة جعلت شكلها كشكل (جينيفر بيلز) بطلة الفيلم الأمريكي . وإن كان النقل قد تم ببراعة لا شك فيها . عامة غيل الكبت الفنية أكثر من سواها لي شطار ما يصنعه الخواجة ، تعلق (كاري آن موس) في الهواء وتثبت حركتها بينما تدور الكاميرا بسرعة من حولها في فيلم (ماتريكس) ، عندئذ يحلق هشام عباس في الهواء في أغنيته (تاري نارين) ، ولفترة طويلة بدا أن كل المطربين العرب حلقوا في الهواء إن هذا شيء مقدس وعدم تقديمه يعرضك لاتهام بالتخلف لا سمح الله

عندما تراقب الكليبات العربية تجد خليطا فريدا من ثلة ... في فترة تحريم الخمور ببدلاتهم وقبعاتهم وأحذيتهم البيضاء . والكلاشنكوف في صندوق الكمان . وهناك ... وهناك سيارات محوطة بالسيدات هناك كلاب مستبف والإرهابيون وحراسات خاصة . هناك الغوريلات السوداء التي تلبس الفانلات الداخلية وقد رسمت الوشم على كل جزء من جسدها مقلدة مطربي الراب الأمريكيين . قارن هذا بتجارب حسن كمال في تصوير لاعبيه مع تخته الصغيرة وسوف تفهم معنى الأصالة والخصوصية ..

هناك فرقة شبابية - ... وسط البلد ، قطعا - لم أجد لدى أفرادها موهبة غنائية واضحة ... لكن لديهم موهبة مهمة هي أنهم درسوا جيدا ... للمطربين الغربيين و ... الاحترافية أنهم يعرفون جيدا كيف ينظرون للكاميرا . ثم بدأ مخرج درس جيدا الإضاءة والمونتاج في الكليبات الغربية وعرف كيف يقلدها بدقة

كنت أراقب عمرو دياب ... لدورات الرياضة عندما ... (بالحب الخمس) ... رأيته يجري وهو يحمل الميكروفون والكاميرا تلاحقه . ثم فوجئت بأن هناك مصورا يركض وراءه لاهثا وقد صوب الكاميرا عليه من زاوية منخفضة ... عمرو دياب يقلد بالضبط (ليونيل ريتشي) في ختام أولمبياد (لوس أنجيليس ، عندما غنى أغنية (الليل بطوله) ، وجال الاستاد ... هذا من حقه ، لكن لماذا يجب أن يقلد المصور المصري حركات المصور الأمريكي بحذافيرها ؟ الخواجة كان يجري وراء المطرب فلا بد أن نفعل مثله

حتى تقنعه الفتيات في الماربنات الدولية التي تشهدها مصر ... قيمة العم سام ... التي لا يعطيها سوى عم أمريكا . قد رسم عليها علم مصر ولبستها الحسناوات اللاتي لا يختلفن في شيء عن الجمهور الأمريكي . لا أحد يريد (شيحة) ولا (سيد العصفور) كريه الرائحة الذي يرقص بالجلباب الأحمر ويهز كرشه العملاق . هذا ليس زمنه لكنه زمن تقليد الخواجة ...

هذا ... إلى الأفلام تجد نفس اللقطة في ... فيلم مصري . البطل يعبر فقرة خاصة واسعة ليطلق الرصاص ... وهو مستمر في السقوط بالسرعة البطيئة . كما رأيت ... مرة قريبا من ... الأشداء يتقدمون صفا بالعرض نحو الكاميرا بذات السرعة البطيئة بينما انفجار مروع - بطيء هو الآخر - يدوي خلفهم . ولا واحد منهم يلتفت للخلف لأنهم أشداء كما تعلم . هذه الأشياء فعلتها السينما الأمريكية وقد رأيت مثلها . لكنها تستطيع فعلها أولا وفعلها أفضل بحكم الإمكانيات .

... قوي جدا في ... . وهي ظاهرة قديمة على كل حال إن ... ليست سوى تقليد محلي لمارلين مونرو . وكمال الشناوي ليس سوى كلارك جيبل مصري . وإسماعيل يس ليس سوى جيري لويس لا يكلف كثيرا ... الظاهرة حتى ترى هاني رمزي يصنع ذات ماكياج وطريقة تمثيل جيم كاري في (عبى منه فيه) ويقلد (رون اتكنسون) حرفيا في (أسد وأربع قطط) . عندما يقدم الغربيون (الصرخة) و (أعرف ما فعلت الصيف الماضي) يظهر كثير من ... مراهقين في مكان معزول بينما سفاح مجنون يذبحهم . ...

تفتح التلفزيون في رمضان فتكتشف أن هناك عشرين ساعة يوميًا من تقليعة (السيت كوم) ، وهي اختراع غربي بالكامل . لكنه صار مقدسًا سوف تلمح أكثر من مسلسل قريب من (الأصدقاء) وسواه . مع حرص الممثلين على أن يكونوا مضحكين مما يجعلهم يبالغون في مقاطع الكلام ويحركون كل عضلة في وجوههم ويغمزون ويقطبون . ثم يتدخل شريط الضحكات (المعادل السمعي للزغرودة) ليعلمك أين ينبغي أن تضحك بالضبط . كل هذا غريب عنا لكن الخواجة يفعل ذلك

التقليعة الأخرى هي (الستاند أب كوميديان) وهو الكوميدي الذي يقف أمام الجمهور على المسرح ليقول أشياء مضحكة . لا . ليس المونولوجيست هو ما أعنيه . هذا بدوره فن عربي قديم يعتمد على تراث من ملاهي برودواي وعروض تلفزيونية تابعها الغربيون جيدًا مثل (جيف ليلة السبت) ، مع جيش ممن يكتبون النكات لهذه العروض ومنهم ميل بروكس وفريقه اليهودي ، ومنهم وودي آلن ، ومنهم د . د . كرويد . عرف العالم العربي هذا الفن مؤخرًا مع (محور الشر) الفريق الأمريكي ذي الأصول الشرقية الذي قدم عدة عروض في عدة دول عربية . عندما يقدم عندنا هذا الفن دون أن يكون لدى المشاهد خلفية ، يبدو أسخم مخرج مرتبك لا يعرف من أين يبدأ وماذا يقول (حتى أحمد بدير عرق في العرق وهو يقدم فقرته) .

وماذا عن قنوات الطهي العديدة ؟ وماذا عن الدعاة الشباب المتأنقين (ومن جديد لا أقصد عمرو خالد) الذين يستنسخون صورة الداعية البروتستانتي لنجم التلفزيوني في أمريكا ؟ داعية أسدي عملك قصر ، وطائرة ويخت ومحطة تلفزيونية ؟ حتى النشرات الإخبارية عندنا تقلد قناة

الجزيرة بلا أصالة . بينما الجزيرة نفسها تستنسخ لأسلوب بي بي سي ولكن ببراعة وإتقان..

هناك حادثة يحكيها لي هواة كرة القدم لكني لم أرها ولا أستبعد أن تكون تشنيعة ، عن النجم الكروي المسلم الذي أحرز هدفًا منذ عدة أعوام . فرسم علامة الصليب على صدره ! هو لا يعرف معناها إنما رأى مارادونا يفعل هذا في الملعب فقلده تقليدًا أعمى ! من حق كل إنسان أن يطلب البركة من رموز دينه ، لكن عليه أن يعرف ولا معنى ما يفعله

نعم . مشكلتنا هي أن الخواجة يفعل ذلك . قد يكون هذا ضروريًا بالنسبة لتقنية جديدة أو مفهوم علمي جديد ، لكن من الخطأ أن نطبق هذا على الفن كذلك . أن نعيد صياغة فنونهم بالعربية . حتى لأبتعد بنظري وأتساءل : من نحن حقًا ؟.. فلا أعرف .

لقد لخص (سامي السلاموني) العبقري كل شيء . إن ما نقوم به اليوم ليس سوى مضغ عود من القش في الكافتيريا لأننا رأينا الخواجة يفعل ذلك !

عن محرقة المثقفين والمدرعة بوتمكين

يرحم الله أسامة عبيد .. عندما تذكره تتداعى لذهني قفلة كاملة من الذكريات التي تمت لثمانينات القرن الماضي .. بيته في شارع الألفي ونادي التمثيل في كلية الطب . ومسرح مدينة طنطا المتداعي الذي يصلح لتصوير أفلام الرعب . ومكتب أمن الدولة بالكمات لدى يدلونه باسم رعاية الشباب .. وقصر الثقافة ودخان التبغ الذي تجمد في الهواء . وصرخاته العصبية في مجموعة المثقفين الهواة الذين يعتقدون أن أسداة على الطماطم والمشي بسمان لفن ذاته . أسامة عبيد طالب الطب الذي ظل في السنة الخامسة حتى شاب شعره وتجاوز الأربعين ، وصار زملاؤه أساتذة يدرسون له في ذات الكلية .. كان يشتعل بجنون المسرح لدى سرق حياته . لكن النقطة الأهم هي أنه كان ماركسياً صريحاً بلا مواربة في ذلك العصر - أوائل الثمانينات - كان طالب الجامعة الماركسي يواجه خطرين .. خطر أمن الدولة وخطر الجماعات الدينية .. ولم يكن الصدام قد تم بعد بين هذين الكيانين .. إنها سياسة الحكومة الدائمة .. عندما تزداد السكر في الطعام يجب أن تزيد الملح .. أي أن يضاعف خطر الملح فنضطر لزيادة السكر من جديد . وهكذا للأبد .. في ذلك العصر كان الخطر هو الملح .. أي الشيوعيين والناصريين لهذا دللت الحكومة السكر أعني أعضاء الجماعات ، قبل أن نفيق على أنهم صاروا يسيطرون على الجامعة سيطرة مطلقة ، وقبل أن ترفع المقاعد ويتلاشى دخان الحفلة ليرى الجميع جثة السادات الممزقة على الأرض ..

في هذا العصر كان أسامة عبيد لا يكف عن التبشير بماركسيته . وكانت هذه المرة الأولى التي ألقى فيها مثقفاً ماركسياً خارج الكتب .

فبدا لي غريباً ثم بلا لحظة تعب واحدة .. كأنه خرج من أحد كتب جوركي و شولوخوف .. كان يتهمني بأن ثقافتي أفقية لا رأسية لأنني لم أنخرط معه . وكان يقول « أي مثقف حقيقي هو يساري بشكل تلقائي » . لكني أعترف بأن هناك عاملاً مهماً جعلني أبتعد عن دائرته هو الخوف .. كنت أتخيل دائماً تلك الغارة الليلية أو الصباحية على داري والزنزانة المليئة بالماء والكرابيج والكلاب والصعق بالكهرباء ، فكان هذا يقضي على أي حماس لفهمه أكثر .. فقط كنت أحتفظ بصداقته من بعيد ، وأحضر مسرحياته التي كان يخرجها في حماس مشبوب كأنه بصدد الإعداد لثورة .. دخان التبغ والمقاعد المغبرة التي يعلوها طين من التراب ، والخيش والفئران التي تجري على قدمك قبل أن ترفعها ، والوجوه الغريبة التي تجلس في آخر القاعة ولا نعرف من أصحابها على الإطلاق .. أذكر كذلك تلك المسرحيات التي كان يختارها ذات الطابع الملحمي البريختي (مارا صاد) و (غول لوزيتانيا) و (بيتر ويس) .. المسرحيات التي كانت تقدم في مهرجان الجامعة وكان هو يصر على أن يدس فيها رؤاه الخاصة

عرفت مدى فقر الإمكانيات ورثاثة كل شيء والممثلين الذين لا يعرفون ما هو التمثيل أصلاً . ومصر في مسرحياته هي دوماً فتاة شاحبة رديئة التمثيل جاء بها من مدرسة التمريض ، لكنها باردة قادرة على تحمل صراخه وانفجاراته العصبية التي لا تنتهي .. وكنت أتساءل كيف يستطيع أن يستخلص فناً من كومة الركام هذه

لم يكن أحد منهم ما يقول .. لم يكن أحد يعبأ بما يقول .. فقط جهة واحدة كانت تهتم وترصد وتراقب

تذكرت هذه الأحداث وأنا أقرأ مأساة الفتيين اللذين التهمتهم النار في بني سويف. هناك أخبار متضاربة بهذا الصدد ولست متأكدًا بصراحة من موضوع إغلاق المسرح بالجنازير عليهم من الخارج، وربما كانت إشاعة تناثرت وصدقها الجميع. لكني أعرف شيئًا واحدًا هو أن موضوع الجنزير كان يحدث حرفيًا أيام أسامة عبيد ..

إن هذا الحادث البشع يكشف عن جوانب كثيرة من فكر الأمن والنظرة العامة للفن والشخصية المصرية نفسها. عن جانب الإهمال حدث ولا حرج. أذكر أنني كنت أحضر محاضرة يلقيها مهندس معماري شاب، فقال لنا ضاحكًا إن هذه القاعة التي نجلس فيها تخالف أبسط قواعد التصميم الهندسي التي يعرفها أي طالب في إعدادي هندسة. وأشار إلى الباب وقال: أي مكان يعقد فيه اجتماع عام يجب أن تفتح أبوابه للخارج لا للداخل. وإلا هشم الناس بعضهم في حالة نشوب الحريق على باب لا ينفتح. في الغرب يعرفون هذا الموقف جيدًا ويطلقون عليه Theater Panic لكن المشكلة في مصر أننا نعرف .. ليست جهلة بل نعرف لكن أين التطبيق؟

ما زلت أذكر بروفات أسامة عبيد وجنزير الجالسين أفواجًا في الظلام على مقاعد المشاهدين، حتى إنني قلت له ساخرًا: أنت تساهم في تثقيف رجال الأمن بروائع المسرح العالمي. ولولا هؤلاء لما وجدت جمهورًا تقدم له عروضك. تذكرت رجال الأمن المركزي الذين يقفون خارج باب المسرح كأنهم يحرسون مسرحًا نوويًا في مفاعل. تذكرت كل هذا وقلت لنفسي: ما سر هذه النظرة التي تنظر بها الجهة الأمنية للمثقف والتي تدفعها لإهماله وتقديم قبو متداع يقدم فيه عروضه، ثم الشك فيه ومراقبته إلى درجة محاصرة عمله بالجنزير ورجال الأمن المركزي؟

الإجابة هي أن الدولة قلقت من المثقف وتشك فيه فعلًا. إنه كائن منكوش الشعر متحذلق يلبس سراويل من الجينز زمامه مفتوح، ويدخن كمحرقة الجثث، ويلبس نظارة سميكة تم لحامها بالنار، من وراء زجاجها ترى عينيه صغيرتين مستدقتين كعيني بقة. إنه فقير كالأبالسة وثرثار ومزعج. إنه يقول كلامًا غريبًا لا يفهمه أحد، وقد تعلم رجال الأمن أن يشكوا في أي كلام غريب غامض. منذ خمسين عامًا تعلم رجال الأمن أن أي كلام لا يفهمونه هو أفكار شيوعية على الأرجح يقولها رجل شيوعي كافر وابن كلب غالبًا .. .

في كتابه الظريف (الطريق إلى زمش) يحكي عمنا الثرثار محمود السعدني عن الصول المختل الذي دخل على المعتقلين يسأل عن أي رجل (متعلم وبيه).. فمن يلبي نداءه إن لم يكن د. (لويس عوض)؟ تصبح أن الصول يريد من ينظف البالوعة المجاري المسدودة، ووقف المعتقلون يكتمون ضحكهم وهم يرون أستاذ الأدب الإنجليزي الوقور يشمر كميه ويمد يده العارية في البالوعة ليخرج ما بها من قاذورات. لو صدقت هذه القصة فهي نموذج مثالي لرأي الدولة في المثقف عامة.

ومن زلت مع تداعيات الحدث لدى ذكرى بمسرحيات أسامة عبيد. لم يكن الأمر بهذا الخطر .. لم تكن أية مسرحية من مسرحيات أسامة قادرة على إحداث ثورة .. لست في (مونمارتر) هنا .. فلماذا يهتمون بهذا الحد؟ مخبرون وأمن مركزي وجمهرة تنصت ومعتقلات .. هذا يقودني إلى التفكير في حاسة النقد العبقرية العاتية لدى الطبقة الغبية في كل شيء، لكنهم في هذه النقطة بالذات شديدو الذكاء والحرص .. وقد أبدى المخرج الكندي المشاغب كروسبرج عجبه

الشديد بذكاء اطعاه حين يشمون الخطر في الافلام تحرج او قصائد شعر . بيما النقاد عافلون عنه تجاهل النقد الالمان نجيم الموقيين لرابع (المدرعة بوتمكين) . فمن سدى شعر باهميته وحطره ؟ ، هـو) شخصيا !! عندما كان يصرح في رحاله الاعطوسي فبعث منى المدرعة بوتمكين أو موتوا !

ليرحم الله فتينا الذين فترستهم النيران فدفعوا ثمن احطاء الحكومة وأخطاء الشخصية المصرية ذاتها .

ليرحم الله اسامة عبيد بدى قتله العشق الكلوى لقد كان نموذجا للمثقف الثورى لدى لم يفهم رجال لامن حرف مما يقول . لكنهم فهموا ان عليهم ان يحصروه ويرقبوه ويضيقوا عليه الخناق ولن اندهش لو كان ملفه ما زال مفتوحا في مكتب ما بوزارة الداخلية برغم مرور اعوام على وفاته .

هل كان هنا حقًا ؟

هل كان له وجود حقا ؟ ام هو حلم بصرى وسمعى فائق السحر مر به عدد منا في زمن معين ثم أفاقوا ؟

ما دكره هو كسلى كـ طبه في الكنية وحو سا مرهفة كالعصب ، وعواطف مرهفة أكثر من حوسه عندما كنت لبس رائحة وللسحب معه وتصلان رقصة تهيهيب وتعرف رموزها . وفي حفل ليلة رأس السنة ظهر على شاشة سنعربون لنمرة الاولى سم نكن مطرب يمسح شعره بمعرض . ولا مطربة سنه عربية تسمح سرح القاهرة فوق راسها بعد ما صبغه بالاصفر مشهد غير معتاد فعلا ان نرى هذا الشيخ الوقور بعمته الكاملة وجبته الشائبة وعباءة على كتفيه ، وهو يمشي على المسرح كشبح وسط الظلال مغنيا بصوت رخيم :

– .. نفسي يسالني عن طول رحلة صبرى بعدها وبعقل يبهاني

بدى اسعد لتلقى فيه رحيا دا بالحنين وشوقي لا يسعدن »

وستخدم موسيقى رهيبة مهيبة من مسام الكون دانه فيحفن قلبك

لقد سمت الرحمن كذا داب فلم يعد يشعر بنفسه ولا الجمهور صار حرا من الافلات والسهب والنقوب السود القرب حقا من مسام ورث نسمات حتى غاص فيها وفيها مستترة بغمضة برفرفة اجنحة نعرش وعرف بن تموت نفصت وبن تنبت بذنه لقطبه ، وعرف سر ذلك الوميض الغامض الذى يتوهج فى ادمع فى بداية شمس ... يعرف أسرار الشفق القطبي . لقد اقترب ... قريب جدا

يتوغل بين الظلال ساهمًا .. هذه ليست أغنية .. أقسم بالله العظيم إنها ليست كذلك ..إنها تجربة يدنو فيها من سر الكون ، وإن اتخذت شكلاً عاطفيًا ظاهريًا كبعض أشعار المتصوفين .. وانتابنى رعب خفى من أنه ذهب هناك ولن يعود أبدًا ..

من جديد أقسم أنه لم يشعر أن الأغنية انتهت ولا أن أضواء المسرح سطعت ، ولا أن الأكف التهبت بالتصفيق .. كان يستجمع ذاته التى ذابت هناك فى درب التبانة بين المجرات .. هناك عين جوار كوكبة الدجاجة وقلب جوار وعاء الدب الأكبر .. يستجمع هذه الشظايا المبعثرة محاولاً أن يعود لصورته الأولى ..

قالت أختى وهى تمسح دمعة تجمدت فى عينها :

ـ « فؤاد عبد المجيد .. يستعملون موشحاته كخلفيات لفرقة رضا أحيانًا .. »

إذن هذا هو مصدر ذلك الصوت الذائب الغامض القادم من لا مكان ، والذى يردد :

« يا غريب الدار

بأفكارى

كم تخطر ليلاً ونهارا

ادعوك لتأتى بأشعارى

بجمال فاق الأقمارا.. »

مع الكثير من (يا لا لا لا لا) من أجل إضفاء الجو الأندلسى الساحر . وأنت تشعر على الفور بأن هذه الأغانى لم يؤلفها أحد ، إنما هى

موجودة هكذا منذ كنا فى الأندلس . ربما ألفها (زرياب) وربما رقصت عليها (ولادة بنت المستكفى) كى تحرق دم (ابن زيدون) ، ولتقنعه أن التنائى أضحى بديلاً عن التدانى .

لم أكن واهمًا .. فجأة صار فؤاد عبد المجيد ملء السمع والبصر .. على أغلفة المجلات كلها .. فى برامج التلفزيون .. فى الراديو . إنه الموظف الوقور شقيق المعلق الرياضى الشهير (نجيب المستكاوى) ، الذى كان يهوى كتابة وتلحين الموشحات ، وبعد ما صار على المعاش بدرجة وكيل وزارة قرر أن يخرج بموشحاته الرقيقة إلى النور . تأثير هذه الموشحات علينا كشباب كان ساحقًا .. ثمة سحر لا يوصف عندما تأتى العاطفة من شيخ وقور جرب كل شىء واعتصر الحياة واعتصرته ، وهو ذا يهدى لنا خلاصة تجربته وآلامه فى ألحان رشيقة وبكلمات فصحى قوية .. عندما يغنى (على الحجار) أو (عمر فتحى) فهو شاب صديق لك يحكى عواطفه وأنت تسمعه ، أما هذا الشيخ فهو يحكى لك تجربته فتصدقه ، عندما سما الحب وامتزج بالكون وحكمة السنين وآلام لم تبق شعرة واحدة سوداء فى لحيته ..

كانت المذيعة تسأله عن كيفية بناء الموشحات فارتجل هذه الكلمات ولحنها على الفور على العود :

ـ « لاه وخلى البال .. بالفتنة يسبر أغوارى

« ما أدرى له من حال .. وأقاوم جذب التيار

قلبى رغمى يهواه .. نغم ينساب بأوتارى

وأنا ما أطيق هواه .. أو أحسن العيش بالنار

تصور هذا !.. وتصور اللحن المرتجل .. ثم يأتي موزع عبقرى ليجعل من هذا العمل ملحمة كاملة . بعد هذا ظهر شريطه الثانى الذى غنى فيه بعض الكلمات بالعامية ، لكنها عامية تذكرك بعامية (رامى) و(شوقى) - أعتقد أن التوزيع كان للفنان (منير الوسيمى) . هنا تسمع أذنك الذاهلة الشابة الظامئة للحياة ـ وقتها طبعًا ـ كلمات مثل :

ـ « الزمان تاه من سنين .. بس فاكر إننا

« كنا قلبين مجروحين .. واغترابنا ضمنا

« كنت حاسس بالحنين .. لشيء ما لوش فيا وجود

« والتى الوجود .. إلتى الوجود ..

« ما قدرتش أفهم أن آه .. فيها صلاة .. فيها حياة ..

« كان اهتمامك الهول .. يقابله جدران من صخور

« تملاه كسور .. تملاه كسور »

يا نهار اسود !.. (بتول) و(اغترابنا) !.. تأمل رقى ورقة هذه العامية . والصورة الشعرية : « كنت حاسس بالحنين .. لشيء ما لوش فيا وجود » مع ملاحظة أن هذا ليس الشاعر الفرنسى (بول فاليرى) وإنما هو وكيل وزارة على المعاش ..

بعد هذا جاء شريط من كلماته وألحانه لعفاف راضى هو (أبافكارى وبأشعارى) .. وفيه تقول كلمات مثل : « يا فاتنى يا ساحرى .. هيا سويا إلى الثريا .. فاضت بقلبى أشواق حتى ..فمن يلبى .. عشقا سويا ؟.. يا عاذلى يا لائمى .. لا تعذلانى .. بل فافهمانى .. الحب يسمو بالقلب يعلو .. حتى يناجى ربا عليا .. »

ويا ليتنى أستطيع أن أسمعك هذا اللحن إن لم تكن سمعته .

تضخم حلم فؤاد عبد المجيد وتحول إلى نوع من الحمى بالنسبة لنا ، حتى إننى كنت أعلق عشر صور له على جدران غرفتى ، وفجأة .. بخ .. خلاص .. لم يعد هناك .. لقد توفى هذا الفنان العظيم الذى لم تدم شهرته أكثر من عامين . شهاب توهج فى السماء فأضاء كل شيء وأضاء لنا أرواحنا ثم انطفأ وساد الظلام . المليح يبطئ كما يقول العرب ، لكنه كذلك يرحل بسرعة جدًا .

شرائط الكاسيت التى كانت عندى .. كلها اقترضها ناس وأضاعوها ، وعندما أسألهم عنها ينظرون لى فى بلاهة : « أية شرائط ؟.. » لم تعد أغانيه تُذاع . لا أجد صورة واضحة له فى أى مكان ، والإنترنت كلها ليست فيها صورة واضحة له . أسأل بائع الشرائط فينظر لى ثم ينفجر ضاحكًا : « فؤاد مين ؟.. هع هع ..! »

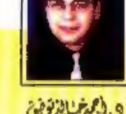
الفنان فى مصر يموت عندما يموت .. هذه حقيقة يجب أن نعترف بها .. أنت موجود طالما أنت تتحرك وتظهر فى وسائل الإعلام وتملأ الدنيا صخبًا وتقبض العربون وترفع عدة قضايا .. ولو ظللت حيًا حتى الثمانين فإنك ستصير الفنان الكبير مهما كان مستواك .. لكن تذكر أنك عندما تموت فلسوف تموت فعلاً . حتى على مستوى العظماء مثل يوسف إدريس وعبد الوهاب وأم كلثوم .. هل حجم وجودهم هو ذات الحجم الذى كانوا يشغلونه عندما كانوا بيننا ؟.. قلها بصراحة ..

أحيانًا ألجأ لأصدقاء الكلية كي أتأكد أن فؤاد عبد المجيد لم يكن حلمًا بصريًا وسمعيًا جميلاً عشنا فيه عامين أو أكثر . ليرحمك الله أيها الفنان الجميل ، ويرحم عبقريًا آخر اختفى تمامًا كأنه لم يوجد ، اسمه (حمزة علاء الدين) .. من هو (حمزة علاء الدين) ؟.. هذا موضوع آخر ...!

فهرس الكتاب



سلسلة 1
مقالات



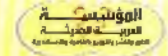
د. أحمد خالد توفيق

لعلك قرأت بعض هذه المقالات ، ولعلك قرأتها كلها . لكن اجتماعها فى كتاب واحد يعطيك نظرة أشمل ، وأعمق .

قد يروق لك هذا الكتاب ، وقد يبرهن على أننى حسن الظن فى نفسى أكثر من اللازم ، ولكنى فى جميع الأحوال أعدك بشىء واحد : هذه مقالات صادقة تمامًا ؛ لم أكتبها طلبًا للمادة ، أو نفاقًا لمسئول ، أو دفاعًا عن جهة ما ..

عندما حاول بعض المحيطين بعبد الناصر أن يوغروا صدره على العظيم (أحمد بهاء الدين) ، قال لهم : اتركوه ؛ نحن راقبناه ، وندرك أنه لا علاقة له بأحد .. هذا رجل (دماغه كده) ..

(دماغى كده) .. عنوان مناسب جدًا لهذه المقالات .. فقط هناك شخص واحد كتبت وهو فى ذهنى ، ويهمنى بالطبع رضاه والفوز باحترامه ـ إن لم يكن بحبه ـ ويغرينى بممارسة تلك اللعبة المعقدة ؛ بين قول ما أريد قوله ، وكتابة ما يريد قراءته ؛ فلا أتورط فى أسلوب (ما يطلبه المستمعون) ، أو أمارس الاستفزاز المجانى لمجرد التميز .. وهذا الشخص هو القادر على جعلى أتردد ، أو أراجع دماغى هذه .. وهو الوحيد الذى أدين له بكل شىء : القارئ .



الثمن فى مصر 10
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

